رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الأول

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

الأميرالاي أركان الحرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

محتويات الكتاب

القسم الأول

أصول الحرب الحديثة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر

القسم الثاني

أمهات الكتب في القرن التاسع عشر

شراح خطط نابليون

المشتركون في هذا الكتاب

١ - *إدوارد ميد إيرل:*

مستشار خاص السلاح الجوي الأمريكي ، محاضر في الجامعة العسكرية ، وأستاذ الدراسات العليا في جامعة برنستون ، وعميد قسم الدراسات العسكرية بها .. دكتوراه من جامعة كولومبيا.

٢ - *فليكس جلبرت:*

المساعد السابق لمحرري الوثائق السياسية الألمانية للحرب العالمية الأولى ، درس الآراء السياسية والمسائل الدولية طويلًا ـ دكتوراه من جامعة برلين.

٣- *هنري جورلاك:*

عميد قسم تاريخ العلوم في جامعة ويسكونسين ، مؤلف كتاب: «العلم والحرب في النظام القديم» دكتوراه من جامعة هارڤرد.

٤ - *روبرت بالمر:*

مؤلف كتاب: «الاثنا عشر الذين يحكمون» ـ ومؤلف بالاشتراك لكتاب: «الاستراتيچية الكبرى لدول المحور». عمل في وزارة الاستعلامات الفرنسية عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، دكتوراه من جامعة ڤيينا ـ يعمل الآن في خدمة الحكومة الأمريكية.

٥- *كرين برنتون:*

مؤلف حياة «تاليران» ـ «حقبة الثورة سنة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٩» ، وغير هذا من المؤلفات التاريخية. أستاذ التاريخ في جامعة هارڤرد ـ دكتوراه في

الفلسفة من جامعة أوكسفورد.

٦ - *جوردون كريج:*

بكباشي في جيش الولايات المتحدة؛ مساعد رئيس تحرير مجلة المشاة الأمريكية؛ مؤلف كتاب: «كبار القادة في الحربين العالميتين» . دكتوراه من جامعة ميتشيجان.

٧- *هانز روسفيلز:*

دكتوراه من جامعة هيدلبرج ـ مؤلف: «الرسائل والكتابات السياسية لكلاوزيڤيتز» ، كما صنَّف كتابًا عن «بسمارك» ، وآخر عن «كلاوزيـڤيتز والسياسة والحرب». أستاذ زائر للتاريخ في جامعة براون الأمريكية.

٨- *الأميرالاي أركان الحرب محمد عبد الفتاح إبراهيم: المترجم*

ماچيستير في العلوم العسكرية من كلية أركان الحرب ، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من جامعة القاهرة. له مؤلفات عدة أغلبها في الشئون العسكرية أهمها في تقديره: «محمد القائد» و«بين حربين» و«الحرب البرقية» و«كلاوزيـڤيتز» و«الحرب الأهلية الأمريكية».

٩ - *كمال الملاخ:*

واضع تصميم الغلاف: تخرج في كلية الفنون الجميلة ، مدير أعمال بمصلحة الآثار ، مكتشف مراكب الشمس.

***

مقدمة

يقول إدورد ميد إيرل في السطور الأولى للمقدمة التي كتبها للنسخة الإنجليزية للكتاب: «في عام ١٨٦٢ قدم روائي أمريكي صورة وصفية للحرب فقال: «عندما تجيء الحرب فإنها تسود أرواح الناس كلهم ، تهب عليهم كالعاصفة ، تقدم من كل مكان وتسير في كل اتجاه ، تختلط بنغمات الأرغن في الكنائس وتملأ طرقات المدن والقرى بالصفير ، تتسرب إلى نيران المواقد في داخل الدور وتجتاح غرف الدراسة في الجامعات ، يقف لها شعر رؤوس السياسيين ، وتضطرب بسببها كل الروابط الاجتماعية فلا يعيش فرد أو جماعة بمنجاة منها ومن تأثيرها سواء أكان هذا التأثير قريبًا مباشرًا أم بعيدًا غير مباشر».

وكان هذا الروائي الأمريكي الذي أشار إليه إدورد ميد في مقدمته ، كان ولا شك عندما قدم هذه الصورة الوصفية يعيش في خضم الحرب الأهلية الأمريكية مع أنها كانت حربًا محدودة مسارح القتال ، محدودة التأثير في النطاق الذي خاض غمارها من الناس سواء من الشماليين أو من الجنوبيين؛ فهي لم تكن حربًا أممية جامعة ، ولم تقم بين الشعوب والقارات ، ومع هذا كان الرجل صادق التصوير في هذا الوصف الممتع الذي قدمه للحرب التي عرفها.

وأشار الكاتب الأمريكي وولتر ميليز إلى الحرب إشارة مركزة عندما رآها تهدد كل مؤسسات المجتمع ، تهدد العدالة التي هي في اقتصاديات هذا المجتمع والكفاية التي هي لتنظيمه السياسي ، تعطل نشاطه الإنتاجي؛ كما تهدد أسس سياسته الخارجية وحكمتها وأهدافها ، ولا توجد صورة من

صور وجودنا لا تتأثر بالتبسيط أو ربما بالتعديل الكامل تبعًا للحرب؛ ثم تجيء الحرب نتيجة مباشرة لأشياء يفعلها أو يخفق في عملها الأفراد والسياسيون والأمم.

والحرب ـ في إيجاز ـ إما أن تكون ناجمة عن السياسية القومية ، أو أن تكون نتيجة للنقص في هذه السياسة ، وعندما تتجه الأمة إلى اتخاذ هذا القرار المخيف بالالتجاء إلى الحرب فإنَّ النصر أو الهزيمة على السواء تكون أيضًا نتيجة حتمية لما تعمله.. أو لما تعجز عن أن تعمله.

فإذا وضحت لنا هذه الحقائق بدا لنا أنه قد يكون من الحماقة أن نترك سياسة الحرب إلى العسكريين وحدهم.. أو أن نتركها للسياسيين وحدهم ، أو أن تترك حتى للعسكريين والسياسيين معًا ، إن الاستراتيجية القومية يجب أن ترسم خطوطها وتوضح أصولها بوساطة رئيس الدولة وهيئة أركان الحرب العامة ، وأن يستكمل تخطيطها بالقوانين التي تصدرها الهيئة النيابية؛ ذلك لأنه في مثل هذا الأمر يجب ألا يتحول كل أفراد الأمة ليكونوا مجتمعًا يناقشون الأمر كلهم فيلقي كلٌ بدلوه ويعرض رأيه ويدافع عن حجته ، ومع هذا فإن الاستراتيجية التي يتم رسمها وتخطيطها بهذا الأسلوب لا تنجح إلا إذا توافرت لها معاونة كل المواطنين النابهين الذين يقفون من أجل نجاح هذا التخطيط الاستراتيجي حياتهم ومستقبلهم بل وشرفهم القومي أيضًا.

إن الأمة في الحرب أحوج ما تكون إلى قيادة حكيمة وإلى زعيم قوي ، وفي دراستنا لتاريخ العالم في متباين العصور ومختلف الأمصار نلقى الكثير من الأسماء لزعماء أقوياء تولوا التوجيه لأممهم في اللحظات الحاسمة الحرجة من حياتها ، وكان لزعامتهم فضل الوصول إلى النصر مهما طال أمد

الصراع ، ولكن القوى الدافعة في هذه الزعامة إنما تجيء من أعماق قلوب ورغبات الأهلين أنفسهم ، ومن أجل هذا.. كان من الضروري أن يعرف أصغر جندي وأحدث ضابط في السلم العسكري الأهداف التي لأجلها يغامر كل منهما بحياته.

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن يوضح في صورة ضافية وفي نطاق واسع لفترات طويلة في حساب الزمن كيف تطورت الاستراتيجية للحرب الحديثة والمسار الذي سارت فيه طوال تطورها هذا ، وبذلك نستطيع أن نتفهم الأسباب الدافعة إلى الحرب ، والأسس الرئيسية التي تتحكم في إدارة الحرب ، إننا نعتقد بأن الرقابة الدائمة على هذا الأمر إنما تقوم بثمن واحد هو حريتنا ، كما نعتقد أيضًا بأنه لكي نستطيع الوصول إلى سلم مستمر فإننا يجب أن نتفهم جيدًا الدور الذي للقوات المسلحة في المجتمع الدولي ، ولم يكن هذا التفهم دائمًا مستطاعًا ميسورًا. ذلك؛ لأنها ليست القوة في حد ذاتها هي التي تكون خاطئة. بل قد يكون الخطأ في الأغراض التي لأجلها تستخدم القوة ، وعلى ما قال «بسكال» منذ ثلاثة قرون: «إن العدالة بلا قوة تكون معدومة الأثر والتأثير ، كما أن القوة بلا عدالة لا تكون أكثر من طغيان ، ولهذا يجب دائمًا أن نجمع بين العدالة والقوة» ، فلا يكفي أن يكون الحق في جانبنا بل يجب أن ندعمه بأن نعد القوة التي تكفل إبراز هذا الحق.

إن الاستراتيجية تُعنى بالحرب.. والتأهب للحرب ثم إدارة الحرب ، وهي في أضيق تعريف لها فن القيادة العسكرية ، فن إدارة وتوجيه المعارك والحملات الحربية ، وتختلف الاستراتيجية عن التكتيك الذي هو فن استخدام الجنود في المعركة ، كما يختلف عزف الفرقة الموسيقية (الأوركسترا) عن عزف كل من الآلات الفردية التي تجيء مكونة للمجموعة كلها.

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كانت الاستراتيجية عبارة عن مجموعة «الخدع» وسائل الخداع والتضليل التي يستخدمها القائد ليضلل خصمه وللوصول إلى النصر وكسب الحرب؛ ولكن لما كانت الحرب والمجتمع قد باتا أكثر اضطرابًا وتعقدًا فقد باتت الاستراتيجية تتطلب بالضرورة تقديرًا وعناية بعدد من العوامل غير العسكرية ، عوامل اقتصادية ونفسية ومعنوية وسياسية وفنية.

ولهذا فإن الاستراتيجية ليست فكرة أو تخطيطًا يجيء وقت الحرب ، أي أن الاستراتيجية لا ترسم حال الحرب وإنما هي عمل نتيجة دراسات طويلة تسبق الحرب بأمد طويل.

وبذلك كله فإننا نصل إلى تعريف للاستراتيجية في عالم اليوم بأنها هي فن السيطرة على كل موارد الأمة واتحاد الأمم بما في هذا القوات المسلحة ، ثم استخدام هذا كله إلى غاية ما يمكن وفي أكمل صور الاستخدام.

وفي دراستنا للاستراتيجية ـ هذه الدراسة التي ستجيء في فصول هذا الكتاب وما يجيء بعده من سلسلة الكتب التي تكمل القصة ، قصة رواد الاستراتيجية من مكياڤيللي إلى هتلر ، وتبعًا للعديد من العوامل غير العسكرية التي لها ، فإننا نلتقي بعدد كبير من المدنيين غير العسكريين الذين قدموا دراسات طيبة لهذه العوامل التي تؤثر في الاستراتيجية ، نلقى أمثال آدم سمث وفردريك ليست الاقتصاديين ، ونلقى ماركس وآنچلز المصلحين الاجتماعيين ، ونلقى ديلبريك وأومان المؤرخين ، كما نلقى تروتسكي الصحفي وكليمانصو السياسي ، وفي الوقت الذي تغيب فيه أسماء عدد كبير من القادة العسكريين أمثال رمسيس الثاني وقيصر وهانيبال وچنكيز خان وتيمور لنك وصلاح الدين ومارلبورو ولى وچاكسون

وولنجتون وبلوخر وجرانت وشيرمان ، وذلك إما لأنهم كانوا تكتيكيين أكثر من أن يكونوا استراتيچيين وإما لأنهم لم يقدموا عقيدة استراتيچية خالصة لها.

كما يجب أن نلاحظ أن نابليون الكورسيكي الذي هو بلا شك أعظم قائد عسكري في العصر الحديث قد وضع أصول استراتيچية في أرض المعركة ولم يسطر شيئًا عنها على الورق اللهم إلا هذه المجموعة من «الحكم» العسكرية التي تركها وراءه ، ولهذا فإننا مع تقديرنا لعبقرية نابليون سنضطر لدراسة استراتيچية عن طريق الاثنين اللذين شرحا هذه الأصول بأن نقلاها من أرض المعركة ليبرزاها في الصورة المسطورة على الورق ، ألا وهما چوميني وكلاوزيڤتز.

وسنعرض في هذا السلسلة من الكتب إلى الحرب الخاطفة ، إلى معركة الإفناء والتدمير ، لحرب المناورة وحرب المواقع ، سنُعنى بالصلة بين الحرب وبين المسائل الاجتماعية ، بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية ، سنُعنى بعلم النفس والقوى المعنوية كسلاحين من أسلحة الحرب ، سنبحث دور الضبط والربط في الجيش ، سننظر إلى دور الجيوش المحترفة وإلى قوات الميليشيا التي تجمع من صفوف الأهلين ، وفي طوال هذا كله سننظر إلى الصلات التي تربط السياسة والاستراتيچية ، إلى القوى السياسية والقوى العسكرية والتي لا ينفصل بعضها عن بعض ، وإلا اضطربت السياسة الخارجية على ما يقول وولترليمان ، وسننظر إلى الكثير من الآراء والمعتقدات والأصول العامة مثل حرية التجارة ، حرية الأفراد ـ الأخوة بين الناس ـ الاشتراكية .. وغير هذا من الصور التي تؤثر في أسباب الحرب وفي إدارة الحرب.

إن الحرب اليوم قد باتت تحتل مكانًا من التفات الناس في كل مجتمع ، وقد باتت تعني جميع الناس على مختلف ألوانهم ومتباين أنصبتهم من المدنية والحضارة ، ولم يعد من الممكن أن يعيش فرد واحد في هذه القارات التي تغطي سطح الكرة الأرضية بعيدًا عن مؤثراتها في صورة ما ، وعلى قدر له أهميته بالنسبة له وبالنسبة للبيئة التي تحيط به ، فعندما يبدأ الصراع تتطلب الحرب كل الجهد الجماعي للمجموعات البشرية كلها ، وفي وقت السلم كما في وقت الحرب يتطلب الأمر تفهم الجميع لمجريات الأحوال التي تدور من حولهم .. معرفة الأسباب والوسائل وتقدير النتائج.

ومن أجل هذا التفهم الصحيح ، أو بمعنى أصح ليمكن إدراك هذا التفهم الصحيح كانت صفحات هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق.

القاهرة في الرابع من أكتوبر عام ١٩٥٦

محمد عبد الفتاح إبراهيم

أميرالاي أركان الحرب

القسم الأول

أصول الحرب الحديثة

من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر



مكيافيللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧)

الفصل الأول

مكيافيللي: نهضة فن الحرب
بقلم فليكس جلبرت

«يعتقد الكثيرون اليوم بأنه لا يوجد شيئان أكثر تباينًا واختلافًا وأبعد عن الائتلاف والتناسق من الحياة المدنية والحياة العسكرية ، ولكننا عندما ننظر إلى طبيعة الحكومة والسلطة فإننا نجد صلات وثيقة قوية بين هاتين الحالتين أو الحياتين ، وأنهما ليستا فقط تكملان بعضهما البعض ، بل إنه من الضروري أن ترتبطا وثيقًا وأن تتحدا معًا اتحادًا قويًّا».

وهذه الجمل التي تجيء في فاتحة كتاب «فن الحرب»[١] لمكياڤيللي تنير لنا السبيل لتفهم عناية مكياڤيللي بالمسائل العسكرية ، على أن مكياڤيللي لم ينظر إليها في دراسته لها نظرة رجل عسكري فني؛ بل إنه لاحظ الدور الحاسم الذي للقوة العسكرية والتأثير الذي لها في السياسة ، وقد انتهى إلى أن كيان وعظمة كل دولة إنما يضمن ويؤكد منهما إذا حظيت القوة العسكرية بنصيبها الصحيح ومكانتها الحقيقية من النظام السياسي للدولة.

كتب مكياڤيللي في كتاب «الأمير» Principe[٢]ـ وتبدو الأهمية التي يقدرها لما كتب من حقيقة واحدة هي أنه عاد فكرره أيضًا في كتابه

(١) مقدمة كتاب «فن الحرب» ومجموعة المؤلفات التاريخية والكتابات الأدبية لنيكولو مكياڤيللي ، طبعة ماتسوني وكاسيلا (فلورانس ١٩٢٩) ص ٢٦٥.

Machiavelli: Arte della Guerra, tutte le opere, storiche e letterarie di Niccolo Machiavelli.

(٢) كتاب «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٤ في المجموعة السابقة.

«المقولات» Discorsi[١] «ولا يمكن أن توجد قوانين صالحة إلا حيثما وُجدت أسلحة قوية ، وحيثما وُجدت أسلحة قوية توجد قوانين صالحة»؛ ولهذا فإنه يحث الحاكم على أن يضع نصب عينيه دائمًا أن احتفاظه بسلطته يتوقف على القوة العسكرية فيقول: «ويجب أن لا يكون للأمير أي هدف أو رأي آخر ، ولا أن يعني بدراسة أي شيء غير الحرب وتنظيمها وضبطها»[٢].

وقد عني مكياڤيللي في كتابه «المقولات» بهذه المشكلة ـ هذا الكتاب الذي وقفه للحديث عن العلاقة بين التنظيم العسكري الروماني والدستور السياسي لجمهورية روما وعن نهضة روما لتكون قوة عالمية ـ وانتهى مكياڤيللي من دراسته للتاريخ الروماني إلى أن «أساس الدولة هو التنظيم العسكري السليم»[٣].

وهكذا أيضًا فإن كتابه «فن الحرب» الكتاب العسكري العظيم الذي قامت عليه أساسيًّا شهرة مكياڤيللي كمفكر عسكري ، فبالرغم من أنه عني فيه بتفاصيل التنظيم العسكري وفن القتال «التكتيك» إلا أنه يتعمق إلى أبعد من هذا ويناقش الأحوال والالتزامات السياسية للتنظيم العسكري الصحيح ، وكان تحقيق دور القوة العسكرية في الحياة السياسية هو المغناطيسية التي جذبت نحوها كل تفكير مكياڤيللي السياسي.

***

(١) كتاب «المقولات» الكتاب الثالث فصل ٣١ ص ٢٤٤ في المجموعة السابقة.
(٢) كتاب «الأمير» فصل ١٤ ص ٢٦ في المجموعة السابقة.
(٣) «المقولات» الكتاب الثالث ـ فصل ٣١ ص ٢٤٤ في المجموعة السابقة.

[١]

ولكن كيف وجَّه مكياڤيللي كل انتباهه إلى مشكلة الصلة بين التنظيم السياسي والتنظيم العسكري؟!!

إن تجارب العصر الذي عاش فيه قدمت له درسًا قيمًا له أثره بملاحظته لتأثير العامل العسكري على الحياة السياسية ، فلقد لاحظ وشاهد فقدان موطنه لحريته بسبب فشل الآلة العسكرية لوطنه ، كما رأى أيضًا إيطاليا كلها تفقد استقلالها وتسيطر عليها جيوش أجنبية.

على أن اهتمام مكياڤيللي بهذا الأمر إنما جاء أساسيًّا ثمرة المعرفة السياسية الممتازة التي توافرت له ، كما كان دليلًا على تفهمه الحساس للقوى الحقيقية بين التنظيمين العسكري والسياسي لهذه الحقْبَات من السنين ، والتي كانت في أعماق التفاعلات الثورية العظيمة للقرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ ولم يكن ليكتشف الصلة بين التغييرات التي حدثت في التنظيم العسكري وبين التطورات الثورية التي حدثت في النطاق الاجتماعي والسياسي إلا عقل حاضر ممتاز.

إن الصلة بين السبب والتأثير في التطورات العسكرية تبدو واضحة حتى للمراقب العادي ، فلقد وضح أنه بسبب اكتشاف البارود واختراع الأسلحة النارية والمدفعية ضاعت قيمة الدرع الذي يَرتَديه الفارس كما وضح انهيار التنظيم العسكري للقرون الوسطَى ـ والذي لعب فيه الفرسان الدور الحاسم ـ انهيارًا لم يمكن تجنبه.

ويقص أوريوستو الإيطالي مواطن مكياڤيللي في ملحمته الشهيرة(١)

(١) ل. أوريوستو:«أو رلاندو فيوريوزو الكتاب الأول النشيد التاسع. الترجمة الإنجليزية=

«أورلاندو فيوريوزو» كيف أن أورلاندو بطل ملحمته الشعرية الطويلة ، والرجل الذي توافرت له كل فضائل الفروسية اضطر إلى أن يواجه عدوه بسلاح ناري ، فيقول:

«وفي الحال هزت الأرض هذه الأضواء الخاطفة»

«ورددت التحصينات المهتزة صدى الصوت»

«أما الوباء الذي لا يمكن أن يفقد قوته عبثًا»

«وليس له إلا أن يمزق كل من يجرؤ على اعتراض سبيله»

«ويثير الصفير مندفعًا بسرعة وعنف مع الريح».

فلما نجح أورلاندو ـ الذي لا يُقهر ـ في التغلب على عدوه المخيف ، وحق له أن يتخير من الغنيمة والأسلاب الثمينة ما أراد:

«وليس للبطل أن يحمل معه»

«من أسلاب يوم النصر هذا»

«إلا هذا السلاح الذي كانت قوته لا تقاوم»

«كالرعد في مساره السريع»

ثم يبحر البطل في المحيط الفسيح ويُلقِي هذا السلاح في أعماق البحر قائلًا:

«أيها السلاح اللعين الذي هو آلة الموت»

«والذي صنع في المناطق السوداء السحيقة»

«والذي وضع على أساس فن السيئ النية الشرير بعلز بول»

=بقلم جون هول.

«ليدمر كل الجنس البشري»

«لهذا وحتى لا يجسر أي فارس بوساطتك مرة ثانية»

«أو يحاول جبان بمعاونتك في الحرب»

«مهاجمة عدو نبيل مستندًا إلى دعامة نافعة»

«فلتبق إلى الأبد في هذه الأعماق البعيدة»

وفي إيجاز؛ فإنه إذا لم تكن الأسلحة النارية قد اخترعت أو كان من الممكن تحريمها الآن فإن دنيا الفرسان يمكن أن تعيش إلى الأبد بما فيها من مظهر أخَّاذ رائع.

على أنه من الصعب أن يتمشى مع الواقع هذا الإيضاح الدرامي لانهيار قوة الفرسان ، فإن تاريخ المعاهد والتعاليم العسكرية لعصر ما لا ينفصل إطلاقًا عن التاريخ العام لذلك العصر ، وقد كان التنظيم العسكري للعصور الوسطى جزءًا بارزًا من حياة العالم في ذلك الزمن ، فلما تمزق البناء الاجتماعي للعصور الوسطى غربت شمس هذا التنظيم العسكري.

والواقع أن الفروسية كانت من الناحية الروحية والاقتصادية أبرز إنتاج العصور الوسطى ، وفي مجتمع ينظر فيه إلى الله على أنه الرئيس الأعلى للتنظيم ، فإن كل دولة في ذلك المجتمع يجب أن تستكمل دورها الديني ، وأن تستهدف في كل أوجه نشاطها الدنيوي معنى دينيًّا.

لقد كان واجب الفرسان الرئيسي حماية أهالي البلاد والدفاع عنهم ، كان الفرسان ـ في الحرب ـ يخدمون الله سبحانه وتعالى ، وتبعًا لهذا فإن الفارس كان يضع خدمته العسكرية تحت إمرة سيده الأعلى الذي وكلت إليه الكنيسة الإشراف على النشاط الدنيوي للأفراد ، ومع هذا؛ فإنه فيما عدا

الجانب (الروحي/الديني) فإن الارتباط العسكري بين مستغل الأرض وبين السيد كان له الجانب القانوني والاقتصادي ، فإن الأرض أُعطيت للفارس بوساطة السيد ، وفي تقبله لها كان تقبل الالتزام بأداء الخدمة العسكرية ـ في زمن الحرب ـ من أجل هذا السيد.

وهكذا يتَّضح أن هذا كله كان نوعًا من التبادل. بضاعة مزجاة عاجلة في مقابل خدمة عسكرية آجلة ، وكان هذا يتفق أيضًا مع التنظيم الزراعي ، ومع نظام تملك السيد لكل الأراضي ، النظام الإقطاعي الذي عرفته القرون الوسطى وظل قائمًا طوالها.

على أن وجهة النظر الدينية في الحرب كوسيلة لإقرار العدالة ، وتحديد الخدمة العسكرية على طبقة الفرسان مستغلِّي الأرض التي يملكها سادة البلاد ، ثم الارتباط المعنوي القانوني الذي يجمع أفراد الجيش بعضهم إلى بعض ، كل هذه كانت العوامل التي أوجدت صور التنظيم العسكري كما أوجدت وسائل وأساليب الحرب في العصور الوسطى.

كان الجيش يتجمع فقط عندما تنشأ حال محددة تعني قرب قيام الحرب ، ويؤمر بالخروج إلى حملة معينة لإدراك هدف محدد ، ويظل متجمعًا طوال وقت استمرار هذه الحملة أي إلى أن يتم إدراك هذا الهدف المحدد ، على أن الطابع الموقوت للخدمة العسكرية والمساواة بين كل المتقاتلين قد جعلتا من الصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن يتوافر الضبط والربط بين هذه المجموعة المتباينة من الجند؛ كانت المعركة غالبًا ما تتحول إلى صراع بين الفرسان فرادى ، وكانت هذه المعارك الفردية بين القادة تلعب دورًا حاسمًا.

ولما كانت الحرب تمثل استكمال الواجب الديني المعنوي فقد توافر

الاتجاه القوي لإدارة الحرب والمعارك تبعًا لقواعد ثابتة ، ووفقًا لقانون قائم متفق عليه.

ولما كان هذا التنظيم العسكري هو الإنتاج التقليدي لكل النظام الاجتماعي للعصور الوسطى فإن أي تغيير في أسس هذا النظام لابد وأن يكون له التأثير الذي لا يمكن تجنبه في الميدان العسكري؛ ولهذا فإنه عندما هزَّ الانتشار السريع لاقتصاديات النقد ـ القواعد الزراعية في القرون الوسطى ـ كان لهذا التطور تأثيره المباشر على النظم والتقاليد العسكرية.

وقد انتفع إلى حد كبير من هذه الفرصة ـ فرصة الاتساع السريع لاقتصاديات النقد ـ انتفع أولئك الذين كانوا في مقدمة العاملين لهذا التطور الاقتصادي الجديد ألا وهم ملاك الأراضي الأثرياء وسادة المدن ، وجاء انتفاعهم أول ما جاء في الميدان العسكري؛ ذلك لأنه بات في استطاعتهم أن يتقبلوا نقودًا بدلًا من أداء الخدمة العسكرية ، أي أن يؤدي لهم مستغلو الأرض كراء أرضهم نقدًا بدلًا من أن يقوموا بأداء الخدمة العسكرية ، وفي ذات الوقت بات في استطاعتهم أن يستخدموا هم بدورهم أناسًا يقومون بأداء الخدمة العسكرية نظير أجور أو مكافآت مالية بدلًا من أن يقطعوا أرضًا يستغلونها.. وهكذا تحول الأمر. فالذي لا يرغب في القيام بالتزاماته العسكرية للسيد كان من الممكن أن يدفع له نقدًا بدلًا من أداء هذه الخدمة ، وبذلك أيضًا بات من الممكن أن يعوض السيد أولئك الفرسان الذين يبقون في جيشه لمدة أطول من الأمد المحدد للحرب بأن يدفع لهم «دفعات» مالية منتظمة .. أي مرتبات ، وهكذا استطاع السيد أن يوجِدَ تدريجيًّا أساس جيش محترف دائم يعمل في خدمته ، وأن يتحرر من الاعتماد على مستغلي أرضه.

وقد سارت هذه العملية ـ عملية التحول من الجيش الإقطاعي إلى الجيش المحترف ، ومن الحكومة الإقطاعية إلى حكومة منظمة كاملة تعمل في خدمتها مجموعة من الموظفين يخضعون لرؤسائهم المباشرين على التوالي ، ويتولون كل تفاصيل الحياة العامة والخاصة ـ سارت ببطء ، ولم تصل إلى ذروتها إلا في القرن الثامن عشر؛ ولكن روح الفروسية ـ الروح التي توافرت للجيوش الإقطاعية ـ كانت قد ماتت بسرعة قبل هذا.

ونجد وصفًا تصويريًّا لهذا التحول أو التغيير في أغاني القرن الخامس عشر ، وفي الأغنية يتحدث المؤلف عن الحياة في جيش شارل الشجاع سيد بورجوندي[١].

كانت بورجوندي[*] تشكيلًا سياسيًّا حديثًا في القرن الخامس عشر. وقد نظرت إليها الدول القديمة وكأنها صورة غامضة لدولة ناشئة من العدم ، أو أنها غير واضحة وغير قانونية التشكيل في معنى آخر؛ ولهذا فقد كان شارل الشجاع تواقًا لإثبات قانونية وجود مملكته بدقة اتّباعِه لكل التقاليد والعادات القديمة ، وبذلك أضحى زعيمًا للإحياء الرومانتيكي

(١) الأغنية بقلم ديشامب ، وقد وسمت بعنوان «متى يجيء أمين الخزانة؟» مطبوعة ضمن مجموعة أعمال ديشامب ، طبع سانت هلير المجلد الرابع باريس ١٨٨٤ ص ٢٩٤.

(*) كانت بورجوندي مملكة مستقلة فيما سبق ، ثم صارت ولاية من الولايات الفرنسية ، وكان سكانها الأولون من قبيلة ألمانية هي قبيلة بورجوندي (Burgundy) وقد مدوا من أرضهم بين الراين والنيكر في جانب ، والأودر والفستيولا من جانب آخر ، هزمهم الهون ثم غزاهم الفرنك ولكنهم عادوا فاستقلوا ببلادهم عام ٨٢٢ الميلادي ، وكانت لهم قوة كبيرة وقد ازدادت تدريجيًّا ولكنهم انتهوا إلى أن قسمت بلادهم إلى عدة ولايات واستولت فرنسا على الجزء الذي يقع في بلادها ، وتنتظم الآن في مقاطعات ألاين ويون وكوت دي أور وساؤن إيه لوار وأهم مدنها ديجون ومكاؤن ، وتروي أرضها أنهار الرون والسين واللوار وتشتهر بصناعة الخمور. «المترجم».

لعهد الفروسية ، وإعادة هذا العهد بتقاليده ونظمه من جديد.

والشيء الأكثر وضوحًا في هذه الأغنية هو أن الفارس و«الشاويش» ومستغل الأرض.. كل هؤلاء كانت تسودهم فكرة واحدة ، فكرة التساؤل عن موعد مجيء أمين الخزانة الرجل الذي عُرف بأنه هو الذي يتسلم كراء الأرض من المستغلين العازفين عن أداء الخدمة العسكرية ، ويدفع أجور الفرسان الذين لم يقطعوا أرضًا زراعية يستغلونها بدلًا من هذا الالتزام الذي يقومون به بأداء الخدمة العسكرية ، وهنا نرقب وراء الصورة البراقة للفروسية الصورة الحقيقية للمصلحة المادية.

وقد اختلطت تمامًا في جيوش الدول الكبرى ـ كفرنسا أو أراجون أو انجلترا ـ اختلطت العناصر القديمة والجديدة ، عناصر القوَّات الإقطاعية وعناصر الجنود المأجورين المحترفين ، ولكن القوى الكبيرة التي كانت تمتلك المال في ذلك العصر مثل المدن الإيطالية فإنها اعتمدت تمامًا على الجنود المحترفين.

ومنذ القرن الرابع عشر كانت إيطاليا «الأرض التي تمتلئ بالعسل» ، أرض الخيرات بالنسبة لكل الفرسان الذين كانت الحرب وسيلتهم الأساسية للحصول على المال ، وكانت الجماعات التي تنظم في تشكيل سرايا الأمن والحراسة Compagnie di Ventura تمون وتنقد أجورها بوساطة قادتها المحترفين ، أولئك الذين كانوا على أتم استعداد للقيام بخدمة أية دولة ترغب في أن تدفع لهم أجورهم ، وهكذا باتت الجندية في إيطاليا حرفة منفصلة تمامًا عن أيِّ نشاط مدني آخر.

ووسعت أيضًا قوة رأس المال واقتصاديات النقد من قاعدة التجنيد

في الجيوش ، واجتذبت النقود للخدمة العسكرية طبقات جديدة من الرجال المتحررين من التقاليد العسكرية ، وكان من الممكن مع هذا التسرب للرجال الجدد أن توجد أسلحة جديدة ، وأن توضع أساليب جديدة للقتال ، وأن تتطور هذه وتلك ، وظهرت قوات المشاة ورماة السهام في الجيوش الفرنسية والإنجليزية في حروب المائة عام.

وتلقى هذا الاتجاه نحو تجربة أساليب عسكرية جديدة قوةً معاوِنة جديدة تدعم من وجوده: هي الهزيمة التي لحقت بفرسان شارل الشجاع من خصومهم السويسريين وذلك قرب نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، ففي معركتي «مورات» و«نانسي» سنة ١٤٧٦ لم يستطع فرسان شارل الشجاع أن يمزقوا مربعات الجنود السويسريين المترجلين ، ولم يستطيعوا النفوذ وسط فئوسهم التي كانت أشبه بأشجار غابة كثيفة؛ ولهذا انهزموا تمامًا ، وكان هذا الحادث عامل إيقاظ لأوروبا كلها ، وكسب المشاة مكانهم في التنظيم العسكري لذلك العصر.

ومن الضروري أن نقدِّر أهمية اختراع البارود بالنسبة لهذه التطورات العامة ، ألا وهي:

أولًا: نشوء اقتصاديات النقود.

ثانيًا: محاولة السيد الإقطاعي أن يحرر نفسه من الاعتماد على مستغلِّي أرضه وأن يوجد نظامًا جديدًا للقوات المقاتلة يستند إليه.

ثالثًا: الاتجاه نحو التجربة في التنظيم العسكري الناشئ عن انهيار نظام الإقطاع.

على أن الأسلحة النارية والمدفعية لم تكونَا علة هذه التطورات ،

ولكنهما كانتا من العوامل المعاونة الهامة التي زادت من سرعة التطور ودرجته ، فإنهما قَوَّتَا أولًا من مركز السيد بالنسبة لأتباعه من مستغلي أرضه ، وكان استخدام المدفعية في حملة ما واجبًا معقدًا مجهدًا ، فقد كان نقل المدافع الثقيلة وعتادها يتطلب عربات كثيرة كما كان يتطلب عددًا كبيرًا من المهندسين الأخصائيين ، وكانت العملية في جملتها تستنزف نفقات طائلة.

وتوضح النفقات العسكرية في ذلك العصر أن نفقات المدفعية كانت وحدها تقتطع الجزء الأكبر من مجموع النفقات[١] ، وكانت الدول الغنية جدًّا هي وحدها التي تستطيع إعداد المدفعية؛ ولهذا فإن التأثير العسكري الرئيسي لاختراع المدفعية كان يقف في جانب الدول الكبرى ضدَّ الدول الصغرى والمراكز المحلية المستقلة.

على أن الانتهاء من النفوذ الذي كان للفرسان في القرون الوسطى قد حدث في هذه الصورة: كان الفارس وهو يستند إلى قلعته في أمن من الهجوم؛ ولهذا نال فن التحصينات مكانة كبيرة في ذلك العصر[٢] ، وحمت الدول الصغرى أنفسها بإنشاء سلسلة من القلاع على طول حدودها ، ومكَّنها هذا من الوقوف والتماسك حتى ضد قوَّات كبيرة تزيدها عددًا؛ ولكن تحصينات القرون الوسطى هذه كانت من جهة أخرى معرضة لنيران المدفعية ، وبذلك فإن التوازن العسكري كان يقف في جانب عمليات الهجوم.

(١) راجع على سبيل المثال الأوامر الصادرة لجيش الدوق سفورتزا ١٤٧٢-١٤٧٤ في مجموعة السجلات التاريخية اللومباردية ٣ جزء ١ عام ١٨٦٧ ص ٤٤٨-٥١٣.

(٢) أومان ـ تاريخ فن الحرب في القرون الوسطى لندن ١٩٢٤ ص ٣٥٨.

Oman, A History of the Art Of War in the Middle Age (London ١٩٢٤) I, ٣٥٨.

يقول فرنشيسكو دي چيورچيو مارتيني ـ أحد كبار المهندسين الإيطاليين في القرن الخامس عشر الذي وكّل إليه بناء الحصون لدوق أوربينو ـ يقول في كتابه عن هندسة البناء العسكرية: «أن الرجل الذي يستطيع أن يقوي من الدفاع ضدّ الهجوم يمكن أن يكون أكبر من طبقة البشر، إنه في درجة الآلهة»[١].

وقد سبب أيضًا هذا التحول في تكوين الجيوش وهذا التطور في الفن العسكري، سبّبا تبدُّلًا واضحًا في روح التنظيم العسكري؛ إذ فقد القانون المعنوي والتقاليد والعادات التي أوجد منها الإقطاع كل السيطرة على المادة الخام أي البيئات التي باتت الجيوش تجند منها في ضوء هذه الصورة الجديدة، فقد باتت القوة الأساسية للجيوش، أو بمعنى أدق الكتلة الكبرى منها من المغامرين والأفاقين الذين يطلبون الثراء والغنم، دون أن يكون لديهم ما يفقدونه في الحرب، بل إن كل ما يصلهم منها كسب لهم؛ وكنتيجة لهذا الموقف باتت الخدمة العسكرية كسبًا ماليًّا.

وقد برزت كذلك مشكلة معنوية في بحث «هل يعتبر تطلب حرفة تستهدف قتل الناس الآخرين خطيئةً؟»، وفي فجر القرن الخامس عشر وقفت كريستين دي بيزان جزءًا من بحثها العسكري لمناقشة ما إذا كان تقبل النقود كأجر للخدمة العسكرية يعتبر عملًا عادلًا؟[٢].

(١) فرنشيسكو دي جيورجيو مارتيني «أحاديث في هندسة البناء المدنية والعسكرية» تورينو ١٨٤١ ص ١٣١.

(٢) كريستين دي بيزان «كتاب في أعمال الجيوش والفرسان» الكتاب الثالث الفصل السابع.
وكريستين دي بيزان إيطالية المولد، ولدت في فينيسيا قرابة عام ١٣٦٣، وهي ابنة توماس بيزان من بولونيا وقد اشتهر في عصره بخبرته في علم الفلك؛ كتبت كل مؤلفاتها في النثر والقصيدة بالفرنسية، وانتقلت إلى فرنسا للإقامة بها وهي في الخامسة من=

ووجه مارتن لوثر بعد قرن كامل بضرورة الإجابة على ذات السؤال فقط في أسلوب آخر هو: هل يمكن أن يكون الجندي مسيحيًّا؟[١].

وفي أكثر أجزاء أوروبا مدنية ـ كإيطاليا مثلًا ـ امتنع الناس عن أن تكون لهم أيَّة صلات في صورة ما بالجندي المحترف، وحتى بين السياسيين لم يعد للفضائل العسكرية أيُّ تقدير، وقد بعث سفير دوق فيرارا من فلورنسا[٢] سنة ١٤٧٤ في تقرير له يقول: «لقد ازداد الاستقرار بدرجة كبيرة، وإذا لم يحدث ما ليس في الحسبان فسنسمع في المستقبل عن معارك تشنُّ على الطيور والكلاب أكثر مما نسمع عن معارك الجيوش، وأولئك الذين يحكمون إيطاليا في السلم لن يكسبوا شهرة أقل ممن أبقوها في حرب؛ لأن النهاية الحقيقية للحرب هي السلم».

وبدأ الكثيرون من ذوي العقول النيرة يناقشون إمكان إلغاء وباء

=عمرها برفقة والدها، نمت ذات جمال أخاذ مكَّنها من زواج أحد مشهوري عصرها هو ستيفن كاسل وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وقد أحبت زوجها بدرجة كبيرة ولكنها لم تلبث أن فقدته بعد عشر سنوات، كانت الصدمة مؤثرة فلم تجد سلوى إلا في الانصراف للكتابة والتحرير. ومن غير المعلوم متى وأين ماتت، على أن جل كتبها نشرت في فرنسا وترجم بعضها إلى الإنجليزية.

وأهم كتبها النثرية كتابها عن حياة شارل الخامس وقد كتبته تلبية لطلب فيليب الطيب دوق بورجوندي.

وجاء ذكر كل مؤلفاتها إلى جانب الترجمة لحياتها التي نشرت في المعجم العام للشخصيات المطبوع في لندن عام ١٨١٥. جزء ٢٤ ص ٥٢٣، ٥٢٤ «المترجم».

(١) في رسالته المسماة:

Ob Kriegsleute auch ym Seligen stande sein Kuenden (١٥٢٦).

(٢) Cappelli, “ Lettere e notizie di Lorenzo de Medici” Atti Memorie della RR Deputazione di storia Patria. Le provincie Modenesi e Parmensi I (I٨٦٣), ٢٥i.

كابيللي: رسائل ومذكرات لورنزو دي ميدتشي «القوانين والمذكرات لوفود ولايتي مودينا وبارما».

الحرب والانتهاء من الجندية ، وأضحت مسائل التنظيم العسكري ومكانته في النظام الاجتماعي مشاكل تتطلب إعادة البحث والدرس ، كأن عهدًا جديدًا يبدأ ولم يعد من مكان للتنظيم القديم في طبقات.

كان الأمر يتطلب أكثر من عقلية نفَّاذة ، ويحتاج أكثر من ميل ورغبة لتفهم السياسة ؛ وذلك ليمكن إدراك دوافع نشأة هذه القوى التاريخية الجديدة ووجودها وتطور هذه الظواهر السياسية المستحدثة.

والواقع أنه كان فقط نتيجة لحادث سياسي مدمر أن انهار كلُّ البناء التقليدي القديم ، ووضحت عدم كفاية النظام السياسي القائم ، فمهد بذلك الطريق لتفهم كامل جديد وتقويم صحيح للموقف السياسي ، هذا الموقف الذي حدث في عام ١٤٩٤ عندما غزا جيش فرنسي يقوده شارل الثامن «وقد زُوِّد بمدفعية قوية ، وتكوَّن من جنود المشاة السويسريين» غزا إيطاليا وأطاح بالنظام السياسي القائم فيها.

وقد قال جتشارديني صديق مكياڤيللي والمؤرخ الكبير في ذلك العصر.. قال عن ذلك العام (عام ١٤٩٤): «كان عامًا مليئًا بسوء الجد لإيطاليا ، وهو العام الذي سبق كل الأعوام التي تلته والمليئة بالمآسي والمصائب»(١).

وقدم جتشارديني وصفًا قيمًا للنتائج الثورية البعيدة المدى التي نتجت عن هذا الغزو الفرنسي(٢): «وقد انتشر تأثير الغزو في إيطاليا كلها انتشار النار المحرقة وانتشار الوباء الجارف ، ولم يُطِح فقط بالسلطات الحاكمة؛ بل

---

(١) فرانشيسكو جتشارديني قصة تاريخ إيطاليا الكتاب الأول الفصل السادس مارس ١٩٢٩.

(٢) فرانشيسكو جتشارديني ـ تاريخ حوادث فلورنسا ـ باري ١٩٣١ ص ٩٢ ، ٩٣.

وغيَّر من نظم الحكم ومن أساليب الحرب. كانت في إيطاليا قبل ذلك خمس ولايات رئيسية هي: دولة الكنيسة ، ثم دول أربع هي نابولي وڤينيسيا وميلان وفلورنسا؛ وكان كل ما تعنَى به هذه الدول الخمس هو إبقاء الحال على ما هي عليه ، كانت كل واحدة تحاول منع الباقيات من أن تمدّ حدودها أو أن تقوَى إلى الحدِّ الذي تهدد فيه الباقيات ، لقد راقبت هذه الدول الخمس بعناية أتفه التحركات في لوحة السياسة التي هي أشبه بلوحة الشطرنج ، وكانت تثير ضجة عالية لو غيرت أصغر القلاع حاكمها ، فإذا قامت بينها حرب كانت القوى متساوية ، وكان تنظيمها العسكري يسير في بطء ، وكانت مدفعيتها قليلة؛ ولهذا كان الصيف يضيع في حصار قلعة واحدة ، ثم تستمر الحرب طويلًا وتنتهي المعارك عادة بخسائر تافهة أو بلا خسائر إطلاقًا؛ ولكن عندما جاء الغزو الفرنسي انقلب كل شيء رأسًا على عقب ، وكأن عاصفة جامحة مرت فجأة بالبلاد ، فتمزقت كل الروابط التي كانت تربط بين الحكام في إيطاليا كلهم ، وتبددت أمانيهم في رفاهيتهم جملة ، كانت كل دولة تتلفت من حولها فترقب كيف تضيع الممالك وتفض البلاد على أهليها؛ ولهذا فقد انتفضت الدول وباتت كل منها تفكر في أَمنِها وحدها ، ونسي الجميع أن النار التي تلتهم منزل أي جار لهم يمكن أن تمتد لتحرق منازلهم ، لقد باتت الحرب تسير بسرعة ، وباتت الدولة تقهر وتهزم في سرعة أكبر مما كان الأمر يستلزم للاستيلاء على قرية صغيرة في الماضي ، كان حصار المدن قصيرًا وناجحًا ويتم في أيام وساعات بدلًا من شهور ، وباتت المعارك دامية كثيرة الخسائر ، ولم تعد مهارة الساسة في المفاوضات هي التي تصل إلى القرار الحاسم؛ بل باتت الحملات العسكرية وقبضات الجنود هي التي تقرر هذا وترسم مستقبل الدول».

وتوضح كلمات جتشارديني عمق شعور الإيطاليين بالفرق بين الأحوال في القرن الخامس عشر وبينها في القرن السادس عشر.

ففي القرن الخامس عشر في غمرة شعور الدول الإيطالية بثرائها وإكبارها للحياة التي أوجدتها مخترعاتها وتقدمها الفني والعلمي ، في غمرة هذا كله كانت الدولة الإيطالية تطل من عليائها على باقي دول أوروبا التي كان نظامها الاجتماعي وحياتها الثقافية مازالا في مستوى منخفض ، فضلاً عن أنهما يوجهان توجيهًا خاطِئًا؛ ولكن الآن في القرن السادس عشر فإن كل جدّ ومستقبل إيطاليا إنما يقع في أيدي هذه الدول نفسها التي وجد الإيطاليون من حقهم أن يمتهنوها ويقللوا من قيمها.

وتوضح كلمات جتشارديني أيضًا الأسلوبَ الذي يشرح به الإيطاليون هزيمتهم ، فإنه تبعًا للأفضلية التي كانت لهم من ناحية المدنية والاقتصاد والحياة الثقافية فإنهم يلومون أنفسهم لإهمالهم الفن الحديث في الحرب ، فإن سلسلة القلاع والحصون التي حمت بها الدول الإيطالية الطرق المؤدية إلى داخلية البلاد سقطت بسرعة أمام مدفعية شارل الثامن ، ولم يستطع المحاربون الإيطاليون الراكبون مقاومة القوة المجتمعة في جيش شارل من المشاة والمدفعية.

انتصر الفن الحديث على الأسلوب القديم ، وكما يقول مكياڤيللي: «فإنها كانت حربًا هجومية قصيرة سريعة الحركة» أو على ما يمكن أن نطلق عليها اليوم «حربًا برقية»(١) ، ويقول مكياڤيللي: «إن الحرب سارت والفرنسيون يستطيعون أن يعيِّنوا حتى المنازل التي يريدون أن يقيم فيها

---

(١) «المقولات» الكتاب الثاني الفصل السادس ص ١٤٧.

جنودهم دون خوف من مقاومة القوات الإيطالية الضعيفة»[١].

واجتذبت هذه الانتصارات الفرنسية السريعة مع ضعف قوة الإيطاليين ، اجتذبت الأسبان والألمان لأن يمدوا أيديهم للوصول إلى مثل هذا الكسب ، وعلى غير ما أراد الإيطاليون وجدوا أنفسهم مجرد نظارة يشهدون بلادهم تبيت مسرح القتال لأوروبا ، ومركز اجتذاب لكل الغرباء الذين يريدون الوصول إلى الشهرة العسكرية.

لقد أعجبت إيطاليا كلها وسجلت أسماء كبار القادة؛ أمثال:

چتينانودي كونسالڤو الذي صنع المعجزات في حملاته النابوليتانية بأن حوَّل جموع المحاربين الأسبان المأجورين ليكونوا مشاة موفوري الضبط والربط والتنظيم ، ومثل جاستون دي فواكس الذي استطاع بتحركات جنوده السريعة أن يسبق في قوة المناورة خصومة الأكثر منه عددًا.

ومثل فروندسبرج الذي نظم القوات الألمانية Landsknechte ، والذي تولى قيادتهم فيما بعد عند نهب روما ، وقد وصل الباحثون فيما قدر على إيطاليا عندئذ إلى أن الإيطاليين يجب أن يعيدوا تجديد وإصلاح تعاليمهم العسكرية إذا شاءوا أن يتساووا بالمتبربرين الأجانب ، وأن يكونوا مرة ثانية سادة بلادهم.

على أن الرغبة العامة لتفهم المسائل العسكرية والتي كان من الضروري أن تثيرها هذه الفترة الثورية ، بالإضافة إلى مأساة إيطاليا سببت تعمق مكياڤيللي إلى حد كبير في دراساته ، وذلك تبعًا لتجاربه العملية في السياسة الفلورينتينية؛ حيث تلقن درسًا خاصًّا في ميدان التنظيم العسكري

(١) «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٥.

بما فيه من تعقيدات سياسية.

كانت أكبر تراچيديا في حياة مكياڤيللي أنه لعب دورًا سياسيًّا إيجابيًّا فقط لمدة قصيرة نسبيًّا امتدت من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥١٢ عندما كان بييرو سودريني أكبر موظفي الدولة ، وعندما كان سودريني هذا يوجه سياسة دولة مدينة فلورنسا.

على أن ارتباط نشاط مكياڤيللي السياسي بحكم سودريني لم يكن مجرد صدفة ، فبعد إقصاء آل مديتشي ، وبعد مرور فترة قصيرة في اضطراب وفوضى اتفق الديمقراطيون والأرستقراطيون - الحزبان المتنافسان في فلورنسا - على اختيار سودريني للحكم ، ولم يكن سودريني قادرًا ولا راغبًا في الوثوق تمامًا بالأرستقراطيين ولا بالديمقراطيين؛ ولهذا انتهى إلى اعتبار مجموع الموظفين الدائمين في حكومته هم الدعامة الأساسية لحكمه ، ولم يكن مكياڤيللي - برغم أنه سليل أسرة من النبلاء - من الديمقراطيين ولا من الأرستقراطيين؛ ولهذا لم تكن لتتوافر له الفرصة ليكون شخصية بارزة في أي من الحزبين ، ولكنه كسكرتير في الرياسة كان بالطبيعة من أفراد المجموعة التي يفضلها سودريني ويعقد عليها آماله؛ ولهذا تهيأت له الفرصة ليظهر معدنه الطيب.

وتحقق سودريني بسرعة من كفاية ومواهب هذا الرجل الصغير السن ، فاجتذبه إلى دائرة خلصائه ، واستخدمه في أعمال إدارية وسياسية مهمة ، وبذلك وصل مكياڤيللي إلى أعماق المشاكل العسكرية التي كانت تسيطر على حكومة سودريني ، وهي مشاكل إعادة غزو بيزا..

كانت بيزا الميناء العظيمة في مدخل نهر آرنو ، وقد انتهز أهل بيزا

فرصة الاضطراب الذي أوجده الغزو الفرنسي وحرروا بلدهم من حكم فلورنسا؛ ولهذا كان استقرار حكم سودريني يتوقف بوضوح على مدى نجاحه في إعادة غزو بيزا.

وعامًا بعد عام استخدمت فلورنسا أحسن القادة المحاربين المأجورين الإيطاليين ، كما بذلت الجهود لدراسة تنفيذ أكثر المشروعات جرأة كمحاولة حرمان بيزا من موارد مياهها بتحويل مجرى نهر آرنو؛ ولكن في كل عام عندما يقترب الشتاء تتوقف العمليات الحربية وتظل بيزا بمنجاة من الغزو.

وكان هذا الإخفاق مصدر انتشار موجات من عدم رضاء الشعب عن حكم سودريني. كما أنه سبب ضياع نفوذ وهيبة فلورنسا ، فضلًا عن أن الاضطرار إلى متابعة استخدام المحاربين المأجورين كان بدوره جهدًا مستمرًّا على خزانة فلورنسا ، وعبئًا ثقيلًا بالتبعية على دافعي الضرائب.

وبحث سودريني وأصدقاؤه عن وسيلة جديدة يمكن بها الوصول بحصار بيزا إلى نهاية ناجحة. ووقف هذا العبء المالي المستمر على الخزانة ، وكان من بين الآراء التي بُحثت: رأي باستخدام أهالي توسكاني في تشكيل ميليشيا شعبية ، ولسنا ندري ما إذا كان مكياڤيللي هو أول من اقترح هذا المشروع.. ولكن ما نعلمه على التحقيق هو أن مكياڤيللي هو الذي كتب المذكرة الحاسمة التي على أساسها وضع قانون عام ١٥٠٦ الذي فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على كل الرجال بين سن الثامنة عشر وسن الثلاثين.

ولم يكن هذا القانون ليوجد نظامًا كاملًا للتجنيد؛ ولكنه كان خطوة أولية في ذلك الاتجاه ، ولم يطبَّق قانون الخدمة الإجبارية على مواطني

فلورنسا؛ بل قصر هذا على سكان المناطق الزراعية في توسكاني التي كانت خاضعة لحكم فلورنسا ، وحتى من هؤلاء اختير فقط عدد قليل مع العناية الدقيقة بعدم تعطل نشاط الحياة المدنية ، ولم يسبب التدريب عبئًا ثقيلًا على المجندين ، فقد كان القرويون يدرَّبون في أيام الآحاد وأيام العطلات على السير واستخدام آلات الحرب القاطعة التي سلحوا بها ، ولمرتين في العام كان الرجال من القرى المختلفة يسيرون إلى المدن التي في مقاطعتهم ليُدربوا لمدة يومين في تشكيلات كبرى ، ولم يجرؤ السياسيون الفلورنتيون أن يوافقوا على مقترحات أوسع مدى لأنهم كانوا يخافون أن يثور فلاحو توسكاني بمجرد أن يسلحوا ، وأن يحاولوا في ثورتهم الخروج على سلطة فلورنسا ، أو أن يحاول سودريني أن يصنع من نفسه حاكمًا مطلقًا بمعاونة مثل هذا التنظيم العسكري القوي.

على أنه يرجع أساسًا إلى جهود مكيافيللي وحده أن وصلت هذه المحاولة التي أعدت دون أن تستند إلى رضاء كامل عنها بتعبئة قوى الرجال في فلورنسا إلى نتائج عملية ، وأن يقوم ألفان من الميليشيا منذ عام ١٥٠٧ بنصيب كبير في حصار بيزا.

كانت عملية التجنيد قد باتت جزءًا من أعمال مكتبه ، وكان يتجول في الريف ليتخير بنفسه الرجال الذين يلحقون بالخدمة العسكرية ، وكان أيضًا مسئولًا عن اختيار الضباط ، فلما عسكر جنود الميليشيا حول بيزا كان هو المسئول عن تموينهم..

وبالرغم من أن الميليشيا خدموا فقط كقوة احتياطية للجنود المأجورين إلا أن دورهم في الحصار كان كبير الأهمية ، وكان هو الذي أدى إلى النجاح النهائي الذي حصلت عليه فلورنسا؛ فإن جنود الميليشيا هم

الذين أبقوا الحصار مستمرًّا طوال الشتاء؛ فمنعوا أهل بيزا من الحصول على امدادات وتموين ، وبذلك أجاعوهم واضطروهم للتسليم في عام ١٥٠٩ .

وزاد الدور الذي قامت به الميليشيا بإزاء بيزا من ثقة الفلورنتينيين بتعاليمهم العسكرية الجديدة ، واعتمدوا بدرجة كبيرة على جيشهم المجند؛ ولكن بعد عامين اثنين عندما اقترب جيش الإمبراطور من فلورنسا لإعادة حكم المديتشي فشل جنود الميليشيا فشلًا ذريعًا إزاء هؤلاء الجنود المدربين.

كانت الميليشيا قد حشدت في مدينة براتو الصغيرة لحراسة الطريق المؤدي إلى فلورنسا ، ولكن جنود الإمبراطور اخترقوا جدران المدينة في هجومهم الأول ، وأصيب جنود الميليشيا بفزع ورعب ، ودبت الفوضى في صفوفهم ، وولوا الأدبار دون أن يقوموا بأية مقاومة ، وفي هذه الفوضى هلك أكثر من أربعة آلاف غالبيتهم من جنود الميليشيا ، وكانت مذبحة مشهورة بالرغم من أنها كانت في عصر اشتهر بالإسراف في سفك الدماء ، وأضحى الطريق إلى فلورنسا مفتوحًا ، وعاد المديتشي إلى بلدتهم منتصرين.

ووضعت عودة المديتشي إلى فلورنسا نهاية حياة مكياڤيللي السياسية ، وضاعت كل محاولاته للعودة لعمله أدراج الرياح ، وانقلب في هذا التقاعد الذي فرض عليه مبكرًا من العمل إلى التفكير ، ومن التجربة السياسية إلى التفكير السياسي ، وفي ذكرياته لتجاربه السياسية لابد وأن تكون مشكلات الحرب والتنظيم الحربي ذات طعم مرير في فمه ، أي أنها كانت موضع إيلام له.

ألم تكن الميليشيا ، التي هي إلى حدٍّ ما وليدة تفكيره ، من العوامل الفعالة التي أدت إلى سقوط الحكم الجمهوري؟

ألم تكن هي كذلك بالتالي السبب الرئيسي للانقلاب السيئ الذي حدث في حياته هو؟

ومع هذا فإن الارتباط الشخصي لمكياڤيللي بهذه المشكلة لم يؤد به إلى الشكوى من أعماله ، أو إلى لوم الآخرين وسَوْق التهم إليهم ، لقد كانت الظاهرة البارزة في عقلية مكياڤيللي أنه نظر في تعمق إلى السوابق والمعقبات التاريخية وراء الحقيقة السياسية المنعزلة ، ولم يقتنع حتى اكتشف القاعدة العامة التي وضحت له هذه الظاهرة الوحيدة البارزة.

لقد أدت رغبة مكياڤيللي في الدفاع عن أعماله إلى دراسات عامة مثمرة ، وبذلك كشفت له دراساته عن تأثير العوامل العسكرية على حظ إيطاليا وما أصابها ، كما كشفت له عن التطورات التي وقعت في عصره ، وقادَتْهُ تجاربُه الموضوعية إلى اختبار ودرس المشكلات العسكرية في عصره ، وبذلك كان أول مفكر عسكري في أوروبا الحديثة.

***

[٢]

عني مكياڤيللي كما رأينا بالمسائل العسكرية بسبب ما أحس به من تجاربه الخاصة من تأثيرها القوي في التطورات العامة للحوادث السياسية؛ ولهذا فإن تحليل آراء مكياڤيللي العسكرية لا يمكن أن يقف عند حدِّ دراسة كتابه العسكري «فن الحرب» والذي وقفه كله للمسائل العسكرية..

ففي كتاباته التاريخية والسياسية تلعب الحرب والتنظيم العسكري دورًا مهمًّا أيضًا ، نجد هذا بوضوح في كتابيه «الأمير» و«المقولات» . وفي «تاريخ فلورنسا» ، وكل الخلاف الذي يمكن أن نجده بين الآراء العسكرية التي جاءت في كتابه «فن الحرب» وفي كتبه الأخرى التاريخية والسياسية قد يكون ناتجًا عن التباين في الأهداف التي لأجلها كانت هذه الكتب.

فكتاب «فن الحرب» يقدم عرضًا فنيًّا منتظمًا لآراء مكياڤيللي العسكرية؛ بينما تقدَّم هذه الآراء في كتابيه «الأمير» و«المقولات» كمقترحات ذات طابع تعريفي إيضاحي ، ويعنى كتاب فن الحرب برسم برنامج إيجابي للإصلاح العسكري؛ بينا أن الملاحظات عن المسائل العسكرية التي جاءت في كتابيه المشار إليهما من قبل لها طابع سلبي ، فهي انتقادات موجهة للتعليم العسكري لذلك العصر.

وقد وجهت انتقادات مكياڤيللي وملاحظاته السلبية إلى النظام العسكري في إيطاليا إبان القرن الخامس عشر قبل الغزو الفرنسي ، وكان القادة من المأجورين وجنودهم من سرايا الخيَّالة هم هدف انتقاداته وهجومه وموضع عدم احترامه أو تقديره. يقول: «كانوا مفككين لا تربطهم أيُّ وحدة ، تملؤهم الأطماع ، غير مخلصين ، ولا تتوافر فيهم روح

الضبط والربط.. شجعان بين الأصدقاء، جبناء في مواجهة الأعداء، لا يهابون الله.. ولا إيمان لهم بالرجال»[١].

وكان رأيه السيئ فيهم واضحًا في تعبيراته التهكمية عنهم في كتابه «تاريخ فلورنسا» عندما تحدث عن المعارك التي خاضتها جيوش المحترفين في القرن الخامس عشر، وفي معركة «زاجونارا» ـ المعركة ذات الشهرة الكبيرة في إيطاليا ـ: «لم يقتل أي فرد عدا لودوڤيكو أو بتزي، وقد سقط هو ورجلان من جنوده من فوق جواده فاختنق من الأوحال»[٢].

وفي معركة «أنجياري»: «التي استمرت من الساعة العشرين إلى منتصف الليل؛ قُتل رجل واحد فقط لم يجرح، ولم يسقط بضربة خصم؛ بل سقط من على ظهر جواده فداسته الأقدام»[٣].

وفي معركة «مولينيلا»: «التي استمرت لنصف يوم، لم يقتل فرد؛ بل جرحت بعض الخيول وأسر كل من الجانبين بعض الأسرى من الجانب الآخر»[٤].

وأوضح مكياڤيللي أن القادة المحترفين وجنودهم قاتلوا أسوأ قتال، فلا مصلحة معنوية تربطهم بالحرب، كانوا مأجورين يهمهم الكسب المادي فقط: «ولم يكونوا يشعرون بأن لهم وطنًا يقاتلون في سبيله، ولا دافع يبقِيهم في الميدان عدا الأجر التافه الذي يتقاضونه والذي لم يكن كافيًا ليموتوا في

(١) كتاب «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٥.
(٢) تاريخ فلورنسا الكتاب الرابع فصل ٦ ص ٤٧٥.
(٣) تاريخ فلورنسا الكتاب الخامس فصل ٣٣ ص ٥٢٨.
(٤) تاريخ فلورنسا الكتاب السابع فصل ٢٠ ص ٥٧٨.

سبيله»[١].

وتبعًا لآراء مكياڤيللي كانت الاعتبارات المالية لها التوجيه الأكبر لطبيعة التنظيم العسكري ، كما كان لها هذا أيضًا في إدارة الحرب في إيطاليا طوال القرن الخامس عشر ، ولما كان الجنود هم رأس مال القائد الأجير المحترف فإنه بلا شك لم يكن راغبًا في فقدهم في المعركة وإلَّا كان كأنه يخسر رأسمال نظير دراهم معدودات؛ ولهذا كان يتجنب المعركة الالتحامية ويفضل عليها حرب المناورات ، فإذا لم يمكنه تجنب المعركة عمل على أن تكون خسارته فيها أقل ما يمكن؛ ولهذا كان ذلك العصر عصر معارك غير دامية؛ ولكن في ذات الوقت فإن الحروب القصيرة الأجل لم تكن في صالح القادة المأجورين ، وهم لا يريدون بالتبعية أن يفقدوا عملهم وصناعتهم ، ولهذا فحتى عندما يبدو النصر واضحًا ومحققًا فإنهم يطيلون من أمد الحرب بتحويلها لعدة حملات متتالية.

وقد أشار مكياڤيللي إلى أن إغفال استخدام جنود المشاة في إيطاليا إنما يرجع سببه إلى المصالح المالية للقادة المأجورين؛ ذلك لأن الجنود المترجلين يمكن إعدادهم بنفقات أقل مما يتطلب إعداد الجنود الراكبين الذين هم رأس المال المتداول للقادة المأجورين ، وبغير الجنود الراكبين كان من الممكن أن تتحول الدول كلها إلى التجنيد كوسيلة رخيصة لزيادة عدد جنودها عن عدد جند جاراتها.

وقد قال مكياڤيللي: إنه من وجهة عامة كان القليل من التحسين أو التطور هو وحده المستطاع في ضوء الأحوال القائمة ، ولما كان كل القادة

---

(١) كتاب «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٥.

المأجورين يعملون بذات الدوافع والأثرة وحب النفس وقد اعتبروا الحرب هي الوسيلة الوحيدة للعمل والحياة ، فقد كانت مصالحهم المشتركة في أن يتقبلوا كل القواعد القائمة وأن يلعبوا ذات الدور.

على أن الوصف التفصيلي الذي قدمه مكياڤيللي للأساليب الإيطالية لفن الحرب في القرن الخامس عشر يجب ألا يعتبر حقيقة تاريخية ، ففي حديثه عن القادة المأجورين فعل ما فعله مصورو عصره ، فقد بنى كل وصفه التفصيلي حول اتجاهات بارزة قليلة ، تاركًا كل شيء آخر يمكن أن يجعل الصورة العامة مضطربة أمام النظارة ، أو أنه لا يكشف عن الصورة الحقيقية التي هدف إلى تصويرها في حديثه ، ومن الضروري أن نذكر على نقيض الوصف الذي قدمه مكياڤيللي أن القادة المأجورين في النصف الثاني للقرن الخامس عشر بدءوا يعنون بالمسائل العسكرية المستحدثة ، وبدءوا يستخدمون جنود المشاة والمدفعية.

ويجب أيضًا أن نذكر بأنه كانت هناك منافسة وخصومة بين القادة المأجورين ، وبالتبعية فإنهم كانوا تواقين إلى هزيمة العدو لأطماعهم الشخصية؛ وللمحافظة على سمعتهم وإبقاءً على مكانتهم؛ ولهذا فإنهم إذا كانوا يتجهون في الغالبية إلى حرب المناورة فإن هذا لم يكن بوحي من ضمائرهم ، ولم يكن كذلك عن قصد سيئ ، كان الموقف السياسي في إيطاليا في القرن الخامس عشر هو الذي يحدد من استراتيچيتهم أو يمليها عليهم ، وكذلك فإن الوسائل المحددة نسبيًّا التي كانت هي كل طاقة الولايات الصغرى ، والتي كانت متساوية تقريبًا في القوة ، كانت هذه الوسائل تكون في جملتها العقبة الكؤود التي تمنع حشد أي قوة أو جهد ، وكان من الممكن أن يجعل الإصلاحات العسكرية مستطاعة بدرجة كبيرة.

ولم يكن مكياڤيللي غافلًا عن الصلة أو الارتباط بين نظام إيطاليا السياسي وبين آلتها الحربية غير الصالحة للتمشي مع الزمن ، وقد أدرك مكياڤيللي أن إيطاليا كانت تحتاج ما هو أكثر من التدابير ذات الطابع الفني ، وما هو أكثر من إلغاء استخدام الجنود المأجورين ، وما هو أكبر من استخدام المشاة؛ وذلك حتى تستطيع مقاومة اعتداء باقي الدول الأوربية بنجاح ، لقد كان في الروح التي أدار بها الإيطاليون حروبهم شيء أساسي خاطئ ، فيقول: «ولا يمكن أن تسمى حربًا عندما لا يقتل الناس بعضهم بعضًا ، وعندما لا تدمر المدن وتنهب الأرض»[١]. فإن التدمير الكامل لأرض العدو يجب أن يكون هو الهدف الأساسي للحرب ، والحرب الحقيقية قتال للبقاء ، وفي مثل هذا القتال فإن كل شيء يُسمح به ، «وعندما يكون أمن الدولة وسلامتها يتوقفان على القرار الذي يتخذ فلا يجب البتة تقدير العدالة أو نقيضها ، ولا يجب التفكير في القسوة أو الإنسانية ولا في الشرف أو العار»[٢] ، إن أساليب الحرب يجب أن تقدر فقط تبعًا لتأثيرها ونتائجها..

ويقول مكياڤيللي بإعجاب عن كاستروتشيو كاستراكاني: «ولو استطاع الكسب بالخداع والتضليل فإنه لا يحاول إطلاقًا استخدام القوة؛ وذلك لأنه قال بأن النصر ـ لا وسيلة الحصول عليه ـ هو الذي يجيء بالفخار للمنتصر»[٣] ، وبذلك فقد ظن مكياڤيللي بأن عناية القائد لا يجب أن تحدد بالأعمال العسكرية فقط؛ بل إنه يجب أن يعنى باستخدام وسائل

(١) تاريخ فلورنسا الكتاب الخامس فصل ١ ص ٤٩٩.

(٢) «المقولات» الكتاب الثلاث فصل ٤١ ص ٢٥٦.

(٣) Vita Di Castruccio Castracani, p: ٧٦١.

أخرى صالحة لخداع العدو، سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة كنشر الشائعات مثلًا»[١].

وكان مكياڤيللي أيضًا من أكبر المعجبين بفرونتينوس (٤٠-١٠٣) الذي وقف كتابه على الحديث عن الخدع الحربية، وتحدث فيه عن المهارة في تضليل العدو، وقد أوصى مكياڤيللي بتطبيق الكثير من أساليب فورتنينوس..

وقد يكون إسرافًا أن نقول بأن مكياڤيللي كان سابقًا في الحديث عن الحرب السيكولوجية أو عن تفهم وجودها، ولكن مع هذا فإن هناك ما يوضح الكثير من اتجاهاته إلى هذا، ففي عصر مكياڤيللي، وعلى سبيل المثال في معركة «راڤينا»: كان المتقاتلون في الجانبين المتضادين يتبادلون تحديًا مهذبًا ومجاملات مليئة بروح الفروسية قبل بداية العمليات العدائية، وهذه كلها تدل - ولو من الناحية النظرية - على أن الحروب كانت تقاتل تبعًا لقواعد محددة ثابتة، ولا تزال توجد الأدلة التي تثبت أن الطرفين المتضادين كانا يتقاتلان في ظروف عادلة متساوية، وكان هذا هو قاعدة وجهة نظر مكياڤيللي في السماح باستخدام كل القوى الممكنة في الحرب؛ كانت الدولة في مجموعها في نظره كمخلوق بشري حي توضع كل موارده وقوته وشجاعته وذكائه موضع التجربة في وقت الحرب.

وقد انتُقد مكياڤيللي بسبب ما وضح من عدم دقة تقديره لأهمية اختراع المدفعية؛ ولقلة تقديره أيضًا لدور المال في الحرب، ومع هذا فإن وجهات نظره في هذه النقاط تبدو منطقية ومفهومة، والفصل القوي الذي

---

(١) «المقولات» الكتاب الثالث فصل ١٤ «تأثير وسائل الخداع الحديثة والصرخات غير المتوقعة في وسط المعركة...».

كتبه في كتابه «المقولات» عن «قيمة المدفعية للجيوش الحديثة ، وهل كان الرأي العام مصيبًا في احترامه وتقديره لها»[١] لم يكن بحثًا خالصًا لتأثير اختراع المدفعية في تطور فن الحرب بقدر ما عني بناحية واحدة من المشكلة هي: أهمية الشجاعة وقوة الابتكار والمبادأة بالنسبة لهذا السلاح الجديد من أسلحة الحرب. لقد سمع مكياڤيللي الناس يقولون: «إن الحروب التي ستجيء بعد اليوم ستكون كلها حروب مدفعية»[٢]. كان كل جدله في الموضوع لإثبات عدم صحة وجهة النظر هذه ، إنه لم ينكر أن المدفعية قد زادت من قوة الضرب؛ ولكنه عارض فكرة أن المدفعية وحدها يمكن أن تكون حاسمة ، إن نتيجة اختراع المدفعية لم تكن لتؤدي إلى أن تضحى الحرب فنًّا خالصًا للأخصائيين المهندسين؛ بل لا تزال هناك ضرورة ملحة لجمع كل القوى العسكرية والمعنوية للدولة ، وأن العوامل الحاسمة لا تزال هي ـ كما كانت دائمًا ـ كفاية القائد وشجاعة الجندي.

وقد قدم مكياڤيللي شيئًا مثل هذا في مناقشته لدور المال في الحرب في الفصل الذي وسم بعنوان: «ليس المال عصب الحرب بالرغم من أنه يعتبر كذلك من وجهة عامة»[٣].

وقد ختم مكياڤيللي بحثه بقوله: «ليس المال بل الجنود الأقوياء الصالحون للقتال هم الذين يؤكدون النصر في الحرب لأن المال لا يستطيع أن يخلق جنودًا صالحين».

(١) «المقولات» الكتاب الثاني فصل ١٧ ص ١٦٢-١٦٦.
(٢) مجموعة مؤلفاته ص ١٦٢.
(٣) «المقولات» الكتاب الثاني فصل ١٠ ص ١٥٢ ، ١٥٣.

على أن معاصري مكياڤيللي كجتشارديني مثلًا[١] انتهوا من هذه الأقوال إلى أن مكياڤيللي كان نظريًّا ، وأن لا خبرة له في المسائل العملية؛ ولكن الواقع أن هناك فقرات كثيرة في خطابات مكياڤيللي[٢] توضح أنه في موازنته للفرص الممكنة للنفوذ السياسي كان يضع عامل المال موضع التقدير.

إن مكياڤيللي لم يرغب في أن يجعل الموارد المالية بغير أهمية في إدارة الحرب؛ ولكنه كان يفكر في المدن الإيطالية الكبيرة مثل فلورنسا وميلان ، التي برغم ثرائها سقطت فريسة للأجانب ، كان رأيه الذي يقتنع به هو أن القوة العسكرية هي قاعدة وأساس القوة السياسية ، وأن المال يكمل القوة السياسية فقط عندما يحول إلى قوة عسكرية.

ويوجد ـ في الواقع ـ في ملاحظات مكياڤيللي معنى أكثر سعة للعلاقة بين القوة المالية والقوة العسكرية ، كان لديه شعور أن الفضائل التي تتطلبها الحرب لا تتمشى مع الاتجاهات الناتجة عن النشاط التجاري ، كان يعتقد بأن الاتجاهات السلمية التي توافرت للإيطاليين في القرن الخامس عشر منعت تطور الروح العسكرية الحقَّة ، وأدرك أن هناك علاقة تربط انتشار الروح السلميَّة هذه بالانشغال بالمصالح التجارية.

وفي واحدة من رسائله التي تكشف عن حقيقة نفسه والتي بعث بها إلى صديقه ڤيتوري يقول[٣]: «لقد رسم الجد لي أنني ما دمت لا أستطيع

(١) Francesco Guicciardini (Considerazioni intorno ai Discorsi del Mackiavelli) Scritti politici e Ricordi ed. P, palmarocchi.

(٢) خطاب لفرانشيسكو فيتوري ٢٠ ديسمبر ١٥١٤.

(٣) خطاب لفرانشيسكو فيتوري ١٩ أبريل ١٥١٣ ـ أو برا ص ٨٨٢.

مناقشة صناعة الحرير أو الصوف أن أضطر إلى المناقشة في السياسة ، وكان عليَّ إما أن أصمت وإما أن أتحدث في ذلك الموضوع».

وبلا شك لم يعتبر شعوره بخطأ وضعه في مجتمع تجار الصوف والحرير والذين يحكمون فلورنس نقصًا أو عدم كفاية ، كان رأيه أن الدور الذي لعبته الاعتبارات المالية في عقلية أهل فلورنسا هو سبب الانهيار السياسي لها ، ففي الدولة التي تطمع في أن تصل إلى العظمة السياسية يجب أن تطغى المصالح السياسية على كل ما عداها ، وقد دفعه قلة تقديره وامتهانه للمحاربين المأجورين ـ كما وجهه نقده للأساليب الإيطالية في فن الحرب ـ إلى المطالبة بروح جديدة للبطولة العسكرية..

إن الميوعة أو فتور روح الاقتتال كانت هي ـ على ما ظن ـ نتيجة للكسب الشخصي في مجتمع تسيطر عليه المصالح المالية والتجارية ، ولا يمكن أن يتوافر جنود لجيش لا يقهر إلا في شعب تكون عظمة بلاده هي الهدف الأكبر للناس كلهم لا أن يكون هذا الهدف هو صالحهم الشخصي وإلا في شعب يكون كل أفراده على أتم أهبة للتضحية بكل شيء في سبيل معتقداتهم السياسية ، وأن يموتوا في سبيل هذه المعتقدات.

ومن الممكن بسهولة أن نخرج بالأصول الأساسية لآراء مكياڤيللي في الإصلاح العسكري من مناقشة نقده للأساليب السابقة ، فلقد كان في جانب تكوين جيش من الجنود المترجلين يجمعون على أساس التجنيد ، ومثل هذا التنظيم العسكري يتطلب إصلاحات سياسية ، ولا ينجح إلا إذا اقترن بروح جديدة ترفع القيم السياسية فوق ما عداها ، وبالإضافة إلى هذا فإن الناس الذين يحكمون أنفسهم يكونون أكثر رغبة في القتال لأنهم يدافعون عن أنفسهم وعن كيانهم.. وبذلك كان مكياڤيللي يعني وجود

علاقة قوية بين الديمقراطية وبين فكرة تكوين جيش من الجنود المترجلين المجندين.

ومع هذا فإن القارئ لكتاب «فن الحرب» لمكيافيللي أي كتابه الرئيسي في الحديث عن المسائل العسكرية لابد وأن يشعر بالخيبة ؛ ذلك لأنه لن يجد ما يتوقعه من مناقشة تفصيلية لكيفية تطبيق هذه الآراء في ضوء أحوال القرن السادس عشر مع الوصف الحقيقي لطابع الحرب في ذلك العصر.

كان مكياڤيللي وليد عصر النهضة ، وكانت طريقته لاثبات صحة آرائه هي أن يوضح أنها كانت صالحة في العالم القديم ، وكان يؤمن بأن أقوى النقاط التي يمكن أن يقدمها في صلاح نظرياته هي أن الجيش الروماني كان جيشًا من الجنود المترجلين المجندين.

ولهذا كان كتاب مكياڤيللي ـ إلى حد بعيد ـ إيضاحًا للتعاليم العسكرية الرومانية ، وكانت الأمثلة التي استخدمها مأخوذة في غالبيتها من كتابات المؤرخين الكلاسيكيين أمثال ليڤي وبوليبيوس ، واتبع بدرجة كبيرة المصادر والآراء الكلاسيكية في الفن العسكري ، وكان كتابه نوعًا من التبسيط للدراسات العسكرية الكلاسيكية ليتناسب مع العصر الذي جاء فيه.

على أن المورد الرئيسي للإيحاء له كان كتاب فيجتيوس «فن العسكرية» ، فقد كان هذا أيضًا يعنى بذات الموضوعات: اختيار الرجال ، إعداد وتدريب الجنود ، صورة المعركة ، ثم الحوادث المختلفة التي يمكن أن تعرض في مسار العمليات الحربية ونظام السير والتعسكر وفن التحصينات.

وقد اتبع مكياڤيللي ـ حتى في تنظيم هذه الموضوعات الرئيسية ـ

الأسلوب الذي جاء في كتاب فيجتيوس؛ ولهذا يستطيع الفرد أن يقول بأن أحد الأسباب لإغفال كتاب مكياڤيللي «فن الحرب» في العصر الحديث هو أنه اعتبر لا شيء أكثر من نسخة إيطالية أو إلى حد ما نسخة مستحدثة لكتاب «فيجتيوس».

وقد تحول مكياڤيللي في بعض الأحوال عن النماذج الكلاسيكية ، ولما كان الواضح أنه اعتبر إحياء الفن العسكري القديم هو واجبه الأساسي فقد كان من الضروري أن يبدو هذا له وكأنه ذو أهمية تتطلب عناية خاصة منه.

وأبرز النقاط التي تحول فيها وحده عن المسار الذي اتبع فيه فيجتيوس هي: معالجته الصافية لأهمية المعركة في الحرب ، فعلى نقيض فيجتيوس الذي بحث هذا الأمر في إيجاز فإن الحديث عن المعركة قد احتل المكان الأكبر في كتاب مكياڤيللي «فن الحرب»؛ ففي الكتاب الثالث نجد وصف معركة تخيلية تقف في موضع القلب بالنسبة للكتاب كله ، وكان الكتابان الأوَّلان قد وقفا كلاهما للحديث عن اختيار الجنود وتدريبهم ووصف كيف يمكن وضع الجيش الصالح للعمل العسكري في ميدان القتال ، أو بمعنى آخر فإن أحاديث الكتابين إنما يقودان للحديث عن المعركة.

فإذا ما انتهى من الحديث عن المعركة خف الجهد ، وكانت أهداف الكتب التالية: نظام السير والتعسكر والتحصينات ، تعالج الموضوعات الواحد إثر الآخر في دراسات موجزة تربط بينها وشائج ضعيفة وصلات رخوة ، وهكذا ـ في صورة غير مباشرة ـ كانت المعركة في الواقع هي الجزء الأساسي للكتاب كله ، هذا فضلًا عن أن أهمية المعركة توضع بشكل لافت للقارئ في فقرات مبعثرة على طول صفحات الكتاب. «إذا كسب القائد

معركة فإن هذا يلغي كل الأخطاء السابقة»[١].. والمعركة هي «النهاية التي لأجلها أعدت الجيوش؛ ولهذا فمن الضروري العناية بإعداد جنود هذه الجيوش»[٢].. و..«إن الغرض الأساسي لكل العناية التي تبذل من أجل الضبط والربط والنظام الجيدين هو إعداد جيش صالح ليشتبك بالعدو في حال حسنة؛ لأن القصد التام يكون عادة نهاية الحرب»[٣].

وفضلًا عن هذا فإن نتيجة المعركة لا يمكن تجنبها ، فإذا قرر عدوك الاشتباك في المعركة فإنه يستطيع إرغامك على القتال في مكان تضطر لقبول التحدي عنده «إن القائد لا يستطيع تجنب معركة يكون العدو قد قرر القيام بها مهما كانت الأخطار التي يواجهها..»[٤].

أضف إلى هذا أنه منذ أن كان اختراع المدفعية فإن القلاع والحصون قد باتت بلا قيمة لوقف العدو .. إن المعركة هي الميزان الضروري لكل حرب..

ومن الممكن أن نخرج بالكثير من السطور التي قدمها مكياڤيللي والتي توضح وجهات نظره في المعركة.. ومما لا شك فيه أن الأسلوب الذي عوجلت به «المعركة» في الجزء الثالث من كتاب «فن الحرب» ليؤكد اهتمام مكياڤيللي بهذا الجزء من كتابه.. فلقد جاء هذا الحديث ضافيًا وبدت فيه عناية بالإيضاح والتوجيه..

ويوضح مكياڤيللي تفصيليًّا ما يعتبر الآن نوعًا من التاريخ القديم ،

---

(١) فن الحرب ص ٢٧٥.
(٢) فن الحرب ص ٣٠٣.
(٣) فن الحرب ص ٣٥٢.
(٤) عنوان الفصل العاشر من الكتاب الثالث «المقولات».

يوضح كيف ينظم الجيش لخط المعركة ، وكيف توضع المشاة ـ القوة الأساسية ـ في الوسط ، وكيف توضع الخيالة والمشاة على الجانبين لتغطيتهما ، وكيف أنه بعد إطلاق غلالات نيران المدفعية وبعد أن يشتبك الخيالة في المناوشات الأولية هم والمشاة الخفيفة تبدأ المعركة الحقيقية بعد أن يكون الميدان قد خلا تمامًا لاصطدام القوات الأساسية من الجنود المترجلين.

وكان أولئك الذين يحملون الحراب الطويلة يكونون الصف الأمامي ، وهؤلاء يضغطون على العدو. وعندما تقتصر المسافة بين الصفين المتضادين يغير حاملو الحراب أماكنهم مع حاملي السيوف ، وتعتبر هذه من اللحظات الحرجة؛ فإن قرار المعركة كله يتوقف على المهارة في إجراء هذه المناورة «ولكن أية خسائر! وأي عدد من الجرحى! لقد بدأ العدو الفرار. انظر إنهم يولون الأدبار من اليمين ومن اليسار. لقد انتهت المعركة. ولقد كسبنا نصرًا كبيرًا»[١].

وبهذه الكلمات ينهي مكياڤيللي وصفه للمعركة.. وهي في الواقع لا تعتبر تحليلًا للمناورات المستطاعة بقدر ما يمكن أن تعتبر سردًا قصصيًّا لما يمكن أن يراه مراقب يشرف تمامًا على مكان المعركة ويستطيع أن يراقب سيرها بوضوح. إنها معركة مصورة في كلمات. ولما كانت هي في الحقيقة معركة مرئية من خارج مسرح الحرب فإن كل مراحلها تبدو كأنها معدة من قبل ، فتسير المراحل تبعًا لخطة موضوعة فقط تنقصها عوامل الغموض والإحراج وما إليها من العوامل التي تقرر نتيجة المعركة ، والتي لا يمكن تقديرها لأنها تجيء مفاجأة وبسرعة وتذهب كذلك مخلفة آثارها فقط. ولكن كانت علة هذا النقص في حديث مكياڤيللي أن فن التحليل للعملية

(١) فن الحرب ص ٣٠٩.

العسكرية كان في بدايته ولم يكن معروفًا للكُتاب من قبل.

وقد نظر مكياڤيللي إلى المعركة كعمل تسيره آلة أُحسِنَ تَزْيِيتَ محركاتها وأجزائها، وكان هذا التقدير من جانبه أقرب ما يكون إلى سير المعركة الحقيقية، ففي ذلك العصر لم يكن هناك من مكان لقوة الابتكار ما دامت المعركة قد بدأت، وما دامت مربعات الجنود المترجلين التحمت ببعضها البعض فإنه من المستحيل تمامًا أن يمكن القيام بأية مناورات، وكان الجانب الذي يستطيع أن يضع وراء قوته الدافعة الضاغطة قوات أخرى تمكن من استمرار هذا الضغط هو الذي يكسب المعركة؛ ولهذا فقد كان التدريب الذي يتلقاه الجنود قبل المعركة يلعب دورًا حاسمًا في نتيجتها، هذه النتيجة التي كانت تتوقف على درجة الارتباط والتماسك بين صفوف الجند، كما تتوقف على الحركة المنتظمة التي ينفذون بها عملية الضغط على العدو، لقد كان فروندسبرج ـ على سبيل المثال ـ من سادة المدربين، وترجع شهرته العسكرية إلى دقة ضبط حركات الجنود الذين دربهم..

ومن الأهمية التي يقدرها مكياڤيللي للمعركة يمكن أن نرى أنه كان معنيًّا بمشكلة الضبط والربط؛ بل ويمكن أن نقول بأن هذا «الضبط والربط» كان في تقديره أهم نواحي فن الحرب بعد المعركة، ولم يغفل في كل فرصة عن ذكر أهمية الضبط والربط الجيد؛ ذلك لأنه أساس وقاعدة الجيش الجيد «إن النظام الجيد يجعل الجنود شجعانًا، بينما يجعلهم الاضطراب جبناء»[(١)]، «إن الضبط والربط أكبر تأثيرًا من الشجاعة، ويمكن أن يتغلب على القوة وحدها»، «إن القليل من الرجال هم الشجعان بالطبيعة، ولكن النظام الجيد والتجربة يجعلان الكثيرين شجعانًا، إن النظام والضبط والربط

(١) فن الحرب ص ٣٩٢.

الجيدين في جيش ليمكن الاعتماد عليهما بدرجة أكبر من الاعتماد على الشجاعة وحدها»[١].

وكانت مشكلة الضبط والربط في الجيش تقدم لمكياڤيللي ظاهرتين مختلفتين:

فأولًا: من الضروري أن يدرب الجنود على أسس استخدام أسلحتهم ، وأن يعوَّدوا على العمل معًا في تشكيلات «فهم يجب أن يُعلَّموا المحافظة على صفوفهم ، وأن يطيعوا أوامر القادة وإشارات البوري والطبلة ، وأن يحافظوا على النظام الدقيق سواء أكانوا متوقفين أو متقدمين أو متقهقرين أو مشتبكين بالعدو»[٢].

والأمر الثاني: وهو الظاهرة الأكثر أهمية في الضبط والربط ، والتي كانت مثار مناقشة طوال القرنين التاليين ، كان هو مسألة تقسيم الجيش إلى وحدات تكتيكية صغرى ، فقد كان من الضروري للمحافظة على الضبط والربط أثناء القتال أن تقسم جموع الجنود المترجلين إلى جماعات صغيرة؛ وذلك لتتوافر لهم المرونة والقدرة على المناورة..

وقد أوصى مكياڤيللي في إعداد خط المعركة أن تقف ثلاث مجموعات خلف بعضها البعض. وبذلك يمكن متابعة القتال إذا لم ينجح الاندفاع الأول.. وقد نصح باتباع نظام اللچيون الروماني كمثل يحتذى ، وأن تكون أكبر قوة متجمعة معًا هي «الكتيبة» ، وتتكون كاللچيون من عدد يتراوح بين ستة آلاف وثمانية آلاف جندي ، وعلى مثال اللچيون فإن هذه الكتيبة تنقسم إلى عشرة أقسام كل بقيادة ضابطه ، وفي ضوء هذا التنظيم أوصى بأن

(١) فن الحرب ص ٣٦٢.
(٢) فن الحرب ص ٢٩٢.

لا يزيد تعداد الجيش كحد أقصى عن خمسين ألف جندي؛ «ذلك لأن القدر الذي يزيد على هذا يوجد اضطرابًا ، وليس فقط لا يمكن السيطرة عليه بل إن هذه الزيادة تسبب فوضى حتى بين الجنود الذين يتوافر لهم الضبط والربط الجيد»[١].

ويقدم لنا هذا الحديث مثالًا قيمًا ، فقد كان في عقل مكياڤيللي صورة محددة قائمة لما يجب أن يهدف إليه التنظيم العسكري لكل دولة ، كان هذا ـ في الواقع ـ هو الموضوع الأساسي في تفكيره العسكري ، وإذا كان قد أكثر من الحديث عن ضرورة توجيه عناية خاصة ببعض الحوادث والأحوال ، وجعلها وحدها موضع التقدير ، إلا أنه كان معنيًّا في الحقيقة بوضع وإيجاد القواعد والأصول السليمة من ناحية عامة.

على أنه يبدو أن النقص في التفاصيل الواقعية مع التجربة اللازمة للأصول العامة من ناحية الوقت والمكان.. قد سببا الشك في أن تكون لآرائه العسكرية قيمة ما من الناحية التنفيذية .. أي من ناحية التطبيق العملي لها ، ومثل هذه الشكوك في القيمة العملية لآرائه كان من الضروري أن تزداد تبعًا للصورة التي قدمت بها آراؤه..

لقد جاء «فن الحرب» في صورة حوار بين ثلاثة من أفراد أسرة «أرستقراطية» في فلورنسا وبين القائد المحترف ڤابريزيو كولونا ، وجرى هذا الحوار في حديقة قصر أسرة روتشللاي ، وهي مكان اشتهر بالاجتماعات والمناقشات الفلسفية التي كانت عادة تدور فيه.

إن هذا التصوير في حدِّ ذاته يعتبر تصويرًا أفلاطونيًّا ، ويبدو فيه

(١) فن الحرب ص ٣٤٧.

التقدير لروما القديمة ، هذا التقدير الذي يبدو واضحًا في كل صفحات الكتاب؛ ولكن هذه الحقيقة تسبب اضطراب القارئ ، إذ أنه يجد نفسه حائرًا لا يعرف ما إذا كان المتحدثون من رجال عصر النهضة أم من العالم القديم ، وهل هذه الآراء التي يقدمونها تعبر عن الحاضر.. أم أنها مستقاة من الماضي.

ولهذا نستطيع أن نقول في إيجاز: إن الآراء التي جاءت في كتاب «فن الحرب» إنما هي ذات طابع يجعل المجمل العام للكتاب غير محدود الأهداف ، وما لم تصحب بالشرح والإيضاح لمكانها من التاريخ والفكر العسكري فقد يكون من الصعب فهم ما إذا كان هذا العمل يقدم خطوة مهمة في مرحلة التطور الفكري.. أو أنه يضع أساس بناء ما زال في مرحلة الإنشاء.

***

[٣]

هكذا بات كتاب «فن الحرب» من المراجع العسكرية فطبع في القرن السادس عشر ليس أقل من سبع طبعات. وترجم إلى أغلب اللغات الأوروبية ، واعتبر «مونتاني» أن مكياڤيللي من ثقات الشئون العسكرية يجيء بعد قيصر وبولبيوس وكومنييس[١] ، وبالرغم من أن تغير الأساليب العسكرية في القرن السابع عشر جاء إلى المقدمة بكُتاب آخرين فإن مكياڤيللي بقى مرجعًا ينقل ما كتبه ويستشهد به ، وفي القرن الثامن عشر استند إليه الماريشال دي ساكس إلى حد كبير وهو يكتب كتابه «دراسات في كتاب فن الحرب» عام ١٧٥٧ ، وقد رأى ألجاروتي ـ دون الاستناد إلى حجة قوية ـ رأى في مكياڤيللي الأستاذ الذي علم فردريك الأكبر فن القتال الذي أدهش أوروبا بأسرها[٢]. وككل الذين عنوا بالمسائل العسكرية كان جيفرسون يحتفظ بكتاب فن الحرب في مكتبته[٣] ، وعندما سببت حرب عام ١٨١٢ زيادة عناية الأمريكيين بدراسة مشاكل الحرب طُبعت طبعة أمريكية خاصة من كتاب «فن الحرب»[٤] ، ولكن مع هذا ففي القرن التاسع عشر عندما وصلت شهرة مكياڤيللي كمفكر عسكري إلى القمة كان تأثيره

(١) رسائل لمونتاني الكتاب الثالث فصل ٣٤: «ملاحظات عن أساليب الحرب عند يوليوس قيصر».

(٢) ف. الجاروتي الرسالة ٨ ، ٩:

Scienza Militare del Segretario Fiorentino.

من مجموعة مؤلفاته المطبوعة بفينيسيا عام ١٧٩١ المجلد الخامس.

(٣) كتالوج مكتبة الكونجرس ١٨١٥ (مكتبة جيفرسون).

(٤) كتاب «فن الحرب» في سبعة أجزاء والمضاف إليه ملاحظات عن الحرب بقلم (سيد من ولاية نيويورك) طبع الباني عام ١٨١٥.

كمؤلف عسكري قد بدأ يزول ، إن الكثيرين لا يزالون يعتبرونه بأنه هو الذي تنبأ بالحرب الحديثة والذي تنبأ بما جاءت به الثورة الفرنسية من مستحدثات عظيمة بإيجاد التجنيد الإجباري ، ولكن الكثيرين أيضًا يثيرون فشله في إدراك أهمية المدفعية وهو يخط توصيته باتباع التعاليم الرومانية ، ويرون أن هذا يدل على نقص في إلمامه الواقعي بالشئون العسكرية.

قد يكون من الصعب أن نقول إنه في هذا الصراع الفكري يكون الخطأ كله أو الصواب كله في جانب واحد ، فمثلًا أوصى مكياڤيللي بالتجنيد العام ، ومهما يكن هذا الرأي مدهشًا في ضوء التطورات الحديثة فإنه يؤكد أكثر مما ينفي الرأي القائل بنقص إدراك مكياڤيللي للواقعية في عصره؛ ذلك لأننا عندما نحلل القوى السياسية في عصره تحليلًا تفصيليًّا عميقًا فإننا نواجه نشوء قوة المال ونمو سلطات الأمراء ، وكان كل هذا يوضح أن المستقبل للجيش المحترف ، وأنه في ضوء تلك الظروف كانت فكرة جمع جيش من الأهالي على النموذج الروماني لا تعدو أن تكون حلمًا جميلًا.

ولكن يمكن من جانب آخر أن نلاحظ أن عدم تقدير مكياڤيللي للمدفعية ناشئ عن فكرة معقولة وثابتة هي أنه بالرغم من المبتدعات الفنية الحديثة تظل العناصر الأساسية للحرب قائمة. ثم إن توصية مكياڤيللي باتباع الطابع الروماني لم تكن غير عملية كما تبدو لنا اليوم ، إذ كان اللچيون الروماني ـ في الواقع ـ هو الأساس الذي قامت عليه إصلاحات القرن السادس عشر. أولًا تلك التي قام بها فرنسوا الأول ملك فرنسا ، ثم من بعده الإصلاحات التي قام بها موريس أمير ناسو ، وقد وضع الأخير ـ على أساس دراسته للفن العسكري الروماني ـ نظام الآلاي كقاعدة ، أي الوحدة

التكتيكية للمشاة ، ولم تلبث أساليبه في تشكيلات المشاة وتدريب جنود المشاة أن قُلِّدت واتبعت في أوروبا ، وبذلك كانت الأساليب الرومانية ذات تأثير مهم مباشر على كل التطورات الحديثة ، وبهذه الصورة يمكن أن تناقش آراء مكياڤيللي العسكرية في جدل لا نهاية له.

والواقع أن من الخطأ أن تقدر قيمة نظريات مكياڤيللي العسكرية من ناحية نفعها المباشر فقط ، إن القاعدة الصحيحة لتقدير قيمتها كان يجب أن تكون في: هل هي تمثل مبدأً جديدًا يمكن به الوصول إلى تفهم أكبر للأحوال القائمة في فن الحرب أم لا؟ أي أن تقدر قيمتها على أساس الثمار التي تجيء من الأصول العامة لا الوقوف فقط بإزاء النفع في موضوع خاص وحده ، وبهذا الأسلوب كان من الممكن تقدير مكان مكياڤيللي في التأريخ للفكر العسكري وتطوره..

لقد نسب إلى مكياڤيللي أنه أول مفكر عسكري حديث ، وبلا شك إنه لم يكن أول من عني بالشئون العسكرية ، فقد سبقه كثيرون كما جاء في عصره كثيرون عنوا أيضًا بهذه الموضوعات ، ولكن مكياڤيللي رفع النقاش العسكري إلى مستوى جديد كما أوجد الأصول التي تقدم على أساسها التفهم العقلي والتحليل النظري للحرب وللمسائل العسكرية ، ونستطيع ـ فقط بمقارنة آرائه العسكرية بآراء الكتاب العسكريين الذين سبقوه أو عاصروه ـ أن نتفهم خواص ومميزات معالجته لهذه المسائل كما ندرك حقيقة وقيمة ما وصل إليه ببحوثه ودراساته.

إن المسائل العسكرية جزء من النشاط الاجتماعي للجنس البشري ما في هذا من شك؛ ولهذا فقط وضعت دراسة هذه المسائل ضمن الفلسفة الاجتماعية لأعلام الدراسات الدينية في القرون الوسطى ، وعلى الأخص

أولئك الذين عنوا بهذه الدراسات في ضوء ما جاءت به المسيحية ، على أنه تبعًا للتقاليد ظلت المشاكل العسكرية جزءًا من النظريات السياسية ، ثم جاء أولئك الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية فوضعوا تأكيدات خاصة على النواحي العسكرية في الحياة السياسية؛ ذلك لأنهم في تحمسهم لروما وللتاريخ الروماني رأوا أن الأعمال العسكرية والتاريخ العسكري كانا أهم مستلزمات العظمة التاريخية والعظمة السياسية للدولة ، ثم كان أن سببت نهضة العلوم الطبيعية والفنية ميلاد أدب جديد له طابعه الدراسي الفني. وهكذا نوقشت النواحي الفنية في العلم العسكري. كهندسة البناء وتعاليم استخدام الأسلحة. نوقشت نقاشًا فنيًّا في عدد كبير من البحوث والدراسات.

ومما لا شك فيه أن هذه الاتجاهات الثلاثة كلها قد أثرت في تكوين آراء مكياڤيللي العسكرية ، وكان تقدير أهمية ما كتب فيجتيوس كمرجع.. واعتبار الرجل نفسه من الثقات الذين يعتد بآرائهم من عمل القرون الوسطى. وكان أحسن كتابين في الفن العسكري في هذه القرون الوسطى هما اللذان كتبهما أچيديو كولونا[١] وكريستين دي بيزان[٢] ، وإن كان كل منهما من الناحية الأساسية ليس أكثر من إعادة ما كتبه فيجتيوس فقط مع جعله يتمشى وصور الحياة في العصر الإقطاعي الذي عاش فيه الكاتب والكاتبة؛ ولهذا لكي يعمل مكياڤيللي نفسه لتتمشى كتابات فيجتيوس مع العصر الذي يعيش فيه هو كان لزامًا عليه أن يسير هو نفسه في خطى كولونا

(١) القسم الثالث من المجلد الثالث لأجيديو كولونا من كتابه Principum De regimine وهو دراسة تعنى بالتعاليم العسكرية والحرب وعنوانه:

“ Quiomodo regenda sit Civitas aur regnum tempore belli “.

(٢) راجع الهامش رقم ١١.

وكريستين. ويمكن أن نجد صورة واضحة لهذا في عنايته بالوصف التفصيلي لاستخدام الأسلحة ثم فوق هذا في القسم الخاص بفن التحصينات[١] والذي يوضح دراية مكياڤيللي بمشكلات الهندسة العسكرية.

على أن تأثر أولئك الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية كان أكثر وضوحًا في مؤلفات مكياڤيللي. وقد كتب بلاتينا سنة ١٤٦٨ يقول[٢]: «ولم يضعف قوة إيطاليا ونفوذها بدرجة أكبر مما أضعفهما أن استخدام الأسلحة قد بات أمرًا غير عادي بين الناس».

وقد انتقد السياسيون الفلورنتيون الذين سبقوا مكياڤيللي أمثال ماتيو بالميري (١٤٠٦- ١٤٧٥) الجندي المأجور ، ودافعوا عن نظرية تسليح المواطنين[٣].

وأوصى أولئك الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية أمثال باتريكيوس (١٤١٢- ١٤٩٤) بالتدريب العسكري الإجباري لكل الرجال صغار السن[٤] ، وهاجموا الليونة أو الميوعة التي انتشرت في عصرهم بين الشباب ، وأسفوا لنقص البطولة العسكرية ، واعتبروا الروح التجارية التي سادت

(١) الكتاب السابع من كتاب «فن الحرب» لمكياڤيللي.

(٢) Platina, De Vero Principe, book ٣ ch ٦ (Quoted in j. Gaida's Introduction to Piatina's Hostprici liber de Vita Christi ac ominium pontificum, in Muratori, Rerum italicarum scriptores (١٩١٣) Part I p. XIV.

(٣) متيو بالميري «حرية الحياة المدنية» المطبوع عام ١٥٢٩ ص ١١١و ٧٦.

(٤) Francíscus Petricius, De Inserutione rei publical المكتوب قرابة عام ١٤٧٠ والمطبوع عام ١٥٩٤ ص ٤٠٦.

الناس كلهم سبب الاضطراب السياسي في عصرهم.

وفي ختام القرن الرابع عشر كان سالوتاتي (١٣٣٠ – ١٤٠٦) قد لاحظ أن سياسة فلورنسا «لا توجهها الأطماع التي هي من خصال النبلاء؛ بل توجهها المصالح التجارية ، ولما كان التاجر والصانع لا يكرهان شيئًا أكثر مما يكرهان الحرب ويعتبرانها عدوهما اللدود فإن التجار والصناع الذين يحكموننا يحبون السلم ويكرهون الخسائر التي تسببها الحرب»[١].

وتبعًا لهذه الصلات الواضحة بين آراء مكياڤيللي وآراء الكتاب الذين سبقوه في المسائل العسكرية فإنه من الأهمية بمكان أن نبرز عدم استناده إليهم في الآراء التي هي أقوم ما في نظريته العسكرية ، ***والواقع*** أننا لا نجد في الكتابات العسكرية التي سبقت مكياڤيللي شيئًا يماثل توصياته عن المشاة ، وتقديره للأهمية الحاسمة للمعركة. ثم حديثه العام عن الحرب؛ بل على النقيض؛ وقف مكياڤيللي معارضًا لتقاليد الفن العسكري في هذه النقاط كلها ، وقبل مكياڤيللي لم يكن الدور البارز للخيَّالة موضع الشك قط.. فمثلًا يقول كورناتسانو في كتابه De Re Militaria المطبوع عام ١٥٠٧ : «أن العصر الحديث يحب راكبي الخيل؛ إنهم أقرب إلى اليد عند الحاجة إليهم في حالة الحرب»[٢]. ولقد نصح القادة بتجنب المعارك؛ ذلك لأن نتيجة المعركة ليست دائمًا محققة ، وكتب بتريسيوس[٣]: «بالرغم من أن الذكاء والشجاعة والدراية بالعلم العسكري قد تعاوِن القائد إلا أن آلهة الحظ هي التي تبقى

---

(١) Caluccio Salutati, Invertina in Antonum Luscum de Florentina republica male sentientem (١٤٠٠) ed D. Moreni Firenze ١٨٢٦ pp. ١٨١.

(٢) كورناتسانو ـ De Re Militaria ـ بسكارو ١٥٠٧ الكتاب الثاني الفصل الأول.

(٣) بتريسيوس ص ٣٧٤ ـ انظر أيضًا ديوميد كارافا ـ Memoriale المكتوب عام ١٤٧٩ والمطبوع في كتاب ل. بييري «قصة ولاية نابوليتانا» ٥٨ (١٩٣٣) ـ ص ٢٠٨.

دائمًا العامل الحاسم».

وبالإضافة إلى هذا فإن الحرب كان ينظر إليها كآلة ذات أغراض معنوية. وبقيت الوسائل والأصول ثابتة للمستويات المعنوية ومحددة بقواعدها[١].

ومع هذا فإن أهم الحقائق البارزة: هي أن مكياڤيللي قد حول هذه النقاط عن التقاليد المعروفة ، وقدم وجهات نظر ذات طابع واقعي بدرجة أكبر ، إلا أن كل وجهات نظره تربط معًا وتكون في جملتها الأجزاء الضرورية لأسلوب واحد من أساليب التفكير المكملة لبعضها البعض ، وجاءت كلها مستندة إلى قاعدة واحدة هي رأي مكياڤيللي في الحرب ، مستمدة كل تفاصيلها من هذا الرأي. كانت الحياة السياسية في نظره صراعًا للبقاء بين خلايا تنمو وتمتد ، وكانت الحرب طبيعية وضرورية لتقرير ما هي الدولة التي يجب أن تعيش والتي يمكن أن تتخير ما بين الإفناء والاتساع؛ لهذا كانت الحرب يجب أن تنتهي إلى قرار. وكانت المعركة هي أحسن وسيلة للوصول إلى قرار سريع تبعًا لأنها تضع الدولة المهزومة تحت رحمة الدولة المنتصرة ، وبسبب هذه الأهمية المركزية التي للمعركة فإن توجيهها لا يمكن أن يُترَك للفرصة؛ بل يجب التأهب له. وإعداد التدابير الكافية اللازمة إلى الحد الذي يجعل النصر مؤكدًا إلى غاية ما يمكن.

لهذا كان الإعداد الدقيق للمعركة هو الوسيلة الوحيدة للحكم على كفاية وصلاحية تكوين جيش ما. وقد تطلب هذا إعادة اختبار الوسائل

(١) يمكن أن تجد اتجاهات لوجهة نظر مكياڤيللي الحديثة في الحرب في التباين الذي أوضحه بعض الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية في المقارنة بين «الحروب للحياة والبقاء» و«الحروب للشرف والشهرة» م. باليميري ص ٧٢.

التقليدية للتنظيم العسكري ، وبالإضافة إلى هذا كان من الواجب أن تتشكل التعاليم العسكرية في روحها وفي صورتها المادية تبعًا للاحتياجات العسكرية.

إن الاتهام الذي وجهه أولئك الذين يعنون بدراسة طبيعة البشر إلى معاصريهم عندما ألصقوا بهم تهمة النقص في البطولة العسكرية قد جاء دون مناقشة للمعقبات والنتائج المترتبة عليه. وكان في الواقع توجيهًا معنويًّا ارتبط ارتباطًا غير صحيح بفكرة تخالف الموضوع الأصلي تمامًا؛ ولكن إذا نظرنا إلى نظريات مكياڤيللي وآرائه السياسة فإنا نجدها يقوي بعضها بعضًا ، وترتبط معًا في سلسلة واحدة منظمة ، ثم هي في جزئيَّاتها وجملتها أساس فلسفته العامة في السياسة والحرب.

ولهذا فإن أصالة وقوة دراسات مكياڤيللي إنما تكمن في أعطاف سعة القواعد والأصول التي وضعها ، لقد جمع كل المشكلات العسكرية معًا في دائرة واحدة ، وتحقق من أن هناك الارتباط الداخلي بين التفاصيل الفنية العسكرية والعرض العام للحرب ، وبين التعاليم العسكرية والتنظيم السياسي.. وفي تصويره لوجهة نظره الحديثة فإن الموقف التاريخي الذي ولد فيه مكياڤيللي لعب دورًا حاسمًا وما كان من الممكن أن تتوافر هذه النظرة الدقيقة لمكياڤيللي لو لم تتوافر وجهات النظر الجديدة التي أوجدتها الحوادث السياسية في عصره ، ولو لم تتوافر أيضًا النتائج الثقافية التي فتح عصرُ النهضة أبوابَها..

على أن المستحدثات العسكرية لذلك العصر ـ وهي ظهور أسلحة جديدة ونشوء وحدات المشاة ـ كان من الضروري في ضوء الظروف القائمة أن تثير شتى التصورات والتعليقات؛ ولكن لا شك في أن الفكر العسكري

في عصر تتوافر فيه المساواة الاجتماعية كما يتوافر فيه تقبل القيم السياسية دون جدل لابد وأن يقتصر على تشكيل المقترحات الفنية في إطارها العام وينصرف فقط إلى مناقشة تفاصيلها دون أي شيء آخر. لقد جاءت أزمة التعاليم والقيم السياسية ـ الأزمة التي دلَّت على نهاية العصور الوسطى ـ جاءت بالفرصة التي تمكن من إعادة بحث كل الافتراضات في هذه التعاليم والقيم؛ ولكن لما كان عالم السياسة بأسره في فورة فقد بدا من الممكن تشكيله تبعًا للمبادئ الجديدة؛ ولا يعني هذا أن مثل هذه المعالجة الدقيقة المتعمقة إلى أصول الموضوع توجد عادة بين كل مفكري ذلك العصر؛ بل كانت هناك حاجة ملحة إلى رجل مثل مكياڤيللي لينتفع من كل القوى والإمكانيات التي جاءت بها أزمة ذلك العصر ، وفي ذات الوقت كانت الأزمة التي جاءت في عصر مكياڤيللي لازمة ضرورية لتجعل الإدراك الذي توافر له ـ هذا الإدراك الثوري للمشكلات السياسية ـ مستطاعًا ومثمرًا.

وكانت روح النهضة تتمشى تمامًا وتوافق مثل هذا الاختبار للظاهرة السياسية من وجهة النظر للمبادئ والأصول الحديثة ، فإن المبادئ التي تقبلها كل مفكري عصر النهضة وجعلوها دعامة كل ما وصلوا إليه في الفلسفة والعلم كانت هي الإيمان بقيام قانون يحكم ظواهر الحياة الاجتماعية والنشاط البشري ، كانت هناك القوانين التي يمكن أن تكتشف وأن توضح نتيجة لدراسة الأسباب والدوافع ، هذه القوانين التي يمكن أيضًا بوساطتها السيطرة على الحوادث؛ ولهذا كانت فكرة مكياڤيللي في «أن القوانين تسيطر كذلك على الحوادث العسكرية وتوجهها في مسارها» قاعدة أساسية في تفكيره ودراساته للمسائل العسكرية؛ ولهذا فإنه قد وجه كل عنايته للبحث عن هذه القوانين ، ومن ثم شارك في رأي مفكري عصر النهضة الذين قالوا

بأن الإنسان يستطيع بسلاح «العقل» أن يغزو وأن يدمر فكرة «الصدفة والحظ في الحياة».

ولم تكن هذه العقيدة سطحية لحمتها التفاؤل؛ فإن رجال عصر النهضة ـ في الواقع ـ لم ينظروا إلى الحظ نظرة عاجلة ولم يقللوا من قيمته؛ بل اعتبروا الحياة صراعًا عنيفًا له خطره ، يقوم بين منطق الإنسان وعقله وبين آلهة الحظ ، ولكنهم في ذات الوقت لم يشكوا قط في أن عقل الإنسان هو الذي ينتصر في النهاية.

وعندما جعل مكياڤيللي المعركة مركز نظرياته العسكرية فإنه استطاع أن يفعل هذا بسبب أن الشك في النتائج الأمر الذي أخاف الكتاب قبله لم يخفه هو ، ثم إنه بتشكيله تنظيمًا عسكريًّا يتفق مع القوانين التي يمليها العقل كان من الممكن أن يقلل من نفوذ الصدفة وأن يجعل النجاح شيئًا مؤكدًا.

وهذا الاعتقاد بتغلب العقل كان هو الدافع الحقيقي لإعجاب مكياڤيللي بالتعاليم العسكرية الرومانية ، ولم تكن الرغبة في تمجيد القديم ولا الاتجاه الشخصي هما اللذان قاداه لأن يفضل هذا المثال التاريخي الخاص على كل ماعداه ، فإن مناعة الجيش الروماني وامتداد الدولة الرومانية واتساعها كانتا دليلًا على أن الرومان اصطنعوا أحسن التنظيمات التي يمكن أن تتفق ومنطق الواقع ، وكانت تعاليمهم العسكرية هي إدراك للطابع الدائم الذي يضع تصميم التعاليم والنظم العسكرية لكل دولة.

وتبعًا لجعل هزيمة العدو وتدمير قواته الهدف الأساسي للحرب ، صار الفكر العسكري ميدانًا مستقلًّا له مبادئه الموجهة وله منطقه وأساليبه الخاصة ، وبذلك بات من الممكن مناقشة المشاكل العسكرية على أسس فنية

، ولكي يكون الأمر أكثر إيجازًا كان من الممكن تقدير كل الأقيسة العسكرية بالنسبة لغرض واحد أو لهدف واحد أساسي ، وكان هذا في رأي مكياڤيللي هو الحل للمشكل الدراسي الذي يتوقف عليه النجاح في الحرب ، وبالرغم من أن الاصطلاح «استراتيچية» لم يكن معروفًا إذ ذاك؛ فقد كان هذا بداية التفكير الاستراتيچي.

وقد تقدم التفكير العسكري منذ ذلك الوقت مستندًا إلى الأسس التي وضعها مكياڤيللي؛ ولكن ليس معنى هذا أن كل توصيات مكياڤيللي قبلت واعتبرت حقائق لا شك فيها ، وإن كانت المناقشات التي دارت لم تتحول لتكون اعتراضًا على وجهات نظره؛ بل كانت اتساعًا وامتدادًا لآرائه ، وعلى سبيل المثال: مهما كانت أهمية رأي مكياڤيللي في كون المعركة ذات قرار حاسم ، فقد بات من الواضح أن هناك حاجة ملحة إلى تحليل أوسع مدى لنتائج المعركة ، ولم تكن النظرية العسكرية لتقف عند حد إيجاد القواعد والأسس لتشكيل النظام الصحيح للمعركة؛ بل كان عليها أيضًا أن تبحث بدقة سير الحوادث طوال العمل العدائي.

ومن جانب آخر؛ فإنه إذا كانت المعركة هي مقياس الحرب فمن الواضح أن الحملة الحربية كلها يجب أن يوضع تخطيطها وأن تحلل عملياتها بالنسبة للمعركة الحاسمة ، وتوضِّح مثل هذه الاعتبارات أن الدور الذي تلعبه الترتيبات النظرية والتوجيه التخطيطي للعمل العسكري في الحرب الحديثة كان أكبر مما قدره مكياڤيللي؛ كان هو قد قرر أهمية الدور الذي يقوم به القائد؛ ولكنه كان قرارًا جاء نتيجة لدراسة غير معني بها؛ لأنه لم يذكر أكثر من أَنَّ القائد يجب أن يلمَّ بعلمي الجغرافيا والتاريخ؛ ولكن في عصر لاحق كانت مسألة التخطيط في القيادة العسكرية ، أو بمعنى آخر دور

القائد في وضع تخطيطه للمعركة ، كما كان التدريب العسكري للقائد أيضًا يعتبران معًا المشكلة المركزية في التفكير العسكري؛ ومع العمل لتطور دراسة وتفهم هذه المشكلات تقدم الفكر العسكري إلى أبعد مما كان عليه أيام مكياڤيللي؛ ولكن مع هذا فإن هذه النتائج الحديثة كانت خاتمة منطقية للبحوث التي بدأها هو.

على أنه توجد ناحية واحدة في الفكر العسكري الحديث يمكن القول بأنها ليس فقط لا ترتبط بفكرة مكياڤيللي؛ بل إنها تضادها تمامًا؛ كان مكياڤيللي معنيًّا أساسًا بفكرة عامة صالحة للتنظيم العسكري لكل الدول في كل الأوقات؛ ولكن الفكر العسكري الحديث يؤكد بأن العمليات الحربية يجب أن تتباين عندما تجيء في ظروف تاريخية مختلفة ، ولا تكون التعاليم العسكرية متفقة ومرضية إلا عندما تتفق مع الأحوال الخاصة للدولة؛ وبالإضافة إلى هذا فإن إصرار مكياڤيللي على أن تسير التعاليم العسكرية وإدارة الحرب تبعًا لقواعد عامة منطقية زادت من قيمة اعتبار العامل العقلي في المسائل العسكرية.

وبالرغم من أن مكياڤيللي بدأ كناقد لحروب القرن الخامس عشر التي هي أشبه بمداورات لوحة الشطرنج فإن قادة القرن الثامن عشر رجعوا ـ إلى حد ما ـ لحروب المناورة ، وهذا التطور ليس مضادًّا لاتجاه التفكير في العلم العسكري ، هذا الاتجاه الذي بدأه مكياڤيللي؛ وعندما ننظر إلى الحرب كما تصورها قوانين العقل فمن المنطق أن لا يترك أي شيء للفرصة ، وأن نتوقع قيام العدو بالتسليم عندما يؤتي به إلى موقع يكون عنده قد فقد المباراة التي يشترك فيها.

إن نتيجة اعتبار الحرب علمًا ، أو على الأقل زيادة تقدير العناصر

المنطقية في المسائل العسكرية قد أدت بسهولة إلى وجهة النظر التي تقول بأن الحرب يمكن أن تقرر نتائجها على الورق ، كما تقرر هذه النتائج في ميدان المعركة سواء بسواء..

لقد أمكن منذ ذلك الوقت إدراك أن الحرب ليست علمًا فقط.. بل إنها فن أيضًا ، ومع نهاية القرن الثامن عشر بدأ إدراك فجائي لأهمية العوامل الأخرى غير المنطقية ، ولم تعتبر العوامل العامة على أنها ذات أهمية.. بل كانت العوامل الفردية المميزة هي التي اعتبرت كبيرة الأهمية ، وبدا جليًّا أن العوامل التي لم تقدر ولم يحسب حسابها لا تقل تأثيرًا عن العوامل المنطقية التي حسب حسابها.

إن إدخال هذه الاتجاهات الثقافية الجديدة لإدراك أهمية الابتكار والفردية إلى جانب العوامل الفنية في النظرية العسكرية قد اقترنت باسم كلاوزيفيتز ، ومن الملاحظ أن كلاوزيفيتز ـ الذي كان عنيفًا في نقده لغيره من الكتاب العسكريين ـ لم يكن كبير العناية ببحث ودراسة مقترحات مكيافيللي وحسب؛ بل إنه ليقدر أن مكيافيللي كان صادق التقدير والحكم في المسائل العسكرية[١].

وهذه دلالة على أنه برغم الظواهر الجديدة التي جاء بها كلاوزيفيتز إلى النظرية العسكرية خارج نطاق تفكير مكيافيللي فإنه اتفق مع مكيافيللي في نقطه الأساسية التي تقول بأن دقة التحليل الخاص بالمشاكل العسكرية إنما تتوقف على النظرة الصحيحة لطبيعة الحرب.

وهكذا فإن كلاوزيفيتز هذا المفكر الثوري الكبير بين المفكرين

(١) فون كلاوزيفيتز ـ الاستراتيجية ـ تقديم كليسيل طبع همبرج ١٩٣٧ ـ ص ٤١.

العسكريين للقرن التاسع عشر لم يقذف بعيدًا بالنظريات الأساسية لمكياڤيللي. ولم يقلل من قيمتها؛ بل انتفع بها واستخدمها في إبراز نظرياته وآرائه هو نفسه!!

❊ ❊ ❊

مراجع الفصل الأول

مكيافيللي: نهضة فن الحرب

G. Mazzoni and M. Cassella:

Tutte le opera storiche e letterarie di Niccoló Machiavelli (Florence ١٩٢٩).

M. Lermer, Principe and Discorsi. Modern Library (New york ١٩٤٠).

W.k. Marriot, Machiavelli's Istorie Fiorentine.Everyman's Library, (London ١٩٠٩).

A.H. Gilbert, the prince and Other Works.(Chicago ١٩٤١).

Peter Whithorn, Machiavelli's Arte della Guerra, ١٥٦٠.

Hans Delbruck, Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte. (Berlin, ١٩٠٠- ١٩٠٦).

Sir Charles Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, ٢ Vols. (London, ١٩٢٤).

Sir Charles Oman, AHistory of the Art of War in the ١٦th Century. (New York, ١٩٣٧).

M. Jähns, Geschichte der kriegswissencshaften vol. I. (Berlin, ١٨٨٩).

W. Sombart, Krieg and Kapitalismus. (Munich and Leipzig, ١٩١٣).

J. Huizinga, The Waning of the Middle Ages. London, ١٩٢٧.

W. Bock, Die Condottieri Studien uber die sogenannten unblutigen Schlachten. (Berlin, ١٩١٣).

F. L. Taylor, The Art of War in Italy, ١٤٨٤ – ١٥٢٩. (Cambridge, ١٩٢١).

P. pieri, La crisi militare Italiana nel Rinascimento.(Naples, ١٩٣٤).

P. Villari, Life and Times of Niccoló Machiavelli. (London, ١٨٩٨).

O. Tommasini, La Vita e gli scritti di Niccoló Machiavelli, ٢ Vols. (Rome ١٨٨٧ and ١٩١١).

W. Hobohum, Machiavelli's Renaissance der Kriegskunst, ٢ Vols. (Berlin, ١٩١٣).



ڤوبان (١٦٣٣ - ١٧٠٧)

الفصل الثاني

فوبان: تأثير العلم في الحرب

بقلم هنري جورلاك

بقيت في أوروبا مرحلة مستمرة من الحروب متصلة تقريبًا منذ أيام مكياڤيللي حتى نهاية حرب الوراثة الأسبانية. وثبت أن الغزو الفرنسي لإيطاليا ، هذا الغزو الذي أيقظ مكياڤيللي فجأة ليوجهه إلى هذه الدراسات التي قام بها ، لم يكن أكثر من مقدمة لقرنين من الزمان مرًّا في تنافس دولي عنيف بين الڤالوا والبوربون(*) في جانب وآل هبسبورج في الجانب الآخر ، ولجزء كبير من تلك المرحلة جاءت عدة حروب أهلية لتقطع مسير الحروب التي تثيرها الأسر الحاكمة؛ ولكنها لم تكن لتوقفها بل كانت تشترك معها في إيجاد معارك غير محددة العنف والخسائر.

وفي قرابة نهاية القرن السابع عشر عندما قلت الحروب الأهلية واستقرت دعائم الدول الكبرى الرئيسية في أوروبا عاد من جديد هذا الصراع القديم كجزء من محاولة لويس الرابع عشر للسيطرة على أوروبا ،

(*) الڤالوا: أسرة فرنسية حاكمة من آل كابيه Capet تولى أفرادها عرش فرنسا من عام ١٣٢٨م وأول ملوكها فيليب السادس ، وانتهى الڤالوا الأصليون بشارل الثامن. أما ڤالوا أو رليانز فيمثلهم لويس الثاني عشر... ، ويبدأ ڤالوا أنجولين بفرنسوا الأول وينتهون بهنري الثالث.

وتبدأ أسرة بوربون أورليانز بفيليب بن لويس الثالث عشر... وتولى بعده أخوه لويس الرابع عشر... وانتهى حكم بوربون أورليانز بالملك لويس فيليب الذي أنزل عن العرش عام ١٨٤٨ ميلادية «المترجم».

معجم لاروس ١٩٤٦ص ١٢٤٠و ١٧٨٨.

ولكن مع بعض أوجه الخلاف ، فإن الدول التجارية الجديدة الناهضة كهولندا وانجلترا اللتين كانتا قد عاونتا فرنسا في وضع حد للسيادة الأسبانية كانتا إذ ذاك تقفان موقف العداء من فرنسا.

وكان صلح أوترخت(*) الذي وقِّع عام ١٧١٣ سلمًا انجليزيًّا؛ فقد مهد السبيل لسيطرة انجلترا على البحار؛ ولكنه في ذات الوقت لم يضعف فرنسا إلى الحد الذي رغَّب فيه خصومها في القارة ، وأبقى كل غزوات فرنسا المهمة متماسكة ولم يغير شيئا من معاهدة وستفاليا(**) التي كانت ميثاق سلامة فرنسا وأمنها ، والأكثر من هذا كله فإنه ترك الجيش الفرنسي ـ أول جيش أهلي في أوروبا ـ ضعيفًا ، إلا أنه صلب العود ، ثم إنه لم يضعف إطلاقًا من مكانة فرنسا كأقوى دولة عسكرية في أوروبا إذ ذاك.

وكان التقدم العسكري في المائتي سنة الأخيرة قد وضح بدرجة كبيرة

(*) صلح أوترخت هو الصلح الذي انتهت به حرب الوراثة الأسبانية وأوترخت المدينة تقع على نهر الرين على مسافة ٣٨ ميلًا للشرق من هاي وسكانها ٩٢٣٠٠.. ، أما أوترخت الولاية فتقع في الأراضي الواطئة وتربتها رملية في الشرق وأكثر خصوبة في الغرب وتنتج مستحضرات الألبان واللحوم والخضروات والفاكهة ، ومساحة الولاية ٥٣٥ ميلًا مربعًا ، وتعداد سكانها ٥٧٣,٤٠٠ ، وكانت أوترخت مركز بطريركية الكاثوليك وقد بنوا بها كتدرائية عظيمة دمرتها العواصف عام ١٦٧٤ ، وأهم الصناعات: المنسوجات والأقمشة الصوفية والسجاد والفخار وآلات الأرغن الموسيقية والمنتجات الكيماوية والآلات الهندسية (المترجم)

Everyman Encyclopedia vol ٢ p. ٥١٩.

(**) وقعت معاهدة وستفاليا في ٢١ أكتوبر ١٦٤٨ ، وقد انتهت بها حرب الثلاثين سنة. وأكدت بنودها ما سبق أن استولت عليه فرنسا في متز وتول وفردون ، كما أكدت سيادة فرنسا على الألزاس ، وقد اعترفوا في هذه المعاهدة باستقلال سويسرا والأراضي الواطية الهولندية ، كما نص فيها على الحرية الدينية للبروتستانت في ألمانيا وفرنسا ، وتعتبر المعاهدة فشلًا للنمسا وأسبانيا في محاولتها إعادة الكثلكة إلى وسط أوربا (المترجم)

E. Encyclo vol. ١٢ p. ٦٩١.

في ذلك الجيش ، وكان هذا التقدم كبيرًا[١] ، فمن الناحية الأولى كانت الجيوش قد ازدادت من ناحية العدد ، ***والواقع*** أننا بسبب تأثرنا بأول ظهور محتشدات الجيوش إبان حروب الثورة الفرنسية نميل لأن نتناسى الزيادة المستمرة في حجم الجيوش الأوروبية الذي حدث طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما وصل ريشيليو مثلًا بقوات فرنسا العسكرية إلى مائة ألف جندي عام ١٦٣٥ ، وبذلك كانت هذه القوات ضعف ما كان لدى آخر ملوك الڤالوا. إلا أن هذه القوات الكبيرة التي أعدها ريشيليو كانت ربع القوة التي أعدها لوڤوا[*] للويس الرابع عشر.

وكانت الزيادة العددية في القوات العسكرية ترجع أساسًا إلى زيادة أهمية المشاة ، كان عدد المشاة قد وصل إلى ضعف عدد الخيالة في الجيش الذي غزا به شارل الثامن إيطاليا ، ولكنه وصل إلى خمسة أضعاف عدد

(١) في هذا الفصل وفي الفصل الذي يليه اعتمدت على كتابات بوتاريك وكاميل ووسيني وسوزان ، وقد أثبت كتاب لويس أندريه بعنوان «Michel le Tellier» أنه أهم كتاب عني بدراسة إصلاح الجيش في القرن السابع عشر.

(*) لوڤوا... مركيز ابن ميشيل لوتيلييه وكيل وزارة الحربية ، مهندس معماري ومنظم إداري من طراز ممتاز.. ، أعاد تنظيم جيش لويس الرابع عشر ، كان له فضل إصلاح نظام تعبئة القوات ، ووضع وسائل جديدة لنقل الجنود وإعداد أماكن الإقامة للقوات عقب انتقالها من مرحلة إلى أخرى.. كما أعد مراكز تخزين الذخيرة ، ونظم أوامر وتعليمات القيادة ، وأدخل لوڤوا استخدام السونكي بواسطة جنود المشاة ، كما كان هو الذي أعد مدارس الطلبة المهندسين للجيش...

وكان تأثير لوڤوا كبيرًا في توجيه السياسة الخارجية لفرنسا إلا أنه في السياسة الداخلية كان سيء التصرف؛ إذ أنه هو الذي عمل لاضطهاد البروتستانت الموجودين في جنوب فرنسا بين عام ١٦٨١ وعام ١٦٨٥ بمعاونة الوزيرين: فوكو ولاموانيو.

وقد ولد لوڤوا عام ١٦٣٩ في باريس ، ومات بها عام ١٦٩١ (المترجم)... «معجم لاروس لعام ١٩٤٦ ص ١٥٠٧».

الخيالة في نهاية القرن السابع عشر ، على أن الإيضاح العادي لهذه الأهمية الجديدة لجنود المشاة هي أنها ناتجة عن التحسن في الأسلحة النارية ، ومن الحقائق التي لا جدال فيها أن اختراع البندقية والتطورات التي توالت على هذا الاختراع ثم اختراع السونكي قد أدى هذا كله إلى الزيادة في قوة نيران المشاة ، وبذلك كانت الزيادة في عدد الجنود المرتجلين.

ولكن هذا في الواقع ليس إلا جزءًا من القصة. فإن الزيادة المستمرة لأهمية حرب الحصار كان لها تأثيرها أيضًا هنا؛ ذلك لأن المشاة لها من الخواص ما يعتبر مستحيلًا بالنسبة للخيالة ، سواء في القيام بالحصار أو في الدفاع عن الأماكن المحاصرة.

وكانت الجيوش الأوروبية في القرن السابع عشر عبارة عن جماعات من المحترفين ، أغلب أفرادها من الأجانب الذين يجندون بالتطوع؛ وكان من النادر الاستعانة بجماعات المجندين من أفراد الشعب الذين يقفون في الاحتياطي الثاني لقوات الجيش؛ على أن هذه الجماعات الإقطاعية كانت في الغالب موضع السخرية أكثر من أن تكون موضع الاستخدام؛ وفيما عدا تجربة إحياء المليشيا في عصر متأخر في حكم لويس الرابع عشر فإنه لم يوجد في فرنسا شيء يمكن أن يشبه أو يماثل الخدمة العامة الجامعة.

على أنه من جهة أخرى فإن هذا الجيش الأهلي يصعب أن يكون ممثلًا للأمة كلها ، فقد بقى للسادة وحدهم العمل في الفِرق الممتازة من الخيالة ، وكان لهم أن يقدموا الضباط لوحدات المشاة؛ بينما يختار جنود المشاة العاديين من أفقر الطبقات في المجتمع ، فإن الفلاحين الأثرياء وأعضاء الطبقات البرجوازية قد تخلصوا من الخدمة العسكرية التي تقوم على التجنيد ، كما تخلصوا من الخدمة في فرق الميليشيا التي كانوا معفون من

الخدمة بها؛ ولكن مع هذا لا يمكن القول بأن طبقة كاملة من المجتمع امتنعت عن المساهمة في قوات الدولة المسلحة؛ ذلك لأن أفراد الطبقة البرجوازية في الواقع أسهموا بدور كبير في قوة فرنسا العسكرية وإن كانوا لم يخدموا ، لا في الخيالة ولا في المشاة؛ ولكن مساهمتهم جاءت في ناحيتين اثنتين:

أولاهما: في الخدمات الفنية أي في المدفعية والمهندسين وفي التطبيق العملي لصناعة الحرب.

وثانيتهما: في الإدارة المدنية للجيش ، هذه الإدارة التي تطورت بدرجة كبيرة إبان القرن السابع عشر ، والتي صحبتها أيضًا عدة إصلاحات تقدمية كبيرة.. ، وربما كانت هذه التطورات الفنية والإصلاحات التنظيمية من أهم مراحل التقدم ، وفي كلتا الناحيتين كان الجيش الفرنسي يتولى قيادة الطريق..

***

[٢]

ولا يحمل الجيش الذي تركه لويس الرابع عشر لخلفائه من بعده إلا أقل الشبه للجيش الذي كان لدى ملوك الثالوا؛ فإن صور التطور في التنظيم والإعداد والضبط والربط إنما ترجع كلها إلى التطور في الإدارة المدنية وعلى أيدي نفر من المفكرين الكبار أمثال ريشيليو ولوتيليه ولوڤوا وڤوبان ، هذه المجموعة التي جاءت متتالية فغطت حياتهم حقبات القرن السابع عشر الميلادي..

وحتى القرن السابع عشر كانت كل مسائل الجيش يتولَّاها العسكريون وحدهم.. وكانت هناك سيطرة مركزية قليلة الأثر؛ فسرايا المشاة المختلفة ـ والتي كانت في البداية مستقلًّا بعضها عن بعض ـ تحت قيادة قادتها المباشرين قد نُسقت إلى حدٍّ ما بجمعها في آليات ، كل بقيادة قائد يخضع لأوامر ضابط كبير هو «الكولونيل چنرال للمشاة» ، وهو المركز الذي يماثل مدير المشاة في التنظيمات الحديثة؛ ولكن مكانة واستقلال هذا الضابط الكبير كانتا لتضعفا لا لتزيدا من قوة وسيطرة صاحب التاج على الآليات المشاة الجديدة ، وكانت الخيالة أيضًا في القرن السادس عشر قد أُخضعت في ذات الصورة إلى حد ما للأوامر الملكية. أو بمعنى آخر كانت تابعة لسلطان التاج في صورة باهتة. إلا أن سرايا الخيالة تبعًا لتقاليدها قاومت الاتحاد والاندماج معًا في آلايات حتى القرن السابع عشر الميلادي.

كانت الفرق الممتازة من الخيالة حاملي الحراب التي تمثل وحدات الخيالة القديمة يسيطر عليها قادتها وحدهم الذين يخضعون لأمر ضابط كبير يمثل صاحب التاج ، وكان هذا بدوره في الواقع مستقلًّا ، ولكن بعد

حكم الملك هنري الثاني وضعت فرق الخيالة الخفيفة تحت إمرة «كولونيل چنرال» أسوة بالمشاة.

وبقيت المدفعية وحدها شاذة عن هذا فقد كان سلطان «البرجوازيين» هنا قويًّا، ثم إن الأمر كان يرجع إلى تقاليد قديمة؛ ولهذا فإن الإدارة الحقيقية كانت في يد قوميسير عام المدفعية ـ وهو رجل كان يختار عادة من الطبقة الوسطى ـ ولكن حتى هنا كانت الرياسة الفعلية لقائد عام المدفعية والذي كان منذ القرن السادس عشر يعتبر ذا وظيفة هامة؛ وهكذا يتضح لنا: أن الجيش لم يكن وحدة كاملة متماسكة، وفيما عدا الملك نفسه لم تكن هناك سلطة مركزية لأحد، ولم يكن في الجيش أي موظف مدني له مكانة هامة إلا في المدفعية وحدها..

وجاء ريشيليو[1].. ووضع أسس الإدارة المدنية في الجيش بأن نفذ فيه

(١) ريشيليو .. أرمان جان دوبلسيس كردينال دي ريشيليو (١٥٨٥- ١٦٤٢) سياسي فرنسي ولد في باريس عام ١٨٨٥. وقد اتجه في البداية لخدمة الجيش ولكنه عندما استقال أخوه الأكبر من رياسة إبراشية لوسون أعطيت له بعد الحصول على إذن من بابا روما بسبب صغر سنه، وعين أسقفًا للوسون عام ١٦٠٧.

وقد أظهر ريشيليو خبرة بالسياسة منذ فجر حياته واختير وزيرًا بسبب ثقة ماري دي مديتشي أم الملكة آن زوجة لويس الثالث عشر، فلما قتل كونشيتي صحب ماري إلى بلوا واستطاع بعد ذلك أن يعيدها إلى باريس وأن يصلح بينها وبين إبنها فكوفئ بترقيته لرتبة كردينال عام ١٦٢٢، وفي عام ١٦٢٤ اختير رئيسًا للوزارة ومنح رتبة الدوق عام ١٦٣١.. وقد قضى المدة من عام ١٦٢٦ حتى عام ١٦٣٢ في صراع عنيف ضد دوق أورليانز.

ومع مرضه فإنه كان يقود الحملات الحربية بنفسه.. وقد استطاع النجاة من المؤامرات التي كان خصومه يدبرونها للقضاء عليه بسبب استخدامه لشبكة قوية من الجواسيس كانوا عيونه في كل مكان وكل مجتمع.

وقد وضع ريشيليو نصب عينيه من بداية حياته السياسية أن عظمة الدول لا تتم إلا إذا توافرت السلطة المطلقة لصاحب التاج فعمل على دعم سلطة الملك مقتنعًا بأن هذا=

سياسته المعروفة ، سياسة الاعتماد على العملاء من الطبقة الوسطى كأحسن وسيلة لدعم سلطان التاج ، وأوجد ريشيليو مجموعة من المراقبين الإداريين والذين كانوا في ذات الوقت يعملون كمندوبين إقليميين ، ويختارون للقيام بواجبات خاصة وقت الحرب ، وقد عين مراقبًا لكل وحدة من وحدات الميدان ، ثم أوجد مجموعة أخرى من «القوميسييرين» تابعين للمراقبين. وكان القوميسييرون هم الذين يقومون بواجبات دفع أجور الجنود ، ويحتملون مسئولية تخزين العتاد وما إلى هذا من المسائل العسكرية.

وكان ريشيليو أيضًا هو الذي أوجد الوظيفة الهامة ، وظيفة وزير الحربية ، وحدد له اختصاصاته وواجباته. وفي حكم الوزيرين الكبيرين ميشيل لوتلييه (١٦٤٣-١٦٦٨) وولده المركيز دي لوڤوا (١٦٦٨-١٦٩١) اللذين توليا رياسة الوزارة متعاقبين ازدادت مكانة هذه الوظيفة كما زادت سلطات وزير الحربية وسلطات الإدارة المدنية المتباينة الأقسام والاختصاصات والتي تعمل في معاونة الوزير ، فحول شخصية الوزير نفسه تكونت إدارة حكومية كبيرة كاملة المعدات والسجلات؛

=هو الذي يضمن له السيادة على أوروبا وقد بذل طوال حياته الكثير من الجهد لتحقيق هذا.

وكان أقوى خصومه هم الهوجنوت والنبلاء واستطاع القضاء على الهوجنوت كثوار إلا أنه بعد هذا منحهم الحرية الدينية ووفر لهم الحقوق المدنية كمواطنين ، واستطاع كذلك القضاء على سلطات النبلاء وفض عليهم مدنهم الحصينة ، وبالرغم من أن فرنسا قد كسبت كل المعارك الحاسمة في حرب الثلاثين السنة بعد وفاته إلا أنه في الواقع كان قد قضيى على كل تهديد لآل هبسبورج.

ولكن ريشليو في اختياره للوزراء وقادة الجند كان ينظر إلى خضوعهم وولائهم أكثر مما يعنى بكفايتهم وتوافر قوة الابتكار والمبادأة فيهم ، ومع هذا فإنه كان هو الذي مهد الطريق للانتصارات العظيمة العسكرية التي حصل عليها الملك لويس الرابع عشر.

E. Encycl. Vol. ١١ PP. ١٥٧-١٥٨.

وفي عام ١٦٨٠ كانت قد تكونت خمسة أقسام مختلفة داخل هذه الإدارة المدنية ، وتولى كل قسم مدير تعاونه مجموعة كبيرة من المرءوسين ، وإلى هذه الأقسام كان المراقبون والقوميسيريون بل وحتى قادة الجند أنفسهم يرسلون تقاريرهم وطلباتهم ، وكان رؤساء هذه الأقسام هم الذين يصدرون الأوامر باسم الوزير ، ولم يكن يتصل بالوزير مباشرة إلا الأشخاص ذوو المكانة الكبيرة وأضحى الوزير بذلك هو الذي يصدر القرارات العسكرية الهامة ، وهو مستشار الملك وموضع ثقته.

على أننا في تقديرنا تبعًا للمستويات الحديثة ، بل وحتى تبعًا لمستويات عصر نابليون نستطيع القول: بأن جيش لويس الرابع عشر لم يكن متناسق التنظيم ، كان هناك نقص واضطراب في التنظيم والإدارة ، وكانت هناك أخطاء أو فساد بمعنى أصح في تجنيد الأفراد واختيار الضباط للقوات ، ولكن مع هذا فإن هذا الجيش لم يكن مجموعة من الوحدات الإقطاعية المنفصلة التي لا تعرف أي منها غير قائدها المباشر الذي قام بتجنيد أفرادها؛ وإذا كانت قد توافرت لهذا الجيش تنظيمات عسكرية ذات سلطات محددة واضحة؛ وإذا كانت سيادة صاحب التاج على هذا الجيش لم تكن عرضة للتهديد أو التمرد للخروج عليها بوساطة القادة الثائرين؛ فإنَّ هذا كله يرجع إلى الجهود المضنية التي بذلتها الإدارة المدنية للجيش طوال القرن السابع عشر ، فقد ألغيت الإدارات شبه المستقلة ، وأمكن إجراء كل صور الإصلاح في نطاق عمل كبار الضباط؛ وذلك لجعل هذه السلطات واضحة محددة الأهداف وتبسيط كل صور الغموض والاضطراب القديمة التي كان يوجد منها التنافس بين العدد الكبير من الماريشالات والجنرالات ، وأدخل مبدأ الأقدمية العامة في الجيش؛ كما أمكن تحقيق توحيد القيادة بإيجاد مركز

مؤقت استثنائي لرتبة: «ماريشال عام الجيوش» الوظيفة التي تولاها تورين عام ١٦٦٠ لأول مرة؛ كما أمكن إجراء عدد كبير من الإصلاحات الصغرى في ذلك العصر والتي تمس الكثير من المسائل كضرر تعدد السلطات والوظائف التي يشغلها فرد واحد؛ كما أمكن توحيد زي أفراد القوات المحاربة، وزيد من الضبط والربط في الجيش وغير هذا من صور الإصلاح في تجنيد الأفراد وتنظيم إقامتهم ودفع أجورهم.

ومما لا شك فيه أن هذه الجهود لتنظيم بناء الجيش كان لها صداها ومظهرها الواضح في نواحٍ أخرى من بناء الدولة، فقد هوجمت كل الحقوق التقليدية التي لبثت طويلاً مرعية الجانب مع وضوح خطرها وتأثيرها السيئ، وكان هذا الهجوم بهدف واحد هو تقوية السلطة المركزية، على أن هذه المحاولة لإقرار النظام لم تكن وسيلة ناجحة قصد بها إيجاد السلطة وحسب، ولم تكن أيضًا فكرة خلابة أملتها الرغبة في السيادة والسلطان.. وحيثما وجدت الثورة مع الفوضى والاضطراب فإنهما كانتا مظهرًا عاديًّا ناتجًا عن إيجاد المنطق الرياضي الذي وصل إليه ديكارت(*) والروح الهندسية

(*) ديكارت، رينه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) فيلسوف فرنسي ولد في لاهاي وتعلم بمدرسة الجيزويت في (لافليشي) وفي عام ١٦١٧ ذهب إلى هولاندة والتحق بجيش (البرنس) الأمير موريس أوف أورانج، وفي عام ١٦١٩ خدم في بافريا، وبينا كان في المعسرك الشتوي في نيوبيرج على الدانوب تيسر له الوقت فوضع كتابه في (نظرية الطريقة)؛ وفي عام ١٦٢٥ أقام في باريس ولكنه تركها عام ١٦٢٩ إلى هولاندة حيث أقام إلى عام ١٦٤٩.

وفي عام ١٦٥٠ ذهب إى بلاط السويد بدعوة من الملكة كريستينا ولكنه مات في استكهولم بعد أشهر قليلة؛ ويعتبر ديكارت أبا الفلسفة الحديثة، والواقع أنه عندما كان يطلب العلم لم يتقبل التقاليد المدرسية ولم يتقبل النظريات القديمة كأساس للمعرفة وكانت أولى خطواته أن نفض يديه من كل كتب التعليم في عصره، وفي عام ١٦٣٧ ظهرت بعض الدراسات الحديثة التي يسرت له أن يتابع فيها تطورات عقله من سنيه=

التي أوجدها باسكال(*) .

وكانت هذه هي الصورة التي وضحت في فرنسا كلها أولًا تبعًا للثورة

=المبكرة حتى وصل إلى مبدأ رفض تصديق أي أمر ما لم يقم عليه دليل واضح لقد بدأ «بالشك» كوسيلة للتجربة والاختبار وطبق هذا في كل نواحي المعرفة ، وكان الشيء الوحيد الذي احتمل هذا التطبيق هو حقيقة وجوده ، هذه الحقيقة التي وصف بها العلاقة بين الوجود والحس ، ومن الفلسفة طبق أصوله ونظرياته على علم الطبيعة وأوجد نظريته التي توضح حركة الأجسام السماوية ولم يعطل من نظريته إلا وصول نيوتن إلى نظرية الجاذبية ، وكان ديكارت هو الذي أوجد الهندسة التحليلية وطبق علم الجبر في علم الهندسة وكان أول من أدرك الأصول السلبية في المعادلات الجبرية . «المترجم»

E. Encycl. Vol. ٤ PP. ٦٢٨-٢٩.

(*) باسكال: بليز باسكال ، من أعلام القرن السابع عشر. عمل في أربعة ميادين لأربعة اتجاهات مختلفة في الدين والرياضيات والطبيعة والفلسفة ، ولد في كلير مونت من أعمال أوفرن في ١٩ يوليو عام ١٦٢٣ ، ماتت أمه بعد أربع سنوات من مولده ، وعاش بسكال منذ وفاة أمه حتى مات مبكرًا في سن التاسعة والثلاثين يقاسي متاعب عقلية وجسمانية كثيرة ، وكان أبوه يعمل قاضيًا في محكمة كليرمونت إلا أنه بعد ثلاث سنوات من وفاة زوجته ترك عمله ورحل إلى باريس ليعلم ولده وابنتيه جاكلين وجلبرت وقد آتت هذه الدراسة ثمارها فإن باسكال قد أكمل مؤلفا في علم الهندسة وهو في السادسة عشرة من عمره.

على أن باسكال الأب لم يلبث أن أثار غضب الكردينال ريشيليو فاضطر للإختفاء إلا أن ابنته جاكلين والتي كانت إذ ذاك ممثلة ناجحة مرموقة وفقت للحصول على عفو عنه وعلى توليه عملاً هامًا في روان.

وكان باسكال الابن قد انصرف إلى دراسة تأثير الضغوط وبدأ عمله للوصول إلى البارومتر ووصل إلى تحقيق أن الضغط الجوي يتغير تبعًا لتغير الأحوال الجوية... ثم بدأ تجاربه على ضغوط السوائل ، ووصل إلى القانون الذي يقول بأن «الضغط على سطح السائل الموجود في إناء يتوزع بالتساوي في كل الاتجاهات ويعمل بقوي متماثلة على كل السطوح المتساوية وفي زاوية قائمة بالنسبة لهذه السطوح».

وقد أصيب باسكال في حادث ولكنه مع متاعب جسمه المحطم بقى يتابع بحوثه في الهندسة ، ومن دراسته للشكل السداسي الأضلاع وحده وصل إلى أكثر من أربعمائة حقيقية في علم الهندسة (المترجم). E. Encycl. Vol. IO PP. ٣٠٠

العلمية بما صحبها من فلسفة آليَّة ، ثم تعمقت إلى أبعد من هذا تبعًا للاستخدام الآلي؛ حيث يقوم كل جزء بدوره وخاصيته دون ما فقد في الحركة ولا زيادة لا ضرورة لها في الأجزاء التي تكون الآلة ، ولم يكن النموذج لهذا هو الإنسان وحده بل العالم كله الذي خلقه الله ، وفي هذا الكون الفسيح كانت الأجزاء هي الذرات التي تحدث عنها جاسندي(*) ، والجزئيات التي ذكرها ديكارت ، بينا يرجع الفضل إلى فونتينل(**) في الوصول إلى إدراك «مبعث الحركة».

إننا نتحدث عادة وكأن أهل القرن الثامن عشر أو أهل القرن التاسع عشر هم الذين اكتشفوا الآلة ، ولكن هذه حقيقة ناقصة؛ فإن أهل القرن السابع عشر هم الذين اكتشفوا الآلة ، وهم الذين وصلوا إلى إدراك

(*) جاسندي ، بيير جاسندي (١٥٩٢-١٦٥٥) فيلسوف فرنسي وعالم بالرياضيات ولد في شامبتر سبيه درس في Ax بفكرة الإلتحاق بالكنيسة ، ولكنه لم يلبث أن أغفل هذا وانصرف إلى دراساته الفلسفية ، وقد اختبر نظريات أرسطاطاليس وطبعها عام ١٦٢٤ واعترض على اعتبار آراء أساطاليس آخر ما في أفق علم الفلسفة ، وفي عام ١٦٤٥ استخدم أستاذًا لرياضيات في الجامعة الملكية بباريس ، وبينما كان يعيش في باريس كتب كتابه De Vita Epicuri (حياة أبقراط) وفي هذا الكتاب قدم صورة ضافية لآراء أبقراط ونظرياته (المترجم). E. Encycl. Vol. ٦ PP. ٢٧٣

(**) فونتينل ، برنارد لوبو فوار دي فونتينل محام فرنسي وفيلسوف وشاعر وهو ابن أخ كورني كتب فونتينل عدة أوبرات هي (بسشيه) ١٦٧٨و (بيليروفون) ١٦٧٩ و(اسبار) ١٦٨١؛ وفي عام ١٦٨٨ وقف إلى جانب المحدثين في الصراع بين (القدامي) و(الجدد) ومن مؤلفاته شعر الرعاة ١٦٨٨و (ديالوج الموتى) ١٦٤٣ و(مناقشة عن تعدد العوالم) ١٦٨٨ و(امتداح الأكاديميين ١٦٩٩-١٧٤٠) ، وقد ضم إلى الأكاديمية الفرنسية برغم اعتراض راسين وبويلو ، ثم ضم إلى أكاديمية العلوم عام ١٦٩٧ وعمل سكرتيرًا لها من عام ١٦٩٩ إلى عام ١٧٤١ وقد أخرج كتابًا عن (عوامل الهندسة اللانهائية) ، عام ١٧٢٧ وكتابًا عن (نظرية ديكارت عن الحركة الدائرية للمادة) عام ١٧٥٢ وعاش من عام ١٦٥٧ لعام ١٧٥٧ (المترجم).. E. encycl. Vol. ٥ PP. ٧٤٥.

تعقدات دقة إحكامها ، وهم أيضًا الذين وصلوا إلى الكشف عن العوامل الحسابية في عملها. وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الآلات الحسابية لقياس المسببات والنتائج التي وصل إليها باسكال وليبنيتز(*) ، إن القرن الثامن عشر قد أعطى هذه النتائج كلها صبغة نيوتية ، وكان القرن التاسع عشر هو في الواقع الذي وصل إلى إدراك «القوة» لا الآلة.

ولهذا فإنه في عصر ريشيليو ولويس الرابع عشر كان المصلحون يعملون بتوجيه وطابع العصر الذي عاشوا فيه ، كانوا يعملون ويفكرون بالتأثير الكبير الذي حققه العلم ، وبهذه الروح وجهوا جهودهم إلى الاستحادث والتجديد في الجيش وفي الإدارة المدنية ، كما عملوا بها أيضًا على أن يحققوا للدولة وللجيش بعض الخاصيات التي مكنت منها «الآلة» لقد كان العلم في الواقع يبعث بتأثيرات مباشرة للمسائل العسكرية ، وإلى

(*) ليبنتز ، جوتفريد ويلهلم فريهرفون ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦) فيلسوف ألماني وعالم من علماء الرياضيات ولد في ليبزج ، وفي عام ١٦٦١ دخل جامعة ليبزج ليدرس القانون ، وفي عام ١٦٦٦ رفضوا منحه الدكتوراة لحداثة سنه فتحول إلى جامعة نورمبرج التي منحته الدكتوراه مع مقعد الأستاذية بها وهناك تعرف إلى البارون فون بونبرج الذي قدمه إلى حاكم ميتز ، وفي عام ١٦٦٩ اختير للدفاع عن وجهة النظر الألمانية في عرش بولندة.

وفي عام ١٦٧٢ استدعى إلى باريس للقاء لويس الرابع عشر ، وفي باريس عرف كريستيان هايجنز الذي وجهه لدراسة الرياضيات وزار لندن حيث قابل نيوتن وبويل ، وفي عام ١٧٦٣ ترك خدمة حاكم متز وعمل في خدمة الدوق جون فردريك حاكم برنزويك وقد استخدمه في كتابة تاريخ لأسرة برنزويك ، وقد زار المكتبات الهامة والمدن الكبيرة في ألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع مادة كتابه؛ وفي عام ١٧٠٠ أسس فريدريك الأكبر جامعة برلين واختير ليبنتز عميدًا لها مدى الحياة.

وعندما عاد إلى هانوفر وجد جورج حاكمها قد أختير ملكًا لانجلترا ، وكان يود صحبة سيده إلا أنه بقي في هانوفر ليكتب التاريخ الذي بدأه ... ولكنه مات بعد عامين اثنين عام ١٧١٦ (المترجم). E. Encycl. Vol. ٨ PP. ٣٦٩

هذه التأثيرات يحسن بنا أن نتجه بالحديث الآن.

***

[٣]

لقد ارتبط العلم دائمًا ارتباطًا وثيقًا بصناعة الحرب؛ ففي العصور القديمة نجد صور هذا الارتباط واضحة في العصرين الهلنستي والروماني. وعندما نذكر الدفاع عن سيراقوسه (سيراكوز) تثب أمامنا بسرعة مساهمة أرشميدس[*] في هذا الدفاع ، وتوضح النهضة الثقافية والميلاد الاقتصادي لغرب أوروبا بعد القرن الثاني عشر أن هذا الاتحاد والارتباط بين العلم وصناعة الحرب ليس وليد الصدفة؛ ذلك لأن إحياء فن الحرب القديم كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالانتعاش والتطور في المعرفة العلمية الفنية القديمة[١]؛ لقد كان القليلون من العلماء الأوربيين الأولين جنودًا ، ولكن في القرون الأخيرة عمل الكثيرون من العلماء كمستشارين ومعاونين فنيين في الجيش ، لقد سجل الكثيرون من الجراحين العسكريين أسماءهم في سجلات علم الطب والتشريح ، كما حفلت سجلات الجيش بأسماء عدد أكبر بكثير من المهندسين ، أو بمعنى آخر من سادة الآلات الذين كانت مهاراتهم في الهندسة العسكرية أو في المدفعية القديمة والحديثة وفي استخدام العدد الكبير المتباين الصور من الآلات عاملاً لتقدم فن الحرب ، فضلاً عن

(*) أرشميدس (٢٨٧ – ٢١٢ ق.م) أعظم عالم من علماء الرياضيات وأشهر مهندس في التاريخ القديم ولد في سيراقوسه واشتهر باكتشافاته في الميكانيكا والهيدروستاتيكا ، أوجد نظرية «العتلة» كما اكتشف نظرية التوازن بين الجسم الذي يطفو وبين الضغط الهيدروستاتيكي للسائل المزاح ، اخترع عدة آلات عسكرية كان لها فضل تعطيل سقوط سيراقوسه في أيدي الرومان وقتل عندما اجتاح الغزاة المدينة (المترجم). E. Enccl. Vol. ١ PP. ٤٣٦- ٤٣٧.

(١) استندت في هذا الجزء إلى رسالتي للدكتوراة غير المطبوعة والتي قدمت لجامعة هارفارد عام ١٩٤١ بعنوان «العلم والحرب الحديث في العالم القديم».

مساهمتهم في العلم النظري للحرب؛ إن ليوناردو دا فنشي أول أصحاب العقليات الفذة الأصيلة في تاريخ العلم الحديث ليس هو أول ولا آخر أولئك المهندسين العسكريين الأفذاذ الذين يعملون في كل نواحي العلم والمعرفة وإن كان من المحتمل أنه أعظمهم درجة.

لقد وجه الكثيرون من أعظم العلماء في إيطاليا وفرنسا وانجلترا، أثناء القرن السادس عشر وأغلب أيام القرن السابع عشر، انتباههم إلى المشكلات ذات الطابع الفني العلمي من صناعة الحرب، وفي عام ١٦٠٠ وضح في صورة عامة أن خدمات الأخصَّائيين من خارج الجيش يجب أن تدعم بتدريب فني إلى حد ما في محيط ضباط الجيش أنفسهم، وهكذا فإن كل مشروعات التعليم العسكري كالمشروعات التي وضعها هنري الرابع وريشيليو إنما استهدفت بين أغراضها التدريب الفني الأولي[١].

وإن «المجمل» الذي قدمه جاليليو في سجل غير معروف إلا للقليلين يعتبر برنامجًا قويًّا لدراسات رياضية وطبيعية لذاك الذي سيكون ضابطًا في مستقبل حياته؛ وبالرغم من أن الدراسة العسكرية المنظمة ـ إن جاز لنا ألا نذكر شيئًا عن التعليم الفني ـ كان يجب أن تنتظر بدء القرن الثامن عشر فإن كل ضابط كانت له موهبة ما في عصر ڤوبان؛ إما أنه نال حظًّا ما من المعرفة الفنية أو أسف لأنها لم تتوافر له..، إن أحسن ما يوضح به التطور الفني الذي جاء بهذا أن يعرف بالدراسة الموجزة للتطورات التي لحقت بهندسة البناء العسكرية وبالمدفعية.

(١) ابتداء التعليم الفني في فرنسا (١٥٠٠-١٧٠٠) بقلم ف. آرثر طبع باريس عام ١٩٣٨ ص ٣٨-٤٣.

Lés débuts de l'éducataion technique en France ١٥٠٠- ١٧٠٠ PP. ٣٨-٤٣.

لقد واجه علم الهندسة العسكرية في القرن الذي تبع الحروب الإيطالية في عصر مكياڤيللي ثورة عنيفة ، فإن المدفعية الفرنسية باستخدامها أول مدافع الحصار المؤثرة دمرت في سهولة ويسر تحصينات القرون الوسطى العالية الجدران التي كانت حول المدن الإيطالية ، وكان رد الإيطاليين على هذا أن اخترعوا نموذجًا جديدًا للقلاع ، أدخلت عليه التعديلات فيما بعد ، وظل يستخدم في أوروبا كلها حتى فجر القرن التاسع عشر.

وامتاز هذا النموذج الجديد بتخطيطه العام في بناء متعدد الزوايا والأضلاع منتظم الصورة مع «دراوي» للوقاية من كل الاتجاهات وبذلك يتعرض المهاجم لنيران متقاطعة؛ واستكمل هذا الاختراع صورته الكاملة فيما بعد بوساطة المهندسين الإيطاليين في عصر متأخر بأن أقيم في ثلاثة أقسام رئيسية.. ، جدار سميك منخفض مع ساتر «دروة» ثم حفرة واسعة وجدار آخر خارجي ينحدر في ميل تدريجي حتى يصل إلى مستوى الأرض الأمامية وقد يصنع الجدار من الحجارة والأتربة(*).

وأضحى تخطيط هذه القلاع فنًّا يتطلب دراية حسابية وهندسية ، وكان عدد من العلماء الأخصائيين هم وحدهم الذين يعملون في هذا الميدان ، واشتهر من بينهم العالم الرياضي الإيطالي تارتاليا والعالم الهولندي الكبير سيمون ستيفن.. ، وبقيت شهرتهما قائمة بسبب ما أسهما به في الرياضيات

(*) يشبه هذا التنظيم إعداد تحصينات الميدان بالحفر في العصر الحديث وعلى الأخص مسألة الحفرة الوسطى وهي التي تطورت إلى نظرية الخنادق التر عرفت حتى الحرب الثانية وكانت تتسع وتعمق لتعطيل الدبابات مع جعل انحدارها عموديًا في الجانب الأقرب للمدافعين «المترجم».

والميكانيكا.. ، وكان الكثيرون من العلماء يقومون بتدرس فن التحصينات بل إن جاليليو نفسه كان يقوم بتدريس هذا العلم في بادوا[١].

وقد خبر فرنسيس الأول ملك فرنسا مهارة المهندسين الإيطاليين فاستخدم عددًا منهم في جهوده الأولية لتحصين حدوده الشمالية والشرقية ضد تهديد تشارلس الخامس.

وظلت هذه الثورة في البناء مستمرة طوال حكم هنري الثاني ولم تتوقف إلا بسبب الحروب الأهلية فلما عاد العمل من جديد أيام هنري الرابع كان الهولنديون قد بزوا الإيطاليين في هذا الميدان ، وكان المهندسون الفرنسيون أمثال إيرارد دي بارلودوك في متناول اليد ليحلوا مكان المهندسين الأجانب[٢].

كان إيرارد هو مؤسس المدرسة الفرنسية للتحصينات التي يمكن القول بأن عصرها يبدأ من تاريخ طبع كتابه: «التحصينات وتطورها لتكون فنًّا» الصادر عام ١٥٩٤ ، وفي مسار القرن السابع عشر ظهر عدد من أكفأ المهندسين كان بعضهم من العسكريين والبعض الآخر من العلماء المدنيين ذوي الكفايات الممتازة ، ومن الأخيرين يمكن أن نذكر جيرارد يسارج العالم الرياضي الكبير ، وبيير بيتي وچان ريتشر عالم الطبيعة والفلك.

على أننا حين نذكر ڤوبان عندالحديث عن تطور نظرية التحصينات فمن الضروري أن نذكر سيده وأستاذه الكونت بليز دي باجان ، كان باجان

(١) راجع «الأعمال الفنية لجاليليو» بقلم ج . ج . فاهي من كتاب (دراسات في التاريخ وأساليب العلم) إعداد تشارل سينجر عام ١٩٢١ ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) (نبذة تاريخية عن التحصينات) لليفتينانت كولونيل اديجوبات ج ١ ص ١٣-٢١.

Aperçu historique sur les fortificqtions ١ ١٣-١٢.

(١٦٠٤ – ١٦٦٥) رجلاً صاحب نظريات.. ولم يكن قط مهندسًا عمليًّا ، فإنه إلى غاية ما هو معلوم لم يقم بالتوجيه في أي إنشاءات هامة ، وفي الهندسة التخطيطية للإنشاء. كما في العلم نفسه حيث ظن أنه صاحب مكانة أكثر من أن يكون هاويًا وكانت كل مساهمته قد جاءت وهو يجلس في مقعده بمنزله ، ولكنه مع هذا نجح نجاحًا كبيرًا في إدخال أصول جديدة كان لها أهميتها في تخطيط القلاع التي بناها الفرنسيون في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، ولم تكن نظريات ڤوبان إلا صورة منقولة عن باجان مع بعض التحسينات البسيطة ومستخدمة بمرونة تبعًا للتغيير في طبيعة الأرض بين موقع وموقع.

جاءت كل نظريات ڤوبان الأساسية في كتابه: «حصون كونت دي باجان» المنشور عام ١٦٤٥ ، وقامت كل نظرياته على أساس اعتبار أو تقدير واحد أولى للتأثير المتزايد للمدفع في الهجوم والدفاع على السواء(*) ، وكانت الأبراج أو البروج والأجزاء البارزة من التحصينات في رأي ڤوبان هي الأجزاء الأكثر أهمية في التخطيط العام ، وكانت مواقعها وشكلها لا تقرر إلا بعد الاستعانة ببعض القواعد الهندسية البسيطة التي وضعها ڤوبان والتي ترجع إلى طبيعة النطاق الخارجي لا الداخلي للحصن..

ونلاحظ أيضًا في دراسة تطورات المدفعية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر: هذا التعاون بين المهارة الفنية والمطالب العسكرية ،

(*) يجب أن نلاحظ أن الصراع بين المدفع والحصن في التاريخ القديم قد تكرر في الحرب الحديثة في ذات الصورة في السباق بين الدرع والقذيفة بالنسبة للدبابات وغيرها من المدرعات في البر والبحر. كانت قوة اختراق القذيفة هي التي تقرر زيادة سمك الدروع. ثم تبدأ بعد هذا المشكلات الأخرى الخاصة بالسرعة والقدرة على المناورة «المترجم».

وكان كتاب «De la pirotechnia» **لبيرنجو تشو** المنشور عام ١٥٤٠ ـ والذي يعتبر الآن من عمد تاريخ علم الكمياء ـ لوقت طويل المرجع الرسمي للمستحدثات النارية العسكرية ولإعداد البارود ولاستخلاص المعادن التي تصنع منها المدافع.

وكانت نظريات العلم الذي يعني بدراسة حركة المقذوفات هي أيضًا نتيجة دراسات عالمين من أهم العلماء الذين وضعوا أسس الديناميكا الحديثة ألا وهما: نيكولو تارتاليا وجاليليو(*) ، وقد لا يكون من الصعب

(*) جليليو جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢).. من أهالي بيزا ولد بها في ١٥ فبراير عام ١٥٦٤ ، سليل أسرة أصلها من فلونسا ، وقد أظهر موهبة وذكاء مبكرًا مما اضطر أباه إلى أن يحرم نفسه واولاده الآخرين من الكثير ليمكن ابنه جاليليو من إدراك العلم ، وهكذا دخل جامعة بيزا عام ١٥٨١ ، وقد درس الطب في البداية ولكنه لم يلبث أن ترك دراسته ليدرس الفلسفة التجريبية وقد نفعته صلاته بجويدو أو بالدي إذ أمكنه من الحصول على مركز أستاذ الرياضيات في جامعة بدوا.

وقد عاش جاليليو في وقت كان العالم كله قد خرج لتوه من جهل وظلام العصور الوسطى ، وقد تعددت الصور التي عمل فيها جاليليو بدراساته إلى حد أنه بعد قرون كان موضع عجب الناس أن تتوافر كل هذه المعرفة على تعدد صورها لرجل واحد ، فقد درس الفلك والطبيعة والموسيقى والطب والفلسفة وغير هذا من العلوم.

ويرجع إلى جاليليو فضل اكتشاف «البندول» الذي يستخدم في صناعة الساعات ، وكان هو الذي وصل إلى قانون سقوط الأجسام ، ووصل إلى تأثير جاذبية الأرض في سرعة سقوط أو ارتفاع الأشياء ، وكان هو الذي عمل أول تليسكوب جيد الصناعة ، واخترع الترمومتر واكتشف الأقمار الأربعة التي تحيط (بالمشتري) واكتشف البقع الشمسية وأخيرًا كان أكبر مكتشافته أهمية هو أنه وصل إلى معرفة نظام المجموعة الشمسية.

وكان هو أول من قال بأن الأرض وغيرها من الكواكب تدور حول الشمس بينا كان اعتقاد الناس في عصره أن الشمس والقمر وغيرها من الكواكب تدور حول الأرض التي تظل ثابتة في مكانها ، وقد أدى خروج جاليليو بهذه التعاليم أن اكتسب عداوة خصوم أقوياء ، وبالرغم من أنه أرغم في روما أن ينكر تعاليمه علانية إلا أنه كان في=

إثبات وتأكيد أن أسس علم الطبيعة الحديث إنما هي نتاج حل المشكلات الأساسية لعلم حركة المقذوفات.

وقد اتجه تارتاليا إلى نقد ديناميكية أرسطاطاليس تبعًا لتجاربه التي قام بها في البحث عن الصلة بين زاوية النيران ومرمى القذيفة وربما كانت تجارب تارتاليا هذه هي أول تجارب ديناميكية أجريت في موضوع البحث؛ على أن تجاربه وصلت به إلى اكتشاف أن زاوية أقصى مرمى هي ٤٥° ، وكما وصلت به نتائج تجاربه: إلى ما سبب هذا الاستخدام الواسع للمربع أو ربع الدائرة الآلة التي يستخدما أفراد المدفعية.

وكان لجاليليو فضل اكتشاف أن خط مرور القذيفة تبعًا للحال المثالية بإغفال العوامل المعطلة كمقاومة الهواء ـ يجب أن يكون مسطحًا ، وقد أمكن جعل هذا مستطاعًا بما وصل إليه من الأصول الديناميكية الثلاثة وهي:

مبدأ القصور الذاتي ، وقانون حركة الأجسام الساقطة تحت تأثير وزنها ، ومبدأ تركيب السرعات ، فعلى أساس هذه الأصول التي كشف عنها وحققها كخطوات لبحوثه في دراسة علم حركة المقذوفات استطاع أولئك الذين جاءوا بعده أن يقيموا بناء كلاسيكيات علم الطبيعة.

وفي قرابة نهاية القرن السابع عشر كان تقدم العلم والمعرفة عاملاً مرغمًا لإيجاد التجارب الأولى في التعليم العسكري الفني؛ كما كان دافعًا لأن تتولى حكومتا انجلترا وفرنسا رعاية العلم في بلديهما ، ونالت الأكاديمية

=السر يتحدث عن نظريته ويبشر بها وهكذا لم يعرف الناس صدق نظريته إلا بعد أن مات.. وبعد أن ووري التراب في كتدرائية فلونسا. (المترجم). E. Encycl. Vol. ٦ PP. ٢١٥-٢١٦

الملكية في لندن قانونها على يد شارل الثاني عام ١٦٦٢ ، وبعد أربع سنوات ومع تشجيع كولبير(*) كان ميلاد الأكاديمية الملكية الفرنسية للعلوم ، وفي هاتين الهيئتين اللتين أوجدتا أصلًا ومن البداية للمعرفة النافعة أجريت بحوث عدة ذات نفع للجيش والأسطول؛ وقد شغل أعضاء الأكاديميتين بدراسة بحوث في حركة المقذوفات والمفرقعات وخواص ملح البارود، والوسيلة الصحيحة لقياس خطوط الطول في البحر وغير هذا من الموضوعات الهامة للجيش والبحرية.

وكان بين أعضاء الأكاديميتين الانجليزية والفرنسية رجال كفاة من الجيش والبحرية ، وكان العلماء في فرنسا على الأخص يدعون لمشاورتهم في المسائل الفنية التي تخص القوات المسلحة ، وتحت إشراف كولبير قام علماء أكاديمية العلوم بدراسات واسعة للمعاونة في تنفيذ برنامجه للاتساع في

(*) كولبير.. جان بابتسيت كولبير (١٦١٩- ١٦٨٣) سياسي فرنسي ولد في ريمس وقضى أيام فتوته يعمل عند مصرفي، ، واستخدمه مازارين في الكثير من بعوثه السياسية ، وفي عام ١٦٥٩ بدأ بتنفيذ مشروع لإصلاح المالية. الفرنسية ، وخلف مازارين عام ١٦٦١ ، وفي عام ١٦٦٨ كان وزيرًا للحربية والتجارة وأمينًا للقصر الملكي وكان قد عين قبل هذا مراقبًا عامًا.

عني بالمسائل المالية وأصلح نظام جمع الضرائب ما ألغى الضرائب غير العادلة ، ثم وجه انتباهه إلى التجارة والصناعة المحلية ، ولم يقف مشروعه للاتساع البحري عند حد زيادة السفن أو إعداد الكثيرين من رجال البحر ، بل اشتمل أيضًا على إعادة بناء ميناء طولون وروشفورت وتحصين دنكرك وبريست والهافر... ، وكان هو الذي أنشأ أكاديمية العلوم كما أنشأ مرصد باريس ، وأنشأ عددًا من المتاحف ، وجاء بالصور الفنية لمتحف اللوفر ، وقد قامت بينه وبين لوفوا وزير الحربية منافسة عنيفة وقف فيها لويس الرابع عشر إلى جانب لوفوا... ثم بدأ نجم كولبير يأفل حتى مات بتأثير الحمى عام ١٦٨٣ (المترجم).

E. Encycl. Vol. ٤ PP. ٤٥-٦٤.

البحرية.

والأهم من هذا: أنهم وضعوا أسس الرسم الفني الطبوغرافي ، ولهذا فإنه عندما أتم كاسيني(*) في القرن التالي رسم خريطة فرنسا كان مع الجيش الفرنسي لأول مرة خريطة طبوغرافية دقيقة للأرض التي أوكل إليه الدفاع عنها.

***

(*) «كاسيني» إسم أسرة إيطالية جل أفرادها من الفكيين ، وقد عمل أفراد أربعة أجيال من هذه الأسرة في مرصد باريس أشهرهم:
جيوفني دومنيكو كاسيني ١٦٥٢-١٧١٢.
جاك كاسيني ١٦٧٧-١٧٥٨.
سيزار فرنسوا كاسيني دي ثوري ١٧١٤-١٧٨٤ ، وكان سيزار هذا هو الذي بدأ رسم مصورة فرنسا وأتمها بعده ولده جاء دومنيك كونت دوكاسيني (١٧٤٨-١٨٤٥).
«المترجم» E. Encycl. Vol. ٣ PP. ٣٢٩.

[٤]

فإذا ما سألنا: كيف أثرت هذه التطورات في الكتابة العسكرية للقرنين السادس عشر والسابع عشر؟ وعلى أي صورة جاء هذا؟ ، إذا سألنا عن هذا ، كانت الإجابة بسيطة للغاية يمكن إجمالها في كلمات قليلة هي: «أن الكم كان في المتوسط أكبر وأعظم من النوع».

كان تراث الماضي ما زال هو المدرس والمعلم في كل المسائل الخاصة بالأصول العسكرية وبأسرار العبقرية العسكرية؛ كانت تعاليم فيجيتيوس وفروتنينس ضرورية ولا يمكن إغفالها وطرحها جانبًا ، وكان أكثر الكتب شعبية وذيوعًا في ذلك القرن هو كتاب هنري دي روهان: «القائد الكامل» الذي كان في الواقع مقتبسًا من كتاب قيصر: «عن حروب الجول»

ومما لا شك فيه: أن أهم الكتابات المعنية بفن الحرب جاءت في نوعين من الكتب:

أولهما: المؤلفات الأولية الممهدة للطريق في ميدان القانون الدولي.

وثانيهما: المؤلفات الأولية في فن العسكرية .. «في صناعة الجندية».

كان مكياڤيللي هو صاحب النظريات في عصر الحرب غير النظامية ولكن تأثره بدأ يضمحل بدوران القرن السابع عشر ، وكان فرانسيس بيكون هو آخر الذين اتبعوا خطوات مكياڤيللي وأبرزوا آراءه؛ ذلك لأنه من الصعب أن نجد ـ حتى العصر الذي نعيش فيه ـ دفاعًا في غير ما خجل عن الحرب غير المحددة؛ كما يمكن أن نجد بسهولة في كتاب بيكون(*) : على أن

(*) فرانسيس بيكون ... بارون فيرولام فيسكونت سانت البانز (١٥٦١-١٦٢٨) ، ولد=

رد الفعل كان واضحًا في عصر بيكون نفسه ، فالرجال أمثال جروتيوس(*) كانوا يقودون الطريق للهجوم على الاضطراب والفوضى الدولية ويعلمون ضد الحرب غير المحددة التدمير والتخريب ، وأعلن هؤلاء الآباء الروحيون للقانون الدولي أنهم قد وجدوا في قانون الطبيعة الصور الصالحة لقانون الأمم ، وكان المبدأ المركزي؛ كما أوضح تاليران ذات مرة في أسلوب قوي لنابليون هو: «أن الأمم يجب أن تفعل من أجل بعضها بعضًا أحسن ما تستطيع من الطيبات في السلم وأقل ما يمكن من الشر في الحرب»!

ومن السهل أن نقلل من تقدير نفوذ هذه النظريات الكريمة على الحقائق الفعلية التي تحدث في الحرب ، وأن تكرر الصورة السوداء التي قدمها ألبرت سوريل(**) للمعنويات الدولية والأخلاق في عصر النظام

=في يورك هاوس بلندن ودخل جامعة ترنيتي ثم أكمل في كمبردج ، من الفالسفة الانجليز المعدودين ، وقد اشتهر بكتابه (موضوعات) الذي نشر لأول مرة عام ١٥٩٨ وبه عشرة موضوعات فقط ، ولكن تبعًا لتوالي نشره زادت الدراسات التي جاءت فيه حتى كان عام ١٦١٢ فكانت أربعين. وفي عام ١٦٢٥ عندما نشر لآخر مرة في حياته كانت قد وصلت إلى الستين «المترجم». E. Encycl. Vol. ١ PP. ٧١٦.

(*) جروتيوس هوجو ويعرف باسم «هويج فان جروت» (١٥٨٣-١٦٤٥) هولندي الأصل ومن رجال القانون ولد في ديلفت وتعلم في ليدن ، التحق بخدمة السلك السياسي وقد أثار غضب البرنس موريس لدفاعه عن حقوق الأرمن في العبادة فقبض عليه وحكم بسجنه مدى الحياة ولكنه استطاع الفرار إلى باريس بمعاونة زوجته حيث أجرى عليه الملك لويس الثالث عشر رزقًا (١٦٢١) ، وظهرت قوة عارضته في القانون بمؤلفه القيم (De Jure Belli et Picis) ، واختير سفيرًا للسويد في البلاط الفرنسي ثم عاد إلى ستوكهلم وبقى بها حتى مات وله مؤلفات عدة في التاريخ والقانون ، نشر موجز لحياته طبع ليدن عام ١٩٢٥ بقلم تيرمولين (المترجم). E. Encycl. Vol. ٦ PP. ٦١٧-٦١٨.

(**) سوريل مؤلارخ فرنسي ولد في هونفليد عام ١٨٤٢ وتوفى عام ١٩٠٦ أهم مؤلفاته (أوروبا والثورة الفرنسية) (المترجم).
معجم لاروس طبعة عام ١٩٤٦ ص ١٦٩٧.

القديم ، على أن الذي حدث هو أن قواعد القانون الدولي قد كان لها تأثير لا يمكن إنكاره على صورة الحرب قبل ختام القرن السابع عشر[١] فإذا لم تضع هذه حدًّا للسياسة المعدومة المعنويات فإنها على الأقل قد وضعت «الحدود» أو الأصول لإدارة الحرب بأقل ما يمكن من المحرمات والشرور ، وبذلك جعلت الحرب في القرن الثامن عشر عملية إنسانية نسبيًّا أحسن تنظيمها.

كانت هذه القواعد معروفة تمامًا للقادة وكانوا يتبعونها بدقة؛ مثال ذلك التعليمات الخاصة بمعاملة وتبادل أسرى الحرب ، ومعاملة غير المتقاتلين ، وترتيبات تقابل القادة أو مندوبيهم في ميدان العمليات ، وترتيبات الهدنة ، وكذلك المسائل الخاصة بالإتلاف أو فرض الضرائب عن المناطق المحتلة وأساليب الحصار..

لقد كان الاتجاه كله يستهدف حماية الأشخاص وحقوقهم في وقت الحرب وبذلك يمكن الإقلال من شرور الحرب.

أما في الجانب الآخر: جانب الكتب التي جاءت عن الفنون العسكرية فإنه لا يوجد كتاب كان له تأثيره العظيم أو نال شهرة كبيرة كما نالت كتب سبستيان لابريستر دي ڤوبان المهندس العسكري الكبير في حكم لويس الرابع عشر فإن مكانته كانت كبيرة في القرن الثامن عشر ولم يخفت ضوؤها حتى بعد عصر نابليون[٢] ، ومع هذا فإن الكتابات التي تركها

(١) راجع (العصابات المسلحة ١٧٩٣ـ ١٩٣٩) . لهوفمان نيكرسون طبع نيويورك عام ١٩٤٠ ص ٣٤-٤٠.

(٢) راجع «شيفالييه دي بروكور» طبع باريس عام ١٧٤٨ ج ٢ ص ٢٦٢-٢٦٣ ، وقد جاء في الكتاب عن تعليم النبلاء بأن مؤلفات خمسة من كبار الكتاب يجب أن يقرأها الطالب ، وهؤلاء الكتاب الخمسة هم :

Feuquieres و Santa Cruz, Rohan, Vuban, Monrecuccoli.

ثوبان للقرن الثامن عشر كانت قليلة وفنية لدرجة كبيرة وتتكون فقط من دراسات في صناعة الحصار والعمل في الدفاع عن الحصون ، ثم حديث قصير عن الألغام[١] ، فهو لم ينشر شيئًا عن الهندسة العسكرية ، ولم يكتب شيئًا منظمًا عن الاستراتيجية ولا عن فن الحرب من ناحية عامة ، ومع هذا فإن تأثيره في كل هذه النواحي ليس منكورًا ، وقد ظهر هذا كله في كتابات بعض تابعيه ومريديه إلا أن هذا لم يحل دون خطأ تفهم الكثير من آرائه ، بل وإغفال هذه الآراء لوقت طويل بعده.

والواقع أنه يجب أن يذكر فيشكر هذا الجهد الذي بذله الباحثون في القرنين التاسع عشر والعشرين فتمكنوا من نشر جزء كبير من رسائل ثوبان ومخطوطاته. واستطاع هؤلاء الباحثون أن يتعقبوا سائرها بالدراسة والتحليل مما مكننا من أن نصل إلى تفهم أوضح لحياة ثوبان وآرائه أكثر مما مكننا من هذا المعجبون به في القرن الثامن عشر.

لقد زاد وضوح أثر ثوبان في ضوء الدراسات الحديثة بدلاً من أن يخفت ، لقد رأينا تعاليم ثوبان توضح وتسجل ، رأيناها تستكمل في الكثير من النقاط الهامة بدلاً من أن نراها تدمر وتطوى في زوايا النسيان.

***

(١) كان كل ما طبع من كتاباته في حياته دراسة في المشكلات الإدارية بعنوان (المدير العام للتحصينات) وأعيد طبعها في باريس عام ١٧٢٥ ، ثم (Dixme Royale) الذي طبع في لاهاي عام ١٧٠٧ وظهرت طبعة أخرى قبل وفاته لإيضاح أساليبه في إنشاء التحصينات ، وقد طبع كتابه .Traite de le défence des places بوساطة جومبرت في باريس عام ١٧٦٩ ، ولكن لم تظهر طبعة كاملة منه حتى عام ١٧٩٥.

[٥]

على أن قصة ڤوبان تتطلب مزيدًا من الإيضاح ، فكيف أن مهندسًا مهما كانت درجة مهارته ومهما كانت درجة إخلاصه لعمله يمكن أن يرتفع بسرعة كبيرة ليصل إلى مصاف الأبطال القوميين؟ ولماذا كانت كتاباته الفنية عن الحصار والدفاع عن القلاع والحصون كافية لتضعه في مصاف الكتاب العسكريين ذوي النفوذ الكبير؟

والواقع أن الإجابة على هذين السؤالين وغيرهما مما يدور في فلكهما وحواليهما ليست من العمق إلى الحد الذي لا يمكن إدراكه؛ فإن كتابات ڤوبان كانت هي المراجع الرسمية لما اعتبره القرن الثامن عشر من الأهمية بمكان إن لم يكن هو الأكثر أهمية من كل ما عداه من الموضوعات العسكرية ، ففي أواخر أيام القرن السابع عشر وعلى طوال أيام القرن الثامن عشر تبدو لنا صناعة الحرب وكأنها لا شيء أكثر من سلسلة متلاحقة لا نهاية لها من أعمال الحصار ، وكانت هذه دائمًا هي العمليات البارزة في كل حملة حربية ، وعندما لا يكون تدمير قلعة للعدو هو الغرض الأساسي ـ كما كان هذا في الغالبية؛ فإن عملية الحصار تكون هي العملية الأولية اللازمة لغزو أرض العدو ، وكانت أعمال الحصار تتكرر بدرجة أكبر من حدوث المعارك في الميدان المكشوف..؛ وكانت الجيوش تبدأ عمليات الحصار بسرعة وفي تأهب تام لها في الوقت الذي تتجنب فيه المعارك..؛ فإذا لم يكن بد من خوض غمار المعركة فإن هذا كان يحدث تبعًا للحاجة إلى إنقاذ قلعة محاصرة أو لإتمام الإحداق بقلعة يراد حصارها...؛ وكان التصور الاستراتيجي لكل القادة ـ عدا العدد القليل منهم ـ يدور في نطاق هذه البديهيات والأصول

المقبولة لحرب الحصار؛ وفي عصر تقبل أهله دون ما شرط أو تحفظ هذه العقيدة للأفضلية الاستراتيچية التي للحصار فإن مؤلفات ڤوبان كانت ضرورية لا يمكن إغفالها وتركها جانبًا ، وكان من الضروري أن يكون لاسمه تأثير سحري طوال ذلك العصر.

ومع هذا فإن جزءًا صغيرًا فقط من المكانة والشهرة اللتين لحقتا بڤوبان كان مرجعه إلى كتاباته الفنية ، وكان الذي يدفعه دفعًا ليكون في أذهان الناس دائمًا هو خلقه القويم وحياته الطويلة كخادم مخلص للدولة ، ومساهمته المتعددة الصور في التقدم العسكري لخارج نطاق تخصصه الفني ، ثم اهتمامه الإنساني برفاهية الناس عامة.

وكان ڤوبان من البداية مثال الموظف الذي اكتسب إعجاب الناس مع بساطة أصله وأمانته وشجاعته الشخصية وإخلاصه للحكومة حتى بدا وكأنه صورة متكررة نتيجة تناسخ الروح والجسد عن أحد خدام الدولة المخلصين في أيام جمهورية روما؛ ولقد قال «فوتتنل» في تأبينه واصفًا إياه بأنه كروماني قديم اغتصبه قرن لويس الرابع شعر من أكثر أيام جمهورية روما إزدهارًا ومجدًا ، وكان في رأي ڤولتير «أكمل المواطنين» ، ولم يقنع سان سيمون بأن يصفه بكلمة «وطني»[١] الرومانية التي طبقت عليه لأول مرة في معناها الحديث.

ففي ڤوبان الموظف المحترم والمنظم العبقري والمجدد النابه يبدو وكأنه قد تمثلت كل الظواهر التي تجمعت بمجهودات عدد لا حصر له من الأشخاص لتكوين الدولة الوطنية الجديدة.

(١) «الرسالة الخاصة غير المطبوعة المرسلة إلى المركيز دي بويزييل ، ١٦٩٩ - ١٧٠٥» مع مقدمة وملاحظات بقلم «هيرفوادي لا ندول» طبع باريس ١٩٢٤ ص ١٦-١٧.

والأهم من هذا هو أن المعرفة الفنية التي توافرت لڤوبان ومهارته في الرياضيات التطبيقية وعضويته لأكاديمية العلوم ، كل هذا إنما يشير إلى أهمية المعرفة الفنية لرفاهية الدولة؛ إن فلسفة ديكارت العقلية ودور العلوم التطبيقية في المجتمع في الحرب والسلم على السواء ، ثم الروح الهندسية التي كانت طابع العصر ، هذه كلها كانت قد تجسمت في الرجل واضحة مرئية في الإنشاء الضخم للقلاع التي وضع تخطيطها ورسومها.

***

[٦]

وحياة ڤوبان في الواقع أطول وأكثر حركة ونشاطًا من أن تجمل في دراسة قصيرة موجزة كهذه التي نحاولها اليوم.

ومن النادر: أن كان بين وزراء وجنود لويس الرابع عشر من كانت حياته طويلة نشطة كما كانت حياة ڤوبان ، فقد دخل خدمة الملك تحت رياسة مازاران وهو في فجر العشرين من عمره ، وكان ما زال يعمل في الميدان حتى شهور قليلة من وفاته في الثالثة والسبعين من عمره ، وفي طوال هذه السنوات الخمسين من الجهد المستمر الذي لا يهدأ ، أدار ما يقرب من خمسين عملية حصار ووضع التخطيط لأكثر من مائة قلعة وتحصينات للمواني.

جاء ڤوبان من الطبقة التي تقع بين طبقة البرجوازيين وطبقة صغار النبلاء ، وكان سليل رجل من الذين يعملون في الأعمال القضائية محررًا للعقود ، وصل في منتصف القرن السادس عشر إلى تملك أرض منحت له في مقابل عمل قام به.

وولد ڤوبان في سان ليجيه Sàint Léger عام ١٦٣٣ وتلقى تعليمًا غير كامل ـ بعض المعلومات السطحية في التاريخ والرياضيات والرسم ـ في «سيميرآن اكسوا» ، وفي الجيش كطالب عسكري تحت إمرة كوندي(*) الذي

(*) كوندي ، «لويس الثاني دي بوربون ، البرنس دي كوندي» (١٦٢١-١٦٨٦) قائد فرنسي موهوب ، ولد في باريس واستهواه الأدب إبان دراسته العسكرية فكان لهذا أثره فيه في أواخر أيام حياته ، هزم الأسبان في ركروا عام ١٦٤٣ واستولى على دنكرك للفرنسيين عام ١٦٤٦ ، وقد رقف إلى جانب الملك ضد البرلمان والنبلاء وأعاد لويس الرابع عشر إلى باريس عام ١٦٤٩ ، وقد خيل له أن مازاران يسيء معاملته ، على أن هذا لم يلبث أن=

كان عندئذ ثائرًا على الملك ، ثم ناله ما نال كوندي من عفو فالتحق بخدمة الملك عام ١٦٥٤ حيث قام بخدمة ممتازة تحت إمرة الشيڤالييه دي كليرڤيل ، وكان رجلًا ذا مواهب عادية ويعتبر أكبر مهندسي فرنسا في ذلك الوقت ، وبعد عامين اثنين نال ڤوبان إجازة علمية هي إجازة مهندس ملكي عادي ، وتولى في إثر هذا قيادة سرية مشاة في آلاي الماريشال دي لافرتيه.

وفي المدة بين انتهاء العمليات العدائية ضد أسبانيا عام ١٦٥٩ وأول حروب لويس الرابع عشر للغزو في عام ١٦٦٧ كان ڤوبان يعمل باستمرار باذلًا كل جهد في إصلاح وتحسين القلاع الفرنسية تحت إشراف دي كليرڤيل.

وفي عام ١٦٦٧ هاجم لويس الرابع عشر الأراضي المنخفضة ، وفي هذه الحروب القصيرة الأمد أبرز ڤوبان موهبته كرجل من رجال صناعة الحصار وفي غير هذا من النواحي العسكرية إلى حد أن لوڤوا نبه دي كليرڤيل إلى هذا وعين ڤوبان قوميسيرًا عامًّا لكل الأعمال الهندسية في إدراته.

=تحقق فقد سجنه ما زاران عام ١٦٥٠ ولكن بعد عام واحد أطلق سراحه فسار إلى باريس وحارب معركة غير حاسمة في ضاحية سانت انطوان ولم يلبث الكثيرون من أنصاره أن انفضوا من حوله فانضم إلى الأسبان الذين ولوه القيادة العامة لجيوشهم.

وحارب كوندي مع الأسبان في آراس عام ١٦٥٤ وفي ڤلانسيين ١٦٥٦ وفي كامبري ١٦٥٧ وهزمه تورين عام ١٦٥٨ في معركة «دن» وأعيد إلى منصبه في فرنسا بعد صلح البرنيز بين فرنسا واسبانيا عام ١٦٥٩.

وحارب كوندي الهولنديين بعد ذلك في سينيف عام ١٦٧٤ وهزم برنس أورانج الذي عرف بعد ذلك باسم ويليام الثالث ملك انجلترا ، وفي العام الثاني طرد مونتميال من الألزاس وبعد أربع سنوات تقاعد في شانتييه حيث عاش في صحبة موليير وبويلو ولا برويير وغيرهم من الأدباء وتوفى في فولتينبلو (المترجم) E. Encycl. Vol. ٤ PP. ١٤٩.

على أن الكسب الذي جاءت به هذه الحرب قد وجه ڤوبان في مشروعه الكبير للبناء ، فإن المدن المهمة والتي تعتبر النقط الأمامية للتوسع أمثال بيرج وفيرن وتورنيه وليل ، بل والكثير غيرها من المواقع الهامة حصنت تبعًا لما سمى «طريقة ڤوبان الأولى» ، هذه الطريقة التي سيجيء شرحها فيما بعد.

كان هذا إذن هو الصورة المستمرة لحياة ڤوبان في خدمة لويس الرابع عشر ، إشراف مستمر وإصلاح وإنشاءات جديدة في وقت السلم ، فإذا جاءت الحرب تجددت عمليات الحصار وبدأ العمل لتدمير قلاع العدو وتحصيناته ، ثم إسراع في تعجل المحموم للإنشاء مرة أخرى في فترة السلم التي تجيء وراء هذه الحرب ، وهكذا حركة دائرة مستمرة عاش طوالها ڤوبان متنقلاً حتى السنة التي مات فيها ، كان يسافر من أحد أطراف فرنسا إلى الطرف الآخر على ظهر جواده.. وفي السنوات الأخيرة من عمره كان يسافر في عربة مغلقة صغيرة يجرها جواد واحد.

وكانت هناك فترات قصيرة جدًّا للراحة ، وقف القليل منها لزوجته وللمزرعة التي امتلكها عام ١٦٧٥ ، وكان يتجنب الإقامة في البلاط؛ ولهذا فإن إقامته في باريس أو فرساي لم تكن لتطول ، بل كانت دائمًا أقصر ما يمكن ، كان يقضي أغلب لياليه وأيامه في فنادق قرى الحدود وفي تنفيذ واجباته الضخمة بعيدًا عن أماكن الترفيه والترويح عن النفس. ويقضي اللحظات التي ينطلق فيها بعيدًا عن أعماله الهندسية في كتابة مراسلاته الخاصة بعمله وكتاباته الأخرى ، وظل وثيق الصلة بلوفوا يُمْطِره وابلاً من خطاباته وتقاريره.

وكأن هذا لم يكن كافيًا فوجه ڤوبان عنايته إلى عدد من المشكلات

المدنية والعسكرية لم تكن لها صلة مباشرة بالعمل الذي تخصص له ، وقد ناقش بعض هذه المشكلات في رسائله كما جاءت دراسات البعض الآخر بين مذكراته الضافية التي ملأت اثني عشر مجلدًا مخطوطًا.

والواقع أنه عالج في هذه المذكرات العديد من الموضوعات المتباينة كان بعضها فنيًّا وبعضها غير هذا؛ ولكنها في جملتها تنطبق على ما يقوله ڤولتير: «إن الرجل ليشغل كل يوم بموضوعات بعضها نافع وبعضها قليل النفع ولكنها في جملتها غريبة من كل الوجوه..»(١).

على أنه بالإضافة إلى مناقشة الموضوعات العسكرية والبحرية ، وبالإضافة إلى كتابة التقارير الضافية عن الطرق المائية الداخلية ، وعن قناة لانجدوك الواصلة إلى المحيط كتب ڤوبان عن الحاجة إلى برنامج لزراعة الغابات وعن الوسائل المستطاعة لإصلاح حال المستعمرات الفرنسية في أمريكا ، كما كتب ما يعتبر سابقًا لإيجاد نابليون وسام «الليچيون دي أونير» إذ تحدث عن فوائد تكوين «أرستقراطية» أساسها الموهبة والمعرفة وتتسع هذه لكل الأفراد من كل الطبقات ، بدلاً من النبالة التي لا معنى لها والتي تجيء عن طريق المولد والوراثة أو عن طريق المنح والعطاء.

وتكشف الصفحات التي رسمها بعنوان «في لحظات الخمول» عن أصالة وإن كانت في الواقع لا تتمشى مع ما أطلقه عليها ، فهي بالنسبة لبعض ما جاء فيها ليست أكثر من ملاحظات جمعها في طوال رحلاته داخل أرض فرنسا من الشمال للجنوب ومن الشرق للغرب.. ، بينا هي بالنسبة للبعض الآخر دراسات طويلة ضافية ، ومع هذا فإن الذي يعطي هذه

(١) فولتير... «قرن لويس الرابع عشر» الفصل الحادي والعشرين.

الصفحات لونًا من التماسك والتماثل إنما هو الطابع الفني الذي تكشف عنه والروح الإنسانية المتوافرة فيها ، وتصور هذه الكتابات.. كما تصور حياة ڤوبان نفسه ما سبق أن قلته: من أن التفهم الفني أو الإدراك العلمي كان هو ينبوع ومورد كل عوامل الإصلاح والتجديد في القرن السابع عشر.

كانت كل مقترحات ڤوبان تستند إلى ملاحظات وتجارب مباشرة؛ فإن أسفاره المتواصلة للقيام بواجبات وظيفته قد وفر له فرصة لا مثيل لها لمعرفة بلاده والتعرف على احتياجاتها ، ثم إن عقله المتيقظ قد قاده ـ في إصرار غير معروف إلا للذين يعملون في جمع المعلومات الإحصائية ـ إلى حشد من الحقائق عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمناطق التي عمل فيها ، كما أن توجيه عقله الفني قد مكنه أن يجعل حتى من ملاحظاته العاجلة صورة لها كيانها الملموس.

وتعاوننا هذه الاعتبارات للإجابة على أكثر من سؤال ، هل يستحق ڤوبان لقب «العالم»؟ أم أنه كان مجرد جندي وبناء مع معرفة رياضية وحسابية؟ وهل كانت عضويته لأكاديمية العلوم في عام ١٦٩٩ مجرد تشريف لموظف عام؟ وهل كان ڤونتينل قد اضطر بسبب هذا إلى أن يتحدث عنه في إحدى خطبه الخالدة لتأبين رجال العلم؟

الواقع: أن كل ما وصل إليه ڤوبان إنما كان في العلم التطبيقي وفي الرياضيات التطبيقية البسيطة؛ فهو لم يكن عالمًا ممتازًا في الرياضيات والطبيعة كالمهندس العسكري الفرنسي «لازار كارنو» الذي جاء بعده ، وهو لم يسهم في الهندسة الميكانيكية بنظريات علمية كما فعل كولومب معاصر كارنو ، وهو لم يخترع عربة بخارية كما فعل كينيو. وفيما عدا تخطيط القلاع فإنه من النادر أن قام ببحث له طابعه العلمي الخاص ، وكان كل ما

أسهم به في الهندسة هو أنه قام بدراسة النسبة بين العدد والحجوم للجدران الثابتة في الحصون[١].

والشيء الرئيسي الذي وصل إليه ڤوبان وله طابعه العلمي الأصيل هو ما حاوله من أن يمتد بطريقة «الكم» إلى ميادين لم يكن هناك من يجرؤ على استخدامها فيها إلا معاصروه الإنجليز.. ، ولكن ڤوبان كان في الحقيقة من الباحثين الأولين في الظواهر الجوية المنظمة وهو شرف يشاركه فيه روبرت هوك[*] ، كما أنه كان من الباحثين الأولين في علم الإحصاء ، وكان الوحيدان اللذان ينافسانه في هذا هما: جون جرونت والسير ويليام بيتي[**][١] .

(١) «تاريخ العلوم الفنية والفلسفية في القرن الثامن عشر» لوولف ١٩٣٩ ص ٥٣١-٥٣٢ «علم المهندسين» لبرنارد نورست ١٧٣٩ الكتاب الأول ص ٦٧-٧٩.

(*) روبرت هوك (١٦٣٥- ١٧٠٣) ـ ولد بجزيرة وايت وعمل في معمل روبرت باول ، وفي عام ١٦٦٤ كان يدرس الهندسة في جامعة جريشام ... وفي عام ١٦٧٧ عين سكرتيرًا للجمعية الملكية للعلوم ، وقد قدم دراسة للجمعية في عام ١٦٨٤ أوضحت أنه وصل لنظرية (التلغراف) البرق إلى مدى أكبر مما وصل إليه الفرنسي جيلوم امونتتون ، ومع هذا فإن التلغراف لم يستخدم إلا بعد هذا بقرن كامل من الزمان ، ومن بين ما وصل إليه روبرت إختراعه لمضخة هوائية مزدوجة الأنابيب. كما اخترع البارومتر البحري. وزمبرك التوازن في الساعات وغير هذا.

ولروبرت قانون في علم الطبيعة يحمل اسمه ، وقد قام بينه وبين نيوتن صراع عنيف سببه أنه وصل إلى بعض المبادئ والأصول التي حققها نيوتن ونسبها لنفسه. E. Encycl. Vol. VII p. ٢٢٥.

(**) ويليام بيتي «١٦٢٣- ١٦٨٧» من رجال الإحصاء وعلماء الإقتصاد السياسي ولد في هامبشاير... ودرس في كلية الجزويت في كان ، ورجع إلى بريطانيا ليعمل في البحرية ، وفي عام ١٦٤٩ نال إجازة الطب من أوكسفورد ، وفي عام ١٦٥٢ عين طبيعًا للجيش في إيرلندة ، ثم أتم دراسة الإحصاء وله مؤلفات عدة في علم الإحصاء أهمها:

١- (ملاحظات على الناس والأشياء في إيرلندة) المنشور ١٦٦٩.

٢- (دراسة عن تضاعف الجنس البشري) المنشور عام ١٦٨٢.=

وقد وضحت عادته الإحصائية في الكثير من التقارير العسكرية والهندسية التي كتبها ، *والواقع* أن الكثير من هذه التقارير مليء بتفاصيل ضافية عن ثروات وموارد وسكان بقاع كثيرة من فرنسا.

وكان ڤوبان يتطلب هذه الدقة الإحصائية المجهدة حتى من معاونيه التابعين لإدارته ، وفي رسالة له إلى هي دي كلنيي ـ الذي كان لوقت ما مديرًا للتحصينات على الحدود الشمالية الغربية من دنكرك إلى إيبر ـ أبدى ڤوبان غضبه للمعلومات الناقصة في التقارير التي بعث بها إليه عن تلك المنطقة ، وقد وجه كلنيي Caigny إلى أن أن يبعث له بخريطة لتلك المنطقة وأن يصف له تفصيليًّا كل الطرق المائية التي فيها ووسائل الإمداد بالخشب مع إيضاح تاريخ آخر مرة قطع فيها أشجارًا من المنطقة ، وأن يبعث له أيضًا بإحصاءات كاملة عن السكان مقسمين تبعًا للسن والجنس والحرفة والمكانة الاجتماعية ، وبالإضافة إلى هذا طلب ڤوبان من كالنيي أن يبعث إليه بكل الحقائق التي يستطيع جمعها عن الحياة الاقتصادية للمنطقة[٢]؛ وبهذه المعلومات المجهدة التي قد تكون خارج نطاق عمله كمهندس عسكري كان ڤوبان يعمل ليمد الشئون المدنية بذات الطابع الدراسي النقدي وذات الصورة من المنطق والتنظيم والكفاية العلمية التي أوجدها في دراساته لكل المسائل العسكرية.

***

=٣- (الحساب الإقتصادي) المنشور عام ١٦٩٠.

(١) كانت دراسات ڤوبان في علم الظواهر الجوية تستند إلى دراسة عن (سقوط المطر) قدمها لأكاديمية العلوم. بيليدور الكتاب الرابع ص ٨٧-٨٨.

(٢) «تاريخ ڤوبان» لجورج ميتشيل ١٨٧٩ ص ٤٤٧-٤٥١.



سير العمل في إنشاء التحصينات على الحدود الشمالية الغربية

[٧]

وكان ڤوبان واحدًا من أكثر المصلحين العسكريين في ذلك القرن صلابة في التفكير ومتابعة للبرنامج الذي يرسمه لعمله مع الإصرار على متابعة العمل مهما كانت العقبات التي يلقاها في طريقه؛ وتمتلئ رسائله وملاحظاته بالكثير من آرائه الصريحة ومقترحاته للإصلاح ، وقد لا يوجد إلا القليل النادر من نواحي الحياة العسكرية ومن نواحي الفن العسكري.. ومن المشكلات العنيفة في التنظيم الحربي التي لم يتعرض لها بالدراسة والمناقشة مقدمًا مقترحات خصبة عميقة التفكير موفورة التفاصيل كما يقدم تصويرًا شاملاً كاملاً لإعادة التنظيم[١].

وكان إدماج مهندسيه في وحدة واحدة تشملهم هم والضباط والجنود ولها كسوتها أو زيها الخاص ، من المسائل التي كافح من أجلها طوال حياته وإن كان لم يحصل في هذا إلا على القليل من النجاح[٢]؛ ولكن توصياته آتت ثمارها ولا شك في القرن التالي ، كما كان أيضًا لجهوده ومحاولاته للتعليم الفني لضباط وجنود هذا السلاح نصيبها من النجاح..

لقد امتدح ڤوبان دون تحفظ مدارس المدفعية التي أنشئت في أواخر عهد لويس الرابع ، وبالرغم من أنه لم ينجح في أن يوجد مدارس مماثلة للمهندسين إلا أنه استطاع أن يوجد نظام امتحانات لاختبار صلاحية الطلاب المتقدمين لنيل إجازة الهندسة العسكرية ، كما قام بعدة جهود لتأكيد

(١) «ڤوبان» بقلم ب . لازار Lazard (١٦٣٣-١٧٠٧) طبع عام ١٩٣٧ ص ٤٤٥ -٥٠٠.

(٢) «لويس الرابع عشر ولوفوا وفوبان وتحصينات شمال فرنسا» بقلم شوتار و«السجلات العامة لجماعة فلاما دو فرانس» ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ص ١٦-٢٠.

أنهم يحصلون على الإعداد الكافي بوساطة مدرسين أخصَّائيين.

وقد عني بدراسة إصلاحات المدفعية على أساس أنه أخصَّائي في فن الحصار؛ وكانت دراساته وتجاربه في هذا الميدان كثيرة ، وقد قام بتجربة نقل المدافع الضخمة على زحافات ، وكشف عن الخطأ في المدافع المصنوعة من البرونز التي كانت تستخدم يوم ذاك ، وحاول جهده أن يحث الجيش على استخدام الحديد كما يفعل في الأسطول ، وقام بتجارب كثيرة وإن لم تكن مرضية ناجحة لصنع هاون ضخم جديد يقذف كرات من الأحجار ، وأخيرًا اكتشف النيران المسطحة خط المرور واستخدمها لأول مرة في حصار فيليبسبورج ، وقد كانت القذيفة بعد اصطدامها بالغرض تسير هنا وهناك مما يبعث بالرعب إلى أيِّ مجموعة من الجنود أو أطقم الأسلحة التي تكون في منطقة قريبة من منطقة الغرض الأول الذي تصطدم به القذيفة..

وقد وجد ڤوبان مكانًا في مراسلاته وملاحظاته ليقترح عددًا كبيرًا من الإصلاحات الأساسية للمشاة.. بل وللجيش في جملته ، وكان ڤوبان هو أول من اخترع سِنانًا «سونكي» يمكن تقبلها للمشاة وفي عام ١٦٦٩ كتب إلى لوڤوا بقوة ملحًّا في استخدام البنادق وإلغاء استخدام الحراب الثقيلة وعاد بعد هذا بقليل فاقترح استبدال الحربة «بالسونكي» التي تثبت إلى جانب ماسورة البندقية بقفل وبذلك يمكن إطلاق البندقية و« السونكي» مثبتة فيها.

وشغل ڤوبان بأحوال جنوده والترفية عنهم ، كما عني بإعداد ما يحتاجونه من معدات ، وعمل لزيادة تحسين وسائل التجنيد ودفع أجور الجنود ، وإليه يرجع إلى حدٍّ ما ما حدث بعد صلح إكس لا شابل[*] من

(*) صلح إكس لاشابل ، إكس لاشابل وإسمها الآن «آخن» في أرض الرين بألمانيا ، وعلى مسافة أربعين ميلاً غرب كولون ، وقع فيها الصلح عام ١٦٦٨ لإنهاء الحرب الفرنسية=

الإقلال من إنزال الجنود في مساكن المدنيين بل أعدت لهم معسكرات[١] ، وقد وضع ڤوبان نفسه تخطيط هذه المعسكرات الخاصة وشيد جانبًا منها في مناطق الحدود ، ثم في المناطق المغزوة حديثًا.

ولم يقم ڤوبان بدراسات منتظمة في الإنشاءات البحرية ، ويبدو أن كل ما كان يعرفه عنها قد درسه عن «كلارڤيل» الذي كان ماهرًا في النوع من الإنشاءات[٢] ، وكانت أول جهوده في طولون؛ حيث عمل في تحسين منشآت الميناء ، ولكن أحسن ما عمل كان في ميناء دنكرك ، ودرس بعناية السفن ذات السطح الواحد التي تسير بالشراع والمجاديف ومد من استخدامها من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطي؛ حيث يمكن أن تستخدم كسفن الدوريات والمراقبة ، أو كستار خفيف الحركة أمام السفن الثقيلة التي تقف قريبة من الساحل؛ وكما يمكن أن تستخدم كقوة سريعة للهجوم على جزر أوركنيز أو حتى على الساحل الإنجليزي..

ويرتبط وثيقًا بدراساته هذه دفاعه عن السباق الحربي ، هذا السباق الذي كان هو الاستراتيچية الوحيدة بعد انهيار قوة فرنسا البحرية والتي بناها كولبير بجهود مضنية طويلة.

***

=الإسبانية ، وقد وقع أيضًا فيها الصلح عام ١٧٤٨ لإنهاء حرب الوراثة الإسبانية الثانية ، كما عقد فيها مؤتمر عام ١٨١٨ لتنظيم أوروبا بعد انتهاء حروب نابوليون.

(١) بيليدور Bélidor الكتاب الرابع ص ٧٣.

(٢) لازار ذات المرجع ص ٥٠١ – ٥١٤ ، راجع أيضًا (تاريخ البحرية الفرنسية) لرونسيير طبع عام ١٩٣٢. ص ١٦٤-١٦٩.

[٨]

وكانت أهم مساهمة لڤوبان في فن صناعة الحرب ـ كما كان متوقعًا ـ في نطاق تخصصه أي فن الحصار وفن إنشاء التحصينات ، وكانت كراهية ڤوبان لسفك الدماء ـ بالإضافة إلى الروح الجديدة للاعتدال في الحرب هذه الروح التي كانت مظاهرها قد بدأت تبدو في ذلك الوقت ـ هي الدافع لتجديده في فن الحصار ، هذا التجديد الذي استهدف تنظيم الاستيلاء على الموقع المحصن مع تقليل خسائر القوات التي تقوم بالحصار؛ ***والواقع*** أنه قبل أن يصل إلى الكمال بطريقة «المتوازيات» والتي ربما لا يكون هو مخترعها أصلاً ، كانت عمليات الهجوم على التحصينات الثابتة الدائمة تتم بثمن فادح يتحمله المهاجمون[١] ، كان المهاجمون يستخدمون الخنادق والسواتر في أسلوب غير منظم وكان المهاجمون يقذفون بالمشاة عادة ضد النقط التي يظن أنها ضعيفة لن تحتمل ضغط الهجوم إلا أن هذا كان يحدث في صورة تعرض جنود المشاة لنيران فتاكة من المدافعين.

وكانت طريقة ڤوبان للهجوم ـ الطريقة التي اتبعت مع القليل من التعديل أثناء القرن الثامن عشر ـ تسير في إجراءات منتظمة دون ما عجلة؛ فإن المهاجمين يحشدون جنودهم ويجمعون عتادهم في نقطة مستترة وراء سواتر طبيعية أو صناعية وتكون لخارج مرامي أسلحة المدافعين ، ومن هذه النقطة يبدأ المهندسون حفر خندق يتجه نحو الحصن؛ ويسير العمل تدريجيًا وببطء فإذا ما تقدم الحفر لمسافة ما بدئ في حفر خندق آخر عميق في موازاة

(١) لإمكان معرفة الأساليب القديمة راجع جاستون زيلر «تنظيم الدفاع عن الحدود الشمالية والشرقية في القرن السابع عشر» طبع عام ١٩٢٨ ص ٥٤-٥٥.

نقطة الهجوم المقبل ويكون هذا الخندق عموديًّا على خندق الاقتراب ويطلق عليه اسم «المتوازي الأول» ، وينقل الجنود والعتاد إلى هذا الخندق العميق لتكوين قاعدة لأسلحة القتال ، ثم يبدأ من جديد حفر خندق آخر للاقتراب نحو الحصن في خطوط ملتوية وبعد مسافة أخرى يحفر «المتوازي الثاني» ، ثم تتكرر العملية من جديد بحفر خندق اقتراب ، ثم يحفر «المتوازي الثالث»؛ والعادة أن يكون هذا هو المتوازي الأخير إذ أنه يكون على مسافة قصيرة من حافة المنحدر الذي يرتفع فوق الحصن ، ثم يبدأ حفر الجزء النهائي من خندق الاقتراب وينظم المهندسون عملهم على أن يصلوا إلى حافة المنحدر عندما يكون الجنود قد احتلوا المتوازي الثالث ونقلوا إليه كل احتياجاتهم من عتاد الحرب.

على أن المرحلة الخطرة في الهجوم على الحصون والقلاع إنما هي مرحلة التقدم فوق المنحدر الذي يعلوه الحصن والمعرض لنيران المدافعين سيما وأنهم يطلقون النيران بغزارة من وراء السواتر التي تحميهم ، وفي هذه المرحلة يستخدم المهاجمون إنشاءات أرضية موقوتة تعد على عجل وفي سرعة ، وتسمى في الاصطلاح الحرفي «فرسان الخنادق» وهي عبارة عن حفر لها ستائر «دراوي» أمامية ممتدة ومرتفعة تستطيع من ورائها القوات التي تقوم بالحصار أن تطلق نيران أسلحتها على قوات العدو التي تحرس خطوط الاقتراب للموقع ، والعملية هنا في الواقع هي عملية تطهير للمناطق الأمامية من قوات العدو؛ ويتم هذا إما بالنيران وإما بإرسال جماعات قوية من المشاة لاقتحام مواقع المدافعين تحت حماية نيران المهاجمين المسترين وراء هذه «الدراوي» ، فإذا ما تم الاستيلاء على خطوط الاقتراب المستورة بدأت بطاريات مدفعية المهاجمين تعاون قوات الهجوم في شق ثغرة أو ثغرات في منطقة الدفاع الأساسية.



«عملية الاقتحام النهائي في الهجوم بالمتوازيات»

وهكذا تتضح لنا الظاهرة الأساسية في طريقة ڤوبان لعمليات الحصار، هذه الظاهرة هي استخدام تحصينات وخنادق وإنشاءات أرضية كلها موقوتة وتعد فقط لحماية القوات المتقدمة للهجوم وسترها حتى تصل إلى المنطقة التي تستطيع منها حشد كل الجهود للمرحلة الختامية أي مرحلة الاقتحام ، وقد جربت هذه (المتوازيات) التي تحدثت عنها؛ جربت لأول مرة في حصار لكسمبورج عام ١٦٨٤ ، ويمكن الرجوع إلى الوصف التفصيلي الكامل لهذه الطريقة في رسالة لدوق بورجون وسميت بعنوان «دراس لفن الحصار» وقد كتبت هذه الدراسة في عام ١٧٠٥.

وقد تعرض عمل ڤوبان في الهندسة العسكرية لنقاش طويل ، وكانت أبرز اتجاهات هذا النقاش في أمرين اثنين:

الأول: هل يمكن أن يدل تخطيط الحصون التي بناها ڤوبان على أصالته في التخطيط والإنشاء؟

والأمر الثاني:هو هل كان ڤوبان في تحديده لأماكن إنشاء هذه الحصون يتجه حقًّا لاتباع خطة عامة مدروسة للدفاع عن فرنسا؟

وقد كان من الطبيعي أن يكون النقاش عنيفًا وأن تتباين فيه الآراء ، وحتى تاريخ حديث اتفق أغلب المعجبين بڤوبان على أنه لم يبد إلا القليل من الأصالة الفنية كمهندس عسكري ، وأنه لم يضف شيئًا على التخطيط الذي ورثه عن باجان ، وقد قدم لازار كارنو ، ڤوبان على غيره من مهندسي القرن الثامن عشر ومع هذا فإنه لم يستطع أن يجد إلا القليل من الظواهر التي تدل على أصالته الفنية «إن تحصينات ڤوبان تكشف للعين عن سلسلة متتابعة من الأعمال المعروفة قبل عصره ولكنها في ذات الوقت تكشف

للمراقب الدقيق عن نتائج مدهشة وعن دقة في الصناعة»[١].

ويقول آلان: «إن كل ما جاء به ڤوبان من تعديل للأسلوب الذي كان مستخدمًا يوم ذاك هو بساطة التخطيط مع حسن اختيار مواقع الإنشاءات»[٢].

وقد بقي هذا الحكم غير واضح إلى تاريخ حديث. وكانت أحدث دراسة جدية جديدة لڤوبان هي الدراسة التي كتبها الليفتينانت كولونيل لازار والتي عدلت من كل هذه الآراء والوقوف في جانب ڤوبان[٣]؛ لقد جاء لازار بتعديلات هامة في دراستنا لأساليب ڤوبان في إنشاء التحصينات ، وبينا كانت عادة كل الكتاب القدامى أن يشيروا إلى أن ڤوبان كانت له ثلاث طرق ، أو ثلاثة أساليب ينشئ تبعًا لها التحصينات التي شيدها فإن لازار يقول: بأنه على التحقيق لم تكن لڤوبان أساليب منفصل بعضها عن بعض ، وأنه لم تكن في حياته فترات زمنية فضل فيها أسلوبًا على غيره.

والواقع أننا في ضوء هذا الرأي نستطيع العودة من جديد إلى التصفيف القديم للطوابع أو الصور التي استخدمها ڤوبان في بناء الحصون ، كان الأسلوب الأول الذي أنشأ ڤوبان على أساسه غالبية مواقعه المحصنة يتبع ما أخذه عن باجان دون أي تعديل ، كان التخطيط العام لهذه الحصون عبارة عن شكل منتظم متعدد الأضلاع والزوايا ، وكان هذا يجيء أحيانًا في شكل رباعي الأضلاع وأحيانًا ثماني الأضلاع وأحيانًا مثلث الشكل أي ثلاثي الأضلاع كما هي الحال في لاكينوك.. وكانت الأبراج والأجزاء

(١) ديدور هوفر «التاريخ العام الجديد للشخصيات» ١٨٧٠.
(٢) «تاريخ الفيلق الإمبراطوري» ١٨٠٥ (لم يطبع منه غير مجلد واحد) ص ٢٠٩-٢٢٠.
(٣) «لازار ـ ذات المرجع» ص ٣٧٧ – ٣٩٤.

البارزة من الحصون لا تزال هي مفتاح التنظيم الدفاعي وإن كانت هذه قد أضحت أصغر مما كانت عليه في العصر الذي سبق ڤوبان..

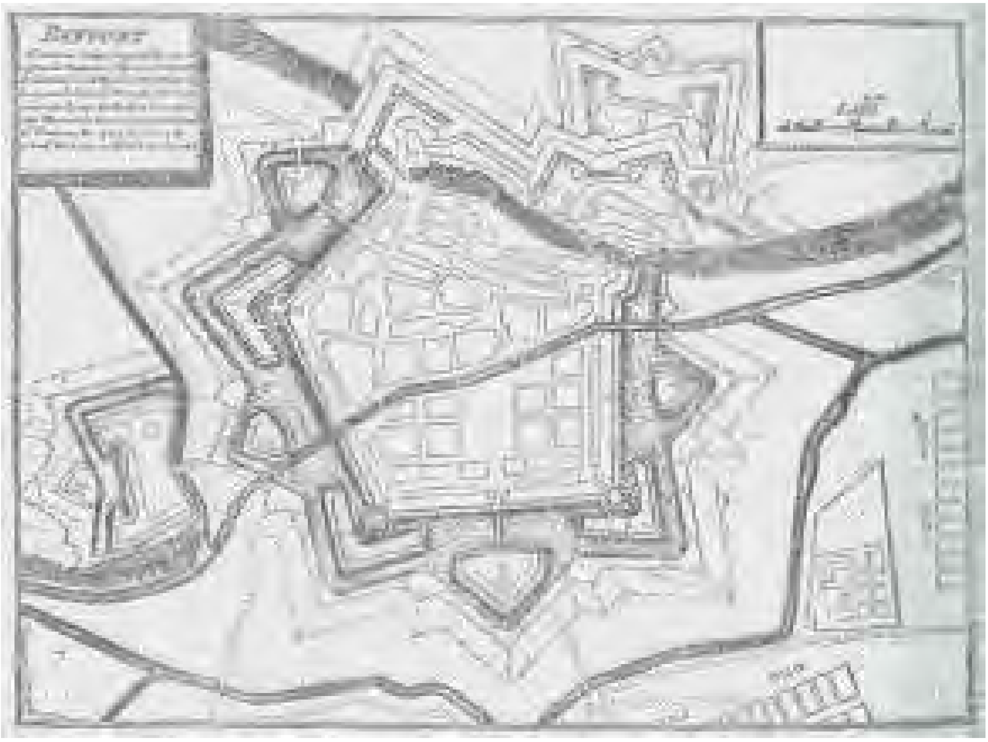
والواقع أنه فيما عدا التحسينات في التفاصيل والاستخدام الواسع المدى للمواقع المحصنة الخارجية والمنعزلة فإن القليل هو الذي تغير عما كان عليه في أيام باجان ، على أنه لما كانت غالبية ما أنشأ ڤوبان من حصون قد جاءت تبعًا لهذا التنظيم.. ولما كانت هذه قد نظر إليها على أنها هي التي توضح طابع عمل ڤوبان فليس من المدهش إذن أن يجيء ناقدوه في عصر متأخر فلا يجدون أصالة في عمله أو أن يجدوا فقط القليل الذي يدل عليها ، ولكن أصالة عمل ڤوبان إنما تبدو ـ على ما يقول لازار ـ في الطابعين الآخرين واللذين استخدمهما في القليل من الحصون التي شيدها ، واللذين كانا لهذا قليلي التأثير في خلفاء ڤوبان.

كانت «الطريقة الثانية»(*) التي استخدمت لأول مرة في بلفورت وبيزانسون نموًّا مطردًا للطريقة التي سبق إيضاحها ، كان لا يزال يتبع الأسلوب القديم بإنشاءات متعددة الزوايا والأضلاع منتظمة الشكل العام ، وكان التجديد هو إطالة السواتر الأمامية واستبدال الأجزاء البارزة من الحصن بأبراج صغيرة في الزوايا ، وقد سترت هذه وراء أبراج منعزلة أنشئت في الحفرة الأمامية؛ أي في الخندق الواسع الذي يدور حول البناء كله..

(*) مع التمشي مع آراء لازار إلا أنه لزيادة الإيضاح يجب التحدث عن كل من الصور على أساس أنها طريقة وأسلوب جديد يباين الأول وإن تعرض أعمال فوبان على أساس أنها كانت تتبع ثلاث طرق مختلفة. «المترجم».



طريقة ڤوبان للهجوم بالمتوازيات



طريقة ڤوبان الثانية في بناء الحصون
«بلفورت»

أما ما يقال له: «الطريقة الثالثة» فقد كان تعديلاً جديدًا لحق بالطريقة الثانية ، وقد استخدمت هذه «الطريقة الثالثة» في بناء واحد هو أكمل ما بني ڤوبان .. وكان هذا في بلدة نيف بريزاك ، وفي هذه الطريقة الأخيرة عدل ڤوبان من شكل الستار الخارجي ليسمح بزيادة استخدام المدفعية في الدفاع كما زاد من حجم الأبراج التي في الزوايا ، والأبراج المنعزلة والمواقع النصف دائرية التي تنشأ في خندق الوقاية الأمامي.

والواقع أن «الطريقة الثانية» هي التي تستحق انتباهنا. فهنا ـ ولو أن معاصريه لم يستطيعوا رؤية هذا ـ أي في «الطريقة الثانية» قام ڤوبان بتحسينات هامة بل هي في الحقيقة تحسينات ثورية؛ فقد تخلص ڤوبان من الاعتماد على النطاق الداخلي المغلق ، وقام بالخطى الأولية نحو الدفاع في عمق.

كان قد اكتسبت مرونة جديدة بجعل تخطيطه يتمشى مع طبيعة الأرض دون أن يعرض خط الدفاع الأساسي للخطر ، وفي كل الأحوال السابقة كان هذا التمشي مع طبيعة الأرض يقوم على أساس إقامة منشآت بارزة للأمام ليست أكثر من إضافات ملحقة بالنطاق الداخل متصلة به ، وكانت هذه عندما يحتلها العدو تؤثر بلا شك في الخط الأساسي للدفاع ، وقد اعترض كورمونتين Cormontaigne على هذه «الطريقة الثانية» كما اعترضت عليها فيما بعد هيئة مدرسي مدرسة ميزيير. هذه الهيئة التي سيطرت آراء أفرادها على فن التحصينات طوال القرن الثامن عشر ، والذين قامت مشروعاتهم للتحصينات على أساس طريقة ڤوبان الأولى ، فقد رأو أن الطريقة الثانية إنما هي عود فج غير تام النضج لأساليب القرون الوسطى ، ولا نستطيع أن نجد إحياء جديدًا لطريقة ڤوبان الثانية إلا في

تاريخ متأخر من القرن الثامن عشر ، وكانت الإصلاحات الفنية التي أوجدها مونتلامبير Montalembert وتقبلها الألمان قبل الفرنسيين بكثير ـ تقوم أساسيًّا على إنشاء القلاع الصغيرة المنعزلة بدلاً من هذه المنشآت البارزة التقليدية والتي كانت في الحقيقة جزءًا من النطاق الداخلي الرئيسي[١].

وبالرغم من أننا نشك في أن يكون مونتلامبير قد تأثر أصلاً بآراء ڤوبان إلا أن هذه الثورة التي جاء بها مونتلامبير مثلها مثل ما جاء بعد هذا من إنشاء التحصينات بعمق إنما تتضح لنا في طريقة ڤوبان الثانية.

وهنا نستطيع أن نتسائل عن علة الاضطراب والتضارب في تفهم آراء ڤوبان ، هذا التضارب الذي بقي حتى عصر حديث ، ***والواقع*** أن هذا إنما كان بسبب أن ڤوبان لم يكتب دراسة عن فن التحصينات الدائمة ، كما أنه لم يوضح نظرياته في فن التحصينات تفصيليًّا كما فعل بنظرياته الأخرى التي جاء بها في موضوعي الهجوم والدفاع ، وكل الكتب التي نشرت في حياته ثم بعد وفاته والتي استهدفت تلخيص أسرار عمله كانت في الواقع تقليدًا وزيفًا جزئيًّا ، ولم يضع ڤوبان موضع البحث والدراسة في غير المؤلف العظيم الذي كتبه بيليدور وإن كان لم يعالج فيه التخطيط ولا مشكلات التوزيع للقوات ، بل عني فقط بمشكلات الإنشاء والتفاصيل الإدارية[٢].

ولكن على أية حال توجد دراستان مخطوطتان تعالجان الأصول الأساسية للتحصينات كتبتا في حياة ڤوبان وقد أبدى تقديره لهما؛ أولاهما

(١) لازار ذات المرجع ٣٨٩ – ٣٩٠ ، «تاريخ التحصينات الثابتة» بقلم إدي ارسترو ١٨٥٦ ج ٢ ص ٦٢–٢٠٨ المترجم من الألمانية بقلم دي لاباردوبارك.
(٢) بيليدور ـ الكتاب الثالث ص ٢٩ – ٣٤و ٣٥ –٤٣و ٩٠–٩٦.

كتبها سوڤير عالم الرياضيات الذي اختاره ڤوبان لتعليم واختبار الطلاب المهندسين ، وثانيتهما كتبها توميسين سكرتير ڤوبان نفسه ، وتعتبر هاتان الدراستان ـ بالإضافة إلى الحصون نفسها ـ أحسن وأفضل مورد يمكن منه أن نعرف الأصول العامة التي جاء بها ڤوبان في إنشاء التحصينات.

والواقع أنه قد يكون من الأيسر في دراستنا لڤوبان أن نتحدث عن الأصول العامة لا أن نتعرض بالدراسة لطريقته أو أسلوبه كله جملة واحدة ، سيما وأن هذه الأصول العامة تبدو واضحة في طرقه أو أساليبه الثلاثة ، بل وتتضح فيها كلها على قدم المساواة؛ ثم إن هذه الأصول العامة من ناحية أخرى قليلة.

وأبرز هذه الأصول العامة هي أن يكون كل جزء من الحصن في أمن تام مثله مثل أيِّ جزء آخر سواء أكان في النطاق الخارجي أم الداخلي ، وكان هذا الأمن يتحقق نتيجة للإنشاء الضخم للنقط المعرضة ونتيجة للاستتار الكافي الذي تمكن منه السجف أو السواتر الأمامية.

فإذا نظرنا إلى المطالب التي يمكن أن تضمن هذا فإننا نجد:

١ – تكون على أجناب كل جزء من النطاق الداخلي نقط قوية.

٢ – تكون هذه النقط القوية كبيرة ضخمة البناء إلى غاية ما يمكن.

٣– إذا كانت هذه النقط القوية منفصلة بعضها عن بعض بمسافة تصل إلى مرمى البندقية أو ما يقل عن هذا وجب أن يلاحظ في التخطيط أن تكون النقط القوية التي على الأجناب مواجهة للأجزاء التي تحميها ومن ناحية أخرى ألا تكون مرئية إلا من هذه الأجزاء.

أو في صورة أبسط ، «أن يتوافر عدد من النقط القوية على الأجناب

تحمي أجزاء وقطاعات النطاق الداخلي للحصن على شريطة أن تكون هذه النقط القوية مستورة وغير مرئية ولا يمكن أن تعرض للنيران في صورة عكسية إلا من هذا الجزء الداخلي الذي أعدت أصلاً لحمايته ، وهذا يكشف لنا عن مبدأ التعاون بالنيران بين أجزاء الحصن الواحد كما يكشف لنا أن نجاح العدو في الاستيلاء على جزء من الحصن لا يعطل باقي الأجزاء عن متابعة القتال وعن القيام بالهجوم المضاد».

ومن السهل الميسور عندما نرجع إلى مشروعات ڤوبان لإنشاء التحصينات أن نجد هذه الأصول العامة متوافرة فيها ومتبعة تمامًا سواء أكانت هذه المشروعات قد جاءت على أساس الطريقة الأولى أم على أساس غيرها من الطريقتين الأخريين.

لقد كانت المشكلة الحقيقية في بناء التحصينات الدائمة إنما تكمن في التوفيق بين التخطيط ذي البروج (أو التخطيط المتعدد الأضلاع والزوايا مع بروج منعزلة) وبين الاحتياجات الملحة لمنطقة خاصة من الأرض ، على شريطة ألا يغفل مع هذا التوفيق أي من المبادئ الأساسية ، ومن الواضح: أن هذا كان يترك المهندس طليقًا يعمل في ميدان واسع فضلاً عما يوفره له من المرونة التي تستحق الإعجاب.

لقد كانت وسيلة العمل هذه هي التي مكنت من تطور الطريقة الثانية لأن ڤوبان نفسه يحدثنا بأنه لم يصل إليها نتيجة لاعتبارات ودراسات نظرية بل إنها قد فرضت عليه فرضًا تبعًا لطبيعة الأرض في بلفورت[١].

***

(١) من رسالة إلى لوفوا تاريخها السابع من أكتوبر عام ١٦٨٧. زيلير ذات المرجع ص ١٤٤.

[٩]

ولكن إلى أي مدى كان برنامج لويس الرابع للمنشآت العسكرية يوجه تبعًا لفكرة استراتيجية؟

وما الدليل على أن هذه الفكرة ـ لو كانت حقًّا هناك فكرة ـ ترجع إلى عبقرية ڤوبان؟

الواقع: أن هذين السؤالين هما السؤالان الأكثر أهمية من غيرهما في هذا الحديث كله ، ولكنهما في ذات الوقت لا تسهل الإجابة عليهما ، فإن أوائل الذين أرَّخوا لحياة ڤوبان كانوا في غمرة اندفاعهم للوقوف إلى جانب بطلهم يتركوننا أحيانًا ونحن نعتقد اعتقادًا جازمًا بأنه لم يكن في فرنسا قبل ڤوبان تحصينات تستحق أن تطلق عليها هذه التسمية ، وأن هذه الحلقة من الحصون التي كانت تحيط بأرض فرنسا في نهاية حياة ڤوبان إنما توضح تنفيذًا مليئًا بالمهارة لخطة كانت ثمرة عقل وتفكير مهندس عظيم ، وكان من رأي هؤلاء الكتاب أنه لا يمكن تصديق أن أي مهندس آخر غير ڤوبان كان يستطيع أن يوجد هذا التنظيم الدفاعي ، كما لا يمكن أيضًا تصديق أن هذا كله إنما كان تطورًا بطيئًا جاء مع الأيام.

على أننا قد نكون في هذه السطور الأخيرة اتجهنا بعيدًا في الاتجاه الآخر ، فلقد رأينا أن شهرة ڤوبان الفنية كمهندس عسكري إنما سمت وازدادت في ضوء الدراسات الحديثة ، فلقد اتجه بعض الكتاب في الماضي ليهبطوا به إلى مستوى الصانع الماهر دون أن يتوافر له أي تصور استراتيجي ، ومثله البعض بفني ماهر ينفذ دون تفكير ما تضطره إليه الاحتياجات التاريخية أي ما تمليه عليه الحاجة الملحة التي تجيء مع الأيام ، أو أنه ينفذ

أوامر رؤسائه الذين كانوا وحدهم هم الذين يقومون بكل التفكير الاستراتيجي.

ولكن من هو هذا الذي كانت له كفاية تمكنه من منافسة سلطة ڤوبان في ميدان تخصصه؟ إن الإجابة على هذا هي أن الملك نفسه هو الذي كان يستطيع هذا ، فقد وضح أن لويس الرابع عشر كان أكثر من أن يكون ذا دراية ومهارة في فن التحصينات ، فلقد درسه في شبابه ، وفي السنوات الأولى من حكمه؛ كما أنه استفاد كثيرًا من نصائح وتعاليم تورين(*) وفيليروا أستاذه (١٥٩٨-١٦٨٥) وكوندي ، وأوضح لويس الرابع عشر طوال حياته ، عنايته حتى بأقل التفاصيل التي تتصل بفن التحصينات ، واعترض عدة مرات على توصيات ڤوبان ، وقد أنشئ حصنان «فورت لويس» و«مونت رويال» تبعًا لتفكير الملك نفسه ، وكان واحدًا منهما على الأقل ضد رأي ڤوبان ونصيحته[1] ، ويرى أحد المؤلفين أن لويس كان مثابرًا مجتهدًا يحاول أن يتعلم كل شيء ، وحتى في هذه المسائل الفنية كان هو السيد المطلق الذي لا يراجع ، وكان لوڤوا «خادمًا مخلصًا» فلا يمكن حتى أن نقول عنه أنه كان كاتبًا للويس ، وكان ڤوبان بدوره «ليس أكثر من منفذ لأوامره وكان في هذا التنفيذ ماهرًا ومخلصًا»[2]؛ ويصف كتاب آخر ڤوبان بأنه: «رئيس

(*) تورين ـ فيكونت (١٦١١-١٦٧٥) ماريشال فرنسا ولد في سيدان وتولى قيادة الجيش المعين لمقاتلة المانيا ، احتل اللورين من فيليبورج إلى ميانس مع كوندي وفي عام ١٦٤٧ انتصر في سمورسهوزن التي كانت سبب صلح ويستڤاليا ، انتصر على كوندي في سانت انطوان من ضواحي باريس ، ثم انتصر عليه ثانية في عام ١٦٥٨ وله كتاب وسم بعنوان «مذكرات» . «المترجم».

(١) شوتار ذات المرجع ص ٣٠-٣٥ ، زيللر ذات المرجع ص ٩٦-١١٧ ، لازار ذات المرجع ص ٤٩-٥٠و ٢٠٢-٢٠٤.

(٢) شوتار ذات المرجع ص ٣٦.

العمال في عمل عظيم وإن كان توجيه العمل لم يترك له وحده»(١).

ومع أننا لا نستطيع الفكاك من هذا كله إلا أن ڤوبان في الواقع قد خطط أو صحح تخطيط كل القلاع والحصون التي اتفق عليها ، وقد قدم مذكرات وتوصيات فنية ، وأوضح رأيه في الكثير من الموضوعات الهامة عندما طلب منه هذا ، وفي بعض الأحوال دون أن يطلب منه رأيه ، ولكن لم يكن من الضروري أن يوجد عند ما تناقش القرارات الخاصة بإنشاء التحصينات فهو لم يكن ليرسم سياسة شيء ما ، وكان صوته إن حضر استشاريًّا.

على أنه لا ينبغي أن يقودنا هذا إلى أن نقلل من تأثيره في القرارات الملكية التي صدرت عن لويس الرابع عشر ، وحتى إذا قلنا: بأنه كانت لڤوبان فكرة كاملة للدفاع عن فرنسا فمما لا شك فيه أنها لم تكن لتنفذ تنفيذًا كاملاً ، فكم عورضت توصيات لڤوبان. وكم عطلت مشروعات له تبعًا لظروف الحرب والسياسة ، وعلى سبيل المثال فإن صلح رزويك لعام ١٦٩٧ الذي كان أول عوامل انسحاب لويس من ميدان الغزو والفتح قد تم دون أن يستشير ڤوبان مباشرة في شروطه ، وبالرغم من أن شروط المعاهدة لم تكن مجحفة إلى الحد الذي كان يخشاه ڤوبان إلا أنه كان خديعة كبرى ، وكان من الضروري القيام بأعمال وجهود كثيرة مضينة لتعويض فَقْد لوكسمبورج التي اعتبرها ڤوبان واحدة من أقوى المواقع الاستراتيچية في أوروبا ، وكذلك تعويض فَقْد نانسي وفريبورج وبريزاخ(٢).

---

(١) زيللر ذات المرجع ص ١١٨.

(٢) زيللر ص ١٠٣-١٠٤ ، وأيضًا «حدود فرنسا» بقلم لافالي طبع باريس ١٨٦٤ ص ٨٣-٨٥.

ولكن هل كانت لڤوبان خطة كاملة أساسية عن هذه التحصينات؟

الواقع: أن الآراء تتضارب وتتباين في الإجابة على هذا السؤال؛ فإن كُتَّابَ القرن الماضي تقبلوا دون نقاش فكرة أن ڤوبان كان يعمل طبقًا لطابع استراتيجي وإن كانوا كلهم غير مدركين تمامًا لما كان يشتمل عليه هذا الطابع ، وقد وصف أحد الكتاب هذا الطابع بقوله: «مجموعة من الإنشاءات قريبة من بعضها البعض بدرجة تمكن من حماية الفواصل التي بينها؛ وكل من هذه المواقع الحصينة قوى ومزود بالرجال والعتاد بدرجة تكفي لإرغام العدو على القيام بعملية حصار ، إلا أن الموقع في ذات الوقت يجب أن يكون صغير الحجم إلى الحد الذي لا يتطلب إلا العدد القليل من المدافعين[١].

ولا يوافق زيللر إطلاقًا على هذا؛ فإنه يشير إلى أن لويس الرابع عشر وڤوبان لا يمكن أن يكونا قد بدءا العمل بصفحة بيضاء ، وأن أحدًا منهما لم يكن ليفرض خطته للدفاع دون أن يستند إلى الأعمال التي تمت من قبل ، ثم يضيف إلى هذا أن الكثير من مظاهر وخاصيات هذا التنظيم الدفاعي ترجع إلى فرنسيس الأول وسولي وريشيليو ومازاران وإلي برامجهم للإنشاء وإلى مطالب المعاهدات التي ارتبطوا بها؛ ولما كانت حدود فرنسا في عصر لويس الرابع عشر هي ذروة ما أدركته السياسة الأهلية بعمل طويل متواصل؛ فإن توزيع المدن المحصنة إنما كان نتيجة جهد طويل متواصل ليتمشى التنظيم الدفاعي للمملكة مع تغير الخط العام للحدود[٢].

وتؤكد حياة ڤوبان نفسه مما يقوله زيللر: من أن إنشاء هذه المجموعة

(١) هينيبر نقله شوتار ذات المرجع ص ٤٢.
(٢) زيللر ذات المرجع ص ٢.

من الحصون كان نتيجة تطور تاريخي وليس عمل رجل واحد ، فإن العدد الأكبر من هذه النقط القوية التي نربطها بحياة ڤوبان لم تكن مواقع جديدة بل كانت من القلاع القديمة التي يرجع بعضها إلى عصر «إيرار» أو عهد أسلافه الإيطاليين والتي استحدث ڤوبان من بنائها وقواها ، ولكن الحصون كما أوجدها ڤوبان لم تكن بحال ما لتوجد تنظيمًا كانت واضحة الأهمية فقط كوحدات منفصلة ، ولم يكن هناك اتصال بينها بل كانت في الغالب متباعدة عن بعضها ، وقد اختير كل موقع تبعًا لأهميته المحلية لحراسة قنطرة أو تقاطع طرق أو ملتقى نهرين ، وكانت جملة قيمتها لا تتوقف على مواقعها النسبية بل على عددها[١]؛ ويتفق زيللر ولازار أن المشروع العام لڤوبان نتج عن عملية الاختيار من بين هذه الحصون؛ لقد قام ڤوبان بالتنظيم وسط فوضى منتشرة؛ وبدأ عمله باختيار الحصون التي تجعلها مواقعها أهلاً للاحتفاظ بها وتقويتها واقترح إزالة باقي الحصون ، على أن وجهة نظره الاستراتيجية لم تكن لتعمل في تحرر وانطلاق كاملين؛ فقد كان الاقتصاد القومي يحدُّ من هذا ، وكان مضطرًّا أن يعمل فقط فيما تملك فرنسا إذ ذاك ، ومن السهل أن نكتشف الأصول التي قادت أو وجهت عملية الاختيار هذه ، وبذلك يمكن أن نجد العامل أو الدافع لتفكيره الاستراتيچي.. ثم يبدأ الخلاف بين الرجلين ، ففي الوقت الذي يرى زيللر: أنه ليس في هذه الأصول والمبادئ ما يعتبر فذا ، وأن التنظيم الذي وضعه ڤوبان يقصر عن أن يكون عملاً استراتيچيًّا عظيمًا.

يرى لازار: أن ڤوبان هو أول رجل في التاريخ فكر تفكيرًا طليقًا غير محدود الأفق في الدور الاستراتيچي الذي للحصون ، كما يرى لازار: أن

(١) زيللر ص ١٢٣.

ڤوبان لم يكن مهندسًا وحسب ، بل واستراتيجيًّا ، وأنه كان ذا آراء أكثر تقدمًا من العصر الذي عاش فيه[١]؛ وكانت كتابات ڤوبان وحدها هي التي تمكن القارئ من أن يتفق مع إحدى وجهتي النظر وتقدير مكانة ڤوبان من ناحية التخطيط لا الإنشاء..

على أننا يجب أن نتذكر: أنه نتيجة للحرب ضد أسبانيا ـ أول حرب للغزو ـ استطاع لويس الرابع عشر أن يمد من أراضيه على طول الحدود الشمالية إلى عمق كبير في أراضي الفلاندرز التي يحتلها الأسبان ، وكانت هذه الممتلكات الجديدة والتي تمتد من فيرن قرب الساحل متجهة للشرق مارة ببيرج وكورترى إلى شارلروا قد أعطت فرنسا عددًا من النقط القوية المبعثرة وسط الحاميات الأسبانية؛ وكان أول واجب لڤوبان هو تقوية وإعادة تحصين هذه الممتلكات الجديدة ، وقد شغل هذا كل وقته طوال سنوات السلم من عام ١٦٦٨ إلى عام ١٦٧٢ ، وفي ربيع عام ١٦٧٢ بدأ لويس حربه ضد الهولنديين وانتهز ڤوبان الفرصة لإثارة مسألة التنظيم العام للحدود لأول مرة ، وفي رسالة له إلى لوڤوا تاريخها العشرون من يناير عام ١٦٧٣ كتب يقول: «والواقع يا سيدي أن الملك يجب أن يفكر جديًّا في موضوع إحاطة مملكته بحصون ، فإن هذا العدد من القلاع الصديقة والمعادية المختلطة ببعضها البعض لا يبعث بالطمأنينة إلى نفسي ذلك لأنك تضطر لأن تنشئ ثلاثة حصون بدلًا من حصن واحد»[٢].

ومن كتابات ڤوبان أيضًا نستطيع أن ندرك أنه في عام ١٦٧٥ ـ السنة التي شغل فيها بتدعيم ما حصلت عليه فرنسا بالغزو في «فرانش كومت»

(١) لازار ذات المرجع ٤٠٨-٤٢١.
(٢) لازار ص ١٣٥.

وغيرها ـ قدم ڤوبان مقترحات جديدة أكثر تحديدًا لوجهة نظره في الأمر ، وفي سبتمبر من تلك السنة اقترح حصار كوندي وبوشين وڤلانسيين وكامبري فان الاستيلاء هذه المواقع سيثبت أقدام فرنسا فيما استولى عليه لويس من قبل ، وفي ذات الوقت سيوجد حال الاستقرار الحال التي كانت فرنسا في حاجة إليها ، وتبعًا لهذا استولت فرنسا على تلك المدن ، كوندي وبوشين في عام ١٦٧٦ وڤلانسيين وكامبري في عام ١٦٧٧ ، ثم أعطى صلح نيمويچين لفرنسا ـ الصلح الذي وقع في أغسطس من العام التالي ـ حدودًا تقرب مما كانت تطلبه..

ولكن كانت فرنسا قد نزلت عن بعض ما تملك في الفلاندرز وأخذت بدله سان أومير وكاسل وآير وايبر وعددًا آخر من النقط المهمة.. ، كما حصلت في الشرق على نانسي في اللورين وفريبورج عبر الرين ، ولكن لم يكن ڤوبان راضيًا عن الطرف الغربي لحدود فرنسا الشمالية ، فقد أحس بأن الصلح الأخير (صلح نيمويچين) قد مزق هذا الطرف وترك الحدود مفتوحة من اتجاه الأراضي الواطئة ، وفي نوفمبر عام ١٦٧٨ أي بعد نيمويچين بثلاثة أشهر كتب ڤوبان بداية سلسلة من الدراسات الهامة عن تنظيم الحدود الشمالية من القناة الإنجليزية «المانش» إلى الميز[1].

على أن الذي يعنينا في مناقشة ڤوبان للأمر هو ما يكشف عنه من أغراض الحدود المحصنة فهي «يجب أن تغلق في وجه العدو كل النقط التي تصلح ليدخل منها إلى البلاد ، وفي نفس الوقت يجب أن تسهل هذه الحدود المحصنة مهاجمة بلاد العدو» ، ولم يفكر ڤوبان قط في أن الحصون لها أهميتها في الدفاع وحسب بل وكان حذرًا في أن يوضح أهميتها كقواعد للعمليات

(١) لازار ذات المرجع ص ٤٠٩ – ٤١٤ ، زيللر ذات المرجع ص ٩٦-٩٨.



ڤوبان يحصن دنكرك ضد الأسطول الإنجليزي

الهجومية ضد العدو ، فإن المواقع المحصنة يجب أن تكون بحيث تسيطر على وسائل المواصلات في داخل الدولة. وأن تمكن من التقدم نحو أرض العدو تبعًا لسيطرتها على الطرق الهامة الرئيسية وعلى رءوس الكباري ، كما يجب أن تكون كبيرة بدرجة كافية ليمكن أن يختزن فيها ليس فقط العتاد أو التموين اللازم للدفاع عنها بل وكل الاحتياجات الضرورية لاستمرار إمداد عمليات الهجوم التي تستند إليها ، وقد وضحت هذه الآراء بإيجاز في هذه المذكرات؛ ولكنها قدمت في إفاضة بوساطة أحد مريدي ڤوبان في القرن الثامن عشر هو المهندس المغامر «ميجريه» الذي ذكره ڤولتير في كتابه: «شارل الثاني عشر» والذي كانت دراسته عن «الاحتفاظ بأمن وسلامة البلاد بوساطة الحصون» هي المرجع الرئيسي فيما بعد لدراسة الأهمية الاستراتيچية للحصون ، ومع أن هذا الكتاب ليس معروفًا إلا للقلة فقد استعملته المدرسة الفرنسية للهندسة العسكرية مدرسة ميزيير في مقدمة مراجع الدراسة فيها.

وفي هذا الكتاب يقول ميجريه: أن أحسن القلاع هي تلك التي تحرم العدو من كل طرق الاقتراب إلى أرض الدولة وفي ذات الوقت تعطي الفرصة الحسنة لمهاجمة أرض العدو(١).

وقد قدم ميجريه الخواص التي تؤكد أهمية الحصون.. وأوجزها فيما يلي:

١ - أنها تسيطر على الطرق الرئيسية المتقدمة لداخل أرض الدولة كأن تكون معبرًا في سلسلة جبلية مثلاً.

(١) ميجرية: الدراسة: طبع باريس عام ١٧٢٥ ص ١٤٩.

٢- أنها تسيطر على رءوس الكباري التي على الأنهار العظيمة وتتضح هذه الخاصية على سبيل المثال في ستراسبورج.

٣- أنها تسيطر على خطوط المواصلات المهمة في داخل أرض الدولة ومثال هذا لوكسمبورج التي كانت تحمي مواصلات الإمبراطور إلى الأراضي الواطئة.

على أن هناك بعض العوامل الأخرى التي قد تجعل للحصن أهمية خاصة كأن يكون قاعدة تموين لعملية هجومية ، أو ملجأ للناس من المناطق المحيطة به ، أو كأن يمكن من السيطرة التجارية ومن تحصيل الضرائب الصحيحة من الأجانب المارين به ، وربما كان ميناء بحريًّا محصنًا مع مرساة آمنة ، أو أن يكون مدينة تصلح لخدمة الملك يحتفظ فيها بثروته وكنوزه ضد الأعداء من داخل البلاد وخارجها(١).

والواقع أن قيمة الحصن تتوقف بدرجة كبيرة على طبيعة موقعه المحلي فمن الممكن أن يصنع العلم والفن شيئًا لعلاج النقص والمساوئ الخاصة بالأرض ولكنها لا يفعلان إلا القليل فيما يختص بالمواصلات ، وبذلك فإن بعض الحصون يكون لموقعها نفع كبير ذلك لأنه يضمن للمدافعين السيطرة على المواصلات التي تؤدي إليها. وفي ذات الوقت يسبب صعابًا كثيرة للعدو وعلى الأخص في إحضار التموين اللازم له للقيام بعملية حصار طويلة(٢).

وقد مكنت هذه النقاط من تفضيل بعض القلاع على غيرها ولكن بقيت مسألة واحدة هي الصلات التي تربط الواحدة منها بغيرها. أو بمعنى

(١) ميجريه ذات المرجع ص ١٢٩ –١٤٨.
(٢) ميجرية ذات المرجع هامش ص ١٥٦ وص ٢٢١-٢٢٢.

آخر وسائل الاتصال بين كل حصن والحصون التي على أجنابه وخلفه أو أمامه ، وقد انتهى ڤوبان في تسجيله لتجارب عام ١٦٧٨إلى أن الحدود يمكن أن تحصن بدرجة كافية إذا ما حددت المواقع التي تحتل في خطين اثنين وفي كل خط ما يقرب من ثلاثة عشر موقعًا[١] ، كما يمكن أن تزاد تقوية الخط الأول باستخدام خط المياه الممتد من البحر إلى شيلد فإن الأنهار والقنوات «القنالات» ومجاري المياه المستخدمة للملاحة يمكن أن تربط حصنًا بآخر ، كما يمكن أن تحمي القنالات نفسها بأن تنشأ على مسافات منتظمة تحصينات صغيرة منعزلة..

على أن هذا المشروع لم يكن أصيلاً بالنسبة لڤوبان بل الحقيقة أنه كان عملية تجري في جزء من الحدود عندما كتب هذا ، كما أنه لم يكن متأثرًا بقوة خطوط المياه؛ ذلك لأنه رأى أن الغرض الأساسي منها إنما هو المعاونة في العمل ضد الإغارات الاكتساحية التي تقوم بها الجماعات الصغيرة من العدو والتي تقوم بأعمال المضايقة والإزعاج ، أما إذا قرر عدو مهاجمة التحصينات على الحدود بجيش فمن الضروري الدفاع عن هذه الخطوط بجيش مماثل[٢].

وكان من الطبيعي أن مثل هذا المشروع يتطلب منشآت جديدة ، ولكن ڤوبان كان حذرًا من أن يشير إلى أنه يعني أيضًا إلغاء عدد كبير من النقط القوية القديمة ، وتبعًا لهذا فقد ألح في إزالة كل الحصون البعيدة عن

(١) كان الخط الأول يتكون من: دنكرك ـ بيرج ـ فيرن ـ فورت دي كنوك ـ ايبر ـ مينين ـ ليل ـ تورناي ت فورث دي مورتان ـ كوندي ـ ڤلانسيين ـ لوكوينزنوي ـ موبيج ـ فلبفيل ـ دينانت؛ وكان الخط الثاني يتكون من: جرافلين ـ سان أومير ـ آير ـ بيتين ـ آراس ـ دوي ـ بوشين ـ كابري ـ لا ندرسيز ـ اڤيسنيه ـ اڤين ـ ما رينبورج ـ ركروا ـ شارلڤيل.

(٢) لازار ذات المرجع ص ٢٨٢-٢٨٤.

الحدود ، والتي ليست ضمن هذين الخطين ، ولم يكن هذا اقتصادًا من الناحية المالية بل كان أيضًا اقتصادًا في القوى العددية ، فإن إلغاء عشر نقط قوية إنما يعني إطلاق ثلاثين ألف جندي للقيام بواجباتهم في مواقع أخرى.

وقد وضحت أيضًا تسجيلات عام ١٦٧٨ تقدير إمكان القيام بغزوات مقبلة ، وتشير هذه إلى غاية ما يختص بالحدود الشمالية والشرقية إلى أن ڤوبان كان راغبًا في تمهيد الطريق لشيء أكثر إطماعًا .. إلى شيء أكثر من الإصلاح المحلي لخط من التحصينات ، فلقد قال بأنه في حال حرب مقبلة فإنه يجب القيام مباشرة باحتلال عدد معين من حصون العدو ، فإن ديكسمود وكوتراي وشارلمو إنما تفتح الطريق إلى الأراضي الواطئة ، بينا نجد في الشرق ستراسبورج ولكسمبورج من أهم المدن التي يجب الاستيلاء عليها ، وقد أضاف ڤوبان أنه لم ينظر إلى هذه الحصون من ناحية بنائها القوي أو موقعها ، فهي من هاتين الناحيتين من أحسن ما في أوربا من حصون ، ولكنه ينظر إليها لأنها هي «مفاتيح» طرق الاتساع الفرنسي للوصول إلى الحدود الطبيعية لها. ولم يكن ڤوبان ليكون مواطنًا فرنسيًّا لو لم يتقبل المبدأ بأن حدود فرنسا من الشمال والشرق يجب أن تكون على نهر الرين ، ومن الممكن أن نحزر بأن هذا قد خطر له وتبلور في تفكيره منذ بكورة أيام حياته. ومن المؤكد أنه في تاريخ متأخر قبل صلح ريزويك مباشرة جزع من أن فرنسا كادت تفقد ستراسبورج ولوكسمبورج ، وكتب يومذاك يقول: «إننا إذا لم نستعدهما من جديد فإننا سنفقد إلى الأبد فرصة جعل الرين حدًّا لبلادنا»[١].

وليس من السهل أن نؤكد ما إذا كان تسجيل عام ١٦٧٨ يوضح

(١) لاڤالي ص ٨٣- ٨٥.

وجهة نظر ڤوبان الناضجة النهائية بالنسبة لموضوع التحصينات الدائمة ، فإن مذكراته الأخيرة تترك الكثير مما كان يجب تقديمه كأمثلة للتفكير الاستراتيچي عن دور الحصون وواجباتها ، تترك هذا كله دون استكمال. ***والواقع*** أنه فيما عدا المذكرة الخاصة بتحصينات باريس والتي ناقش فيها بإفاضة الأهمية الاستراتيچية التي للعاصمة ، فإن الكثير من دراساته التي جاءت بعد هذا إنما ينقصها الطابع الاستراتيچي ، فقد عنيت كلها أساسيًّا بتوصيات ضافية عن أي الحصون التي يجب أن تدمر؟ وأيها يجب أن يزاد حجمها؟ وأيها يعاد بناؤها؟.

وبالرغم من هذا فليس من الصعب أن نكتشف سلسلة من صور التغيير والتبديل في آراء ڤوبان قد ترجع جزئيًّا إلى التطور في أفكاره. ولكنها ترجع أساسيًّا إلى تغير الأحوال التي كان مرغمًا على العمل فيها طوال السنوات الأخيرة لذلك العصر ، فإن ازدياد ثقل العبء المالي ثم الاستهلاك الكبير في قوى الأفراد قد شجعا ڤوبان أن يلح في إزالة التحصينات التي تقرر إلغاؤها بذات القوة إن لم يكن أكثر من إلحاحه لبناء إنشاءات جديدة[(١)] ، وقد أدى هذا به إلى الحث على تدمير الكثير من المواقع التي وضعها ضمن دفاعات الخط الثاني في مذكرته لعام ١٦٧٨ ، وفي ذات الوقت كانت جيوش لويس الرابع عشر قد دفعت بدرجة أكبر وأكبر لاتخاذ خطة الدفاع؛ وتبعًا لهذا اتجه ڤوبان بدرجة أكبر نحو التفكير الدفاعي ، لقد اتبع الاتجاه الذي بات واضحًا في نهاية القرن نحو الاعتماد الكبير على خط المياه الممتد على طول الحدود الشمالية ، ولكنه قد قدر في ذات الوقت الضعف الواضح في هذا اللون من الدفاع ، وكتب في عام ١٦٩٦ مذكرة حثَّ فيها على إيجاد

(١) زيللر ص ٩٨–١٠٧ . Zeller, op. Cit. PP ٩٨-١٠٧

معسكرات محصنة كعضد للحصون ، ولتقوية خطوط المياه ، وكان الغرض من هذه المعسكرات المحصنة إما حراسة خطوط المياه في الفواصل بين الحصون وإما تقوية الحصون نفسها بإيجاد دفاع حقيقي خارجي ، فإنه يمكن بجيش صغير ـ أصغر من جيوش الميدان العادية ـ يعسكر خارج تحصينات أي قلعة وتعد لوقايته حفر سريعة مؤقتة.. يمكن به إما التدخل المباشر ضد القوات التي تقوم بحصار الحصن حصارًا مباشرًا ، وإما أن يضطر هذه القوات لتوسع من نطاق عملية الحصار التي تقوم بها ، وبذلك يتسع نطاق عملها كما يتطلب الأمر قوات أكبر قد لا تكون ميسورة.

وبتقدير هذين العاملين معًا ـ «العامل الأول هو الإصرار على إنشاء خط ممتد متصل تدعمه معسكرات محصنة ، والعامل الثاني هو الرغبة في التضحية بخط الدفاع الثاني الذي دافع عنه في مذكرة عام ١٦٧٨» ـ فإننا لا نجد ما يدعم ويقوي ما يقوله لازار من أن ڤوبان كان أول المفكرين في «المناطق المحصنة» الشيء الذي جاءت به الاستراتيچية الحديثة ، بل على النقيض فإن تفكير ڤوبان كان يتجه إلى ترقيق وترقيق الخط الدفاعي ، وقد بسط من هذه أيضًا إلى نطاق مفرد يستند إلى نقط قوية ترتبط ببعضها البعض بخط مائي تدعمه الجنود؛ وربما لا نكون مسرفين إذا رأينا في هذا دليلاً على أن المهندس الكبير قد اقتيد في أواخر أيام حياته لأن يلقي العبء الأكبر على الجيوش تاركًا أقل العبء وأبسطه على التحصينات ، ويبدو أنه اقترب من رأي جيبير(*) في أن الدفاع الحقيقي عن أي دولة إنما يحتمله جيشها لا تحصيناتها ، وأن النقط الحصينة هي فقط بمثابة البروج البارزة من القلعة الكبيرة التي يكون الجيش ستارها الحي المرن.

(*) راجع الباب الثالث من الكتاب للتعريف بجيبير وآرائه.

مراجع الفصل الثاني
فوبان: تأثير العلم في الحرب

M. le Maréchal de Vauban, Traité de l'attaque et de la défense des places. (Pierre de Hondt the Hague, ١٧٤٢).

Nicolas de Fer, Introduction a la fortification dédiée à Monseigneur le Duc de Bourgogne. (Paris, ١٦٩٣).

F.R. Taylor, The Art of War in Italy, ١٤٨٤- ١٥٢٩.

(Cambridge, ١٩٢١).

Sir Charles Oman, The History of the Art of War in the Sixteenth Century. (London, ١٩٣٧).

Edgard Boutaric, Institutions militaries de la France avant les armées permanents (١٨٦٣).

Louis André, Michel le Tellier et l'organization de l'armée monarchique (١٩٠٦).

Camille Rousset, Histoire de Louvois et de son administration politique et militaire, ٤ vols. (١٨٦٢-١٨٦٤).

Albert Duruy, L'armée royale en ١٧٨٩ (١٨٨٨).

Albert Babeau, La vie militaire sous l'ancien régime (١٨٨٩-١٨٩٠).

General Susane, Histoire de l'ancienne infanterie française (١٨٤٩).

Histoire de la cavalerie française (١٨٧٤).

Lt. Colonel Augoyat, Aperçu historique sur les fortifcations, les ingénieurs, et sur le corps de genie (٣ vols., ١٨٦٠-١٨٦٤).

E. Legrand – Girade, Etude historique sur le corps du génie, Revue du génie militaire (١٨٩٧-١٨٩٨).

C. Lecomte, Les ingénicurs militaires en France sous le régine de Louis XIV (١٩٠٤).

J. Tripier, La fortification déduite de son Histoire (١٨٦٦) Prévost du Vernois, De La fortification depuis Vauban (١٨٦١).

A. de Zastrow, Histoire de la fortification permanente (٣rd. ed, ١٨٥٦, trans. From the German by Ed. De la Barre – Bupareq.).

M. Maigret, Traité de la Sureté et Conservation des Etats, par le moyen des Fortresses (١٧٢٥).

Sir Reginald Blomfield, Sébastien le Prestre de Vauban, ١٦٣٣-١٧٠٧. (London, ١٩٣٨).

E. M. Lloyd, Vauban, Montalembert, Carnot, Engineer Studies (London ١٨٨٧).

P. Lazard, Vauban (١٩٣٤).

George Michel, Histoire de Vauban (١٨٩٧).

Daniel Halévy, Vauban (١٩٢٣).

Fontenelle, Eloge du Marechal de Vauban.

Voltaire, Siécle de Louis XIV.

A. Allent, Histoire du corps impérial de genie (١st and only Volume ١٨٠٥).

H. Chotard, Louis XIV, Louvois, Vauban et les fortifications du Nord de la France.

Gaston Zeller, L'organisation défensive des frontières du Nord et de l'Est au XVIIe Siècle (١٩٢٨).

Augoyat, Mémoire inédites de Vauban sur Landau, Luxembourg et divers sujets (Paris, ١٨٤١).

Mémoires du Maréchal de Vauban sur les fortifications de Cherbourg, ١٦٨٦ (Paris, ١٨٥١).

Colonel de Rochas, Vauban, sa famille, et ses écrits, ٢ Vols. (١٩١٠).

Hyrvoix de Landosle, Vauban's Lettres intimes inédites adressées au Marquis de Puyzieulx (١٩٢٤).



فردريك الأكبر (١٧١٢ – ١٧٨٦)

الفصل الثالث

فردريك الأكبر .. جيبير .. بيلو

من حروب الأسر الحاكمة إلى الحروب الأهلية

بقلم ر. ر. بالمر

شهدت الأيام بين عام ١٧٤٠ وعام ١٨١٥ ـ العصر الذي بدأ باعتلاء فردريك الأكبر عرش بروسيا وانتهى بإنزال نابليون عن عرشه كإمبراطور للفرنسيين ـ شهدت هذه الأيام التي امتدت إلى ثلاثة أرباع القرن كمال الأسلوب القديم لفن الحرب ، وبداية الأسلوب الحديث الذي ما زلنا نتبعه في صور كثيرة.

والحديث عن التباين بين هذين الأسلوبين ـ القديم والحديث ـ هو في الواقع الهدف الرئيسي لهذا الفصل من الكتاب ، فلقد أمكن للكثير من نواحي الأسلوب القديم أن يحيا من جديد في الأسلوب الحديث ، ***والواقع*** أن الآراء التي صورت وقدمت في الفصلين السابقين لا يمكن القول بأنها قد عفا عليها الزمن ، فإنها لا تزال حتى اليوم ضرورية لازمة لنظرية الحرب..

لقد جعل مكياڤيللي دراسة الحرب علمًا اجتماعيًّا ، وقد فصلها عن الاعتبارات ذات الأغراض المعنوية وربطها وثيقًا بالنظريات ووجهات النظر الاقتصادية والقانونية والسياسية ، وجاهد في هذه المسائل العسكرية ليزيد من ميدان التخطيط البشري ويقلل من ميدان الفرص والاحتمالات؛

وفتح ڤوبان لرجال الجندية موارد العلوم الطبيعية والفنية ، وعملت حكومة لويس الرابع عشر وهي تزيد من حجم الجيوش على أن تزيد أيضًا من تقدم أصول الإدارة والرقابة السليمتين ، ووضعت الأصول الحديثة للضبط والربط ، وأوجدت تكوينًا قائمًا سليمًا للوحدات التكتيكية ، ووضحت سلسلة القيادة ، وحولت من قادة الجيش ليكونوا موظفين عموميين ، وجعلت من القوات المسلحة خدمًا للدولة وللحكومة ، وقد زادت سرعة تطور وتحسين كل هذه الإصلاحات في فترة التغير والانتقال هذه ، والتي سنتناول التأريخ لها في هذا الفصل من الكتاب..

على أن أبرز المكتشفات الجديدة فيما يختص بإنشاء واستخدام الجيوش كانت واضحة في «القوى العددية» و«الاستراتيچية»؛ فقد حلت جيوش المواطنين مكان جيوش المحترفين ، وحلت استراتيچية الاعتداء وخفة الحركة والمقاومة مكان الاستراتيچية البطيئة التي تقوم على أعمال الحصار؛ وقد توقع مكياڤيللي كلا الأمرين؛ ولكن مما لا شك فيه أن كلا الأمرين لم يدركا في مدى واسع منذ عام ١٥٠٠ ، فلما كان عام ١٧٩٢ سبَّبَ كل منهما بعد ذلك ثورة في فن الحرب؛ فحلت مكان الحرب «المحددة» في النظام القديم الحربُ «غير المحددة» في العصور التالية ، وقد جاء هذا التحول تبعًا لانتقال الأمر من حكومات الأسر الحاكمة إلى الحكومات الشعبية الوطنية ، وكان نتيجة تابعة للثورة الفرنسية؛ فلقد كان من الضروري قبل الثورة الفرنسية أن تجيء الحرب بسبب الاصطدام بين الحكام من الملوك ، ولكن منذ ذلك التاريخ باتت تجيء بدرجة متزايدة نتيجة للاصطدام بين الشعوب. وبذلك فإنها كانت تتحول بسرعة لتكون حربًا أممية شاملة(١).

(١) راجع كتاب م . جانز M. Jahns: Geschichte der Kriegswis sennschaften Vormehmlich=

كان نظام حكومات الأسر الملكية يضع عدة تحديدات لها أثرها في حشد وتكوين الجيوش ، وكان الملك ـ مهما كان هو من الناحية النظرية مطلق السلطة والسلطان ـ يقف دائمًا في موقف لا ينتفع منه ولا يحسد عليه ، وكانت كل حكومة ملكية تقف مضطربة التوازن بين البيت الحاكم وبين طبقة النبلاء ، وكانت امتيازات النبلاء تحدّ من حرية عمل الحكومة؛ ذلك لأن هذه الامتيازات كانت تشتمل على حق عدم دفع ضرائب معينة ، كما تتضمن حق احتكار مراكز ورتب خاصة في الجيش ، ولا تستطيع الحكومة مع تحديد دخلها الضرائبي أن تسحب كل الموارد المادية التي في أرضها ، كما لا تستطيع كذلك أن تستخدم كل مواردها البشرية ، وكان من الضروري أن يجيء الضابط من طبقة خاصة يحمل أفرادها ألقابهم بالوراثة ، ومن النادر أن تتعدى هذه الطبقة اثنين في المائة من مجموع السكان ، ولم تكن توجد بين الشعوب في جملتها وبين حكوماتها إلا القليل من المشاعر المتبادلة ، وكانت الرابطة بين الحاكم والمحكومين رابطة إدارية مالية تقوم على الوظائف والموظفين ، أي على صلة خارجية آلية بين الحاكم والمحكوم وتتعارض مع المبدأ الذي جاءت به الثورة والذي أوجد تبعًا للعقيدة التي تقوم بمسئولية المواطن وسيادة الشعب ما يمكن أن يقال عنه بأنه تمازج واتحاد ديني قوي بين الحكومة والمحكومين.

كانت الحكومة الجيدة في النظام القديم ، هي الحكومة التي لا تتطلب إلا القليل من رعاياها ، الحكومة التي تعتبرهم نافعين لهم قيمة إنتاجية للدولة ولا تتدخل وقت الحرب في أسلوب حياتهم المدنية إلا لأقل ما يمكن؛ وكان الشعب الجيد في نظر هذه الحكومات هو الشعب الذي يطيع

=in Deutschland ثلاثة مجلدات طبع ميونيخ عام ١٨٩١ المجلد الثالث.

أفراده القوانين ويدفعون الضرائب مع الولاء للبيت الحاكم. ولم يكن هذا يتطلب ذاتيته كشعب أو وحدته كأمة أو مسئولية في الشئون العامة دون ما اضطرار للجهد الكبير في الحرب ، وكان الجيش مرآة للدولة وانعكاسًا لها ، كان مقسمًا داخليًّا إلى طبقات بغير روح واحدة عامة متماسكة ، في جانب من الجيش: ضباط كل ما يعنيهم هو شرف الجندية مع الشعور بالتفاخر أو الطمع ، ولا تغيب عن أذهانهم قط فكرة الأوضاع والطبقات في الحياة العامة ، وفي الجانب الآخر: جنود مجندون لفترات طويلة ، وقد حاربوا على أساس أن الحرب عمل ينالون منه ما يقوم بأودهم ، جنود ظن بأنه لا يمكن أن تتوافر فيهم أية فضائل ، وكانت كل الروابط التي توجد لونًا من الاتحاد بينهم هي تفاخرهم البسيط بالآليات التي يتشكلون فيها؛ وكانت جيوش روسيا والنمسا وبروسيا تكوّن في غالبيتها من الطبقات الفقيرة ، واستخدمت بروسيا وبريطانيا الكثير من الغرباء في جيوشهما ، وكانت القوات النمساوية تزخر بخليط من اللغات؛ بل كان الجيش في جملته وكأنه من شعب آخر ، وكان الاتجاه العام في الدول كلها هو أن يجند الأفراد الذين يعتبرون عديمي النفع من الناحية الاقتصادية ، أو بمعنى آخر: أدنى الطبقات في الشعب ، وكان الأهالي المدنيون يبقون بمعزل عن الجنود ، وحتى في فرنسا ـ التي كانت تجمع في جيوشها العدد الكبير من المواطنين وبنسبة أكبر مما في أي دولة أوروبية أخرى ـ كانت المقاهي تضع عند أبوابها لافتات خطَّ عليها «ممنوع دخول الكلاب والخدم والبغايا والجنود»![1].

ولإمكان تكوين جيش من طبقات متباينة متعددة ـ من جنود هم في

(١) م. ڤيجان «تاريخ الجيش الفرنسي» Weygand; Histoite de l’armée Française. طبع باريس ١٩٣٨ ص ١٧٣.

الغالب من المنبوذين اجتماعيًّا ، ومن ضباط هم فقط شبان نبلاء ـ كان من الضروري أن يوجد غرض عام ، وهدف يمكن أن يجمعهم معًا ، وقد كان هذا من الصعوبة بمكان تبعًا لأنه لم يكن يتوافر في الجنود إلا القليل التافه من المعنويات ، وقد آمنت الحكومات ـ وكان لهذا الاعتقاد أو الإيمان أسبابه ـ أن النظام يجب أن يفرض فرضًا من خارج الجيش ، ولم يكن قد غاب عن الذاكرة هذا الرعب الذي أثارته الجندية الطليقة غير المحكومة وعلى الأخص في ألمانيا بعد حرب الثلاثين سنة ، وقد حاول ملوك القرن الثامن عشر أن يوفروا المدنيين من شعوبهم بدافع إنساني من جهة ، وتبعًا لأنهم عوامل الموارد المالية للدولة.

على أن الحكومات لكي توجِدَ نظامًا بين الجنود ، ولكي يمكن أن تتوافر الروح المعنوية بينهم سيما وأنهم لا يستجيبون للمستويات الفكرية فإنها قد زادت من عنايتها بهم؛ فأسكنتهم المعسكرات ، وأمدتهم بالأطباء ، وأنشأت المستشفيات ، وأطعمتهم بالمجَّان ، وأنشأت المستودعات الكبيرة لتموينهم وإمدادهم بعتاد الحرب ، ومع هذا فقد بقيت الحكومات تخشى دائمًا أن يفرَّ الجنود من الخدمة العسكرية إذا تركوا للبحث عن الكلأ في جماعات صغيرة ، أو إذا هبط مستوى معيشتهم في الجيش عن المستوى الذي يطمعون في إدراكه؛ ذلك لأن الهدف الرئيسي للجندي المحترف كان دائمًا هو أن يحصل أولًا على ما يقوم بأوده لا أن يقاتل أو أن يموت من أجل تحقيق هدف للدولة مهما كان هذا الهدف ، والحق أن الجنود والضباط كانوا طوال القرن الثامن عشر ينتقلون من جيش إلى آخر بسهولة ويسر سواء أكان هذا في الحرب أم في السلم ، «وكان من الممكن أن أسرى معركة ما يقاتلون في صفوف الجيش الذي أسرهم في المعركة التالية وضد الجيش

الذي كانوا أصلًا من قوَّاته»(*).

وفي ذات الصورة وجهت الحكومات عناية كبيرة للنظام والتدريب ، وكانت الفكرة هي أن الحكم القاسي العنيف «الحكم الحديدي» هو الذي يمكن من إيجاد وحدة متماسكة من هذه المجموعات من الجنود الذين لا توافق ولا انسجام بينهم ، وكان الحكام والنبلاء لا يتوقعون إطلاقًا أن يجدوا أيًّا من الصفات المعنوية والفضائل في هذه الطبقات الدنيا التي يعمل أفرادها في الجندية ، كما أنه لم يكن من المحتمل قط أن تتوافر بين هؤلاء الجنود لا الشجاعة ولا الولاء ولا روح الجماعة ولا التضحية ولا الاعتماد على النفس.

والواقع أن هذه الصفات كلها لم تغرس بين جنود ذلك العصر ، والذين مثلهم مثل الشعوب التي تحكمها أسر ملكية ، لم تكن تتوافر فيهم مشاعر الرغبة للمشاركة في الحرب ، ولم يكن من الممكن الوثوق بالجنود كأفراد ولا أن يتركوا في جماعات منعزلة بعيدًا عن رقابة ضباطهم ، وكانت الاعتبارات الفنية لا تشجع «الفردية» ، وكانت حال المواصلات السيئة وضعف القدرة على الاستكشاف بسبب جهل الجنود وعدم إمكان الاعتماد على الجندي الفرد ، كان هذا كله يحول دون تقسيم الجيش في الميدان؛ وفي ذات الوقت سبب عدم ضبط البنادق وقِصَر مرماها أن أضحت النيران الفردية عديمة الضرر نسبيًّا.

وكنتيجة لهذا كله فإن هدف التدريب العسكري إنما كان صهر مادة خاملة عديمة الروح وتحويلها إلى كتائب أشبه بالآلات ، فإذا ما اشتبكت

(*) راجع تنظيم فردريك الأكبر لاستخدام أسرى الحرب في قواته المقاتلة العهد السياسي المجلد السادس ص ٢٢٦ وما بعدها. «المترجم».

هذه الكتائب بالعدو فإنها تقف متلاصقة كل كتيبة بجوار الأخرى في خط جامد صلب؛ وكان الجنود يقفون متجاورين المرفق في المرفق بعمق ثلاثة صفوف متتالية ، وتكون كل كتيبة نوعًا من الآلة التي تطلق النيران في مجموعة كبيرة بأمر رجل واحد ، وكان من الضروري للحصول على وعي تكتيكي أن يمر الأفراد بمرحلة تدريب عنيف طويلة؛ ولهذا فقد اعتبر أن سنتين هما أقل مدة كافية لتحويل رجل ضعيف فقير من الطبقة الدنيا إلى جندي محترف..

وقد أثر تكوين الجيوش بدرجة كبيرة في استخدامها ، فإن الجيوش كانت عبئًا ماليًّا ثقيلًا على حكومات النظام القديم تبعًا لمواردها المالية المحدودة ، وكان كل جندي يمثل عبئًا ثقيلًا في الوقت والمال ، ولم يكن من السهل استعاضة الجنود المدربين الذين يفقدون في القتال ، وكانت المستودعات الكبيرة للأغذية والذخائر والتي تحتفظ بها على مقربة من المناطق المتوقعة للقتال تتطلب الوقاية ، وبالإضافة إلى هذا ففي المرحلة الأخيرة من القرن السابع عشر مكَّن التقدم الفني من تحسين فن التحصينات ، وانتشرت في فرنسا وألمانيا كراهية للحروب التي عرفت باسم «الحروب الدينية» والتي سببت إضعاف الحياة المدنية المنتجة ، وكانت نتيجة هذا أن حُشِدت الجيوش في سلسلة من المواقع المحصنة ، وكان الجيوش وأقسامها لا تعتبر على أهبة للعمل حتى قرب قواعدها والتي لم يكن من المتوقع أن ترحل عنها لأكثر من مسيرة خمسة أيام؛ وحتى مع كون المستودعات قريبة خلف الجيوش فإنها كانت تحمل معها الكثير من الأحمال والأمتعة؛ ولهذا فإنها لم تكن لتقطع غير مسافة قصيرة جدًّا في اليوم الواحد ، ولم يكن من السهل كذلك أن تخفض هذه الأحمال والأثقال ، فإن الضباط

الأرستقراطيين كانوا يسافرون ومعهم ثيابهم وأمتعتهم ، وكان الجنود ـ وهم يحاربون أصلًا دون أي دافع سياسي ـ يفقدون معنوياتهم إذا وضح لهم أن غذاءهم غير متوقع وصوله أو أن العمليات ستكون عنيفة.

وكان من النادر في تلك الظروف أن تحدث معارك في نطاق واسع بين جيوش كاملة ، ولم يكن من السهل أن يوجد القائد اتصالًا مع جيش العدو العازف عن القتال ، وحتى مع وجود جيشين متواجهين فإن إعداد خط المعركة كان يتطلب الوقت الطويل ، فإذا ما فكر أحد الجانبين في الرحيل والتحرك بينما يكون الجانب الآخر يتشكل للمعركة ، استطاع هذا في يسر؛ لأنه لم يكن يوجد الاشتباك الكامل الذي يمنع أو يعطل الجيش الراغب في الانصراف من ميدان المعركة عن إتمام غرضه ، وكانت المعركة مخاطرة كبيرة ، ثم إنه لم يكن من السهل أن يزاد من الكسب البسيط الذي تجيء به معركة ما؛ ذلك لأنه لم يكن قد تمَّ الوصول بعد إلى فن المطاردة التَّدمِيرِيَّة أي المطاردة التي تمكن من سحق قوات العدو المنسحبة أو المتقهقرة.

وقد وصل المفكرون العسكريون إلى أن الدولة يمكن أن تقاسي من النصر مثلما يمكن أن تقاسي من الهزيمة ، ولم تكن النتائج السياسية السريعة والحاسمة يمكن أن تتوقع بحال ما من المعركة ، وهنا يتضح الفرق على التخصيص بين معارك القرن الثامن عشر وبين معارك حروب نابليون ، فبعد بلنهايم ومالبلاكية وفونتينوا وروزباخ استمرت الحرب تسير متعثرة لسنوات. ولكن بعد مارنجو وأوسترلتز وينا وواجرام أو ليبزج(*) بدأت

(*) بلنهايم Blenhaim في باڤاريا كانت مسرح هزيمة الفرنسيين والباڤاريين في ١٣ أغسطس عام ١٧٠٤ بجيش مارلبورو والبرنس أوجين وخسر فيها الفرنسيون ثلاثين ألفًا بين قتيل وجريح وأسير أي ربع عدد جيش الحليفتين معًا فرنسا وباڤاريا.=

مفاوضات السلم في شهور قليلة.

ولكي نجمل الحديث فإن عوامل متشابكة كثيرة سبقت الثورة الفرنسية كانت هي التي تحدد من الحروب ومن وسائل القتال، بل وحتى من الأهداف التي تعمل لتحقيقها، وكانت الحروب طويلة ولكنها لم تكن عنيفة، وكانت المعارك مدمرة لأن كمية نيران الكتائب كانت قاتلة؛ ومن أجل هذا لم يكن أحد تواقًا لخوضها، وتحولت العمليات بالاختيار والتفضيل للقتال ضد الحصون ومستودعات خطوط التموين والمواقع

=مالبلاكيه Malaplaquet انتصر فيها مارلبورو والبرنس أوجين على الفرنسيين مرة ثانية في عام ١٧٠٩، وتقع مالبلاكيه على مسافة واحد وعشرين ميلًا لشرق بجنون ڤلانسيين.

فونتينوا Fontenoy في البلجيك على مسافة خمسة أميال جنوب شرق تورناي هزم فيها بقيادة الماريشال ساكس دوق كمبرلاند وحلفائه وأفنوا اللولر الإيرلندي، وكان هذا في عام ١٧٤٥ إبان حرب الوراثة الأسبانية.

رزباخ Rossabach مدينة في ولاية ساكسوني البروسية القديمة انتصر فيها فردريك الأكبر على النمساويين والبروسيين عام ١٧٥٧.

مارنجو Marengo في بيديمونت بإيطاليا كانت مسرح القتال بين نابليون والنمساويين عام ١٨٠٠ وانتصر فيها نابليون (توجد مدينة بذات الاسم في الجزائر وتقع على مسافة ٣٨ ميلًا لغرب بجنوب غرب مدينة الجزائر).

أوسترلتز Austerliz مدينة صغيرة في موارفيا (٨٠ ميلًا شمال شرق ڤيينا) كسب فيها نابليون يوم ٢ ديسمبر عام ١٨٠٥ معركة حاسمة ضد الروس والنمساويين، وبعد أسابيع قليلة وقَّعت النمسا صلح بريسبورج.

يينا Jana بلدة في ألمانيا ١٢ ميلًا جنوب شرق ويمر تحيط بها تلال من الحجر الجيري، انتصر فيها نابليون على النمساويين يوم ١٤ أكتوبر عام ١٨٠٦ لمرتين في يوم واحد.

واجرام Wagram قرب فيينا هزم فيها نابليون الارشيدوق شارل النمسوي في يوليو عام ١٨٠٩.

ليبزيج v. Leipzig ٧٠ ميلًا شمال غرب درسدن في ساكسوني بألمانيا حدثت في جوارها المعركة الكبيرة في عام ١٨١٣ وانتصر فيها حلف دول أوروبا على نابليون.

المهمة ، وبذلك أوجدت حربًا كانت المقدرة على المناورة فيها أكثر كسبًا من الصمود والثبات في القتال ، وسيطرت حرب المواقع على حرب الحركة ، وسادت استراتيچية الحصول على فوائد صغيرة متتالية على استراتيچية الإفناء والتدمير.

وتغير هذا كله في الثورة التي هزت أوروبا بعد عام ١٧٨٩ ، وكانت الحرب العالمية التي استمرت من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٣ ـ فيما عدا السنوات الأولى منها وفيها عدا الصراع بين بريطانيا وفرنسا ـ سلسلة من الحروب الصغيرة تقررت نتيجة كل منها في ميدان المعركة ، وانتهت بفرض السلام وإملاء شروط الصلح.

ويتفق الثقات على أن هذه الحروب توضح نقطة تحول مهمة تنهي الأمد الذي بدأ من عام ١٥٠٠ ، كما تعتبر أيضًا بداية أمد جديد مازلنا نعيش فيه حتى اليوم ، وينسب الكتاب هذا التغير إلى الثورة الفرنسية التي أوجدت الرأي العام القومي ، كما أوجدت علاقات وثيقة بين الحكام والمحكومين ، وقد ساق هذا الرأي ديلبروك وچانس منذ نصف قرن من الزمان. كما تتضح الأدلة على هذا الاتجاه في كتابات الچنرال كولين الذي بحث عن العلائم المادية أو عن الإيضاح الفني له على الأقل ، وانتهى إلى أن وجد هذه التحسينات في المدفعية وتنظيم الجيش وبناء الطرق والرسم الطبوغرافي في النصف الأخير من القرن الثامن عشر؛ على أن الكثيرين مع تقديرهم لأهمية التقدم الفني فإنهم ما زالوا يعتبرون أن تأثير الثورة السياسية كان أكثر عمقًا ، وكما قال ديلبروك: «إن الدوافع السياسية الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية قد أوجدت تكوينًا جديدًا للجيش ، هذا التكون الذي أوجد بدوره تكتيكات جديدة ، ومن هذا

كان من الضروري أن تنمو استراتيچية جديدة»[١].

على أن هذا التحول أو التغيير إنما يتضح في كتابات ثلاثة من الكتاب يمثل كل منهم مرحلة بارزة في تاريخ الفكر العسكري ، فقد أدرك فردريك الأكبر غاية ما يمكن إدراكه من الكسب العسكري في أوروبا في الأحوال التي وجدت قبل الثورة الفرنسية: وكان جيبير من مريدي فردريك ولكنه تنبأ (بدرجة أكبر مما فعل فردريك) بالتغييرات التي جاءت بعد ذلك؛ وكان بيلو معاصرًا لحروب الثورة ولحروب نابليون ، وقد استطاع أن يدرك تدريجيًّا كل الدروس التي جاءت بها هذه الحروب؛ ولكن فردريك وحده بين هؤلاء الثلاثة كان هو القائد الذي توافرت له التجربة العملية وتصف كتاباته الحرب العملية إذ ذاك ، فإن جيبير وبيلو برغم أنهما كانا من ضباط الجيش فإنهما لم يقودا أيَّ جيوش وقد اشتهرا كناقدين ومصلحين وبما تنبأ بحدوثه؛ إن فردريك يكشف عن عقل له كامل السيادة على الموضوع الذي يعرض لبحثه ، وكان جيبير وبيلو ـ لأنهما يكتبان عن تجربة قليلة مع ما يهدفان إليه من أمور تتجاوز الأحوال القائمة المرئية المعروفة ـ أقل قوة وثباتًا فيما يحاولان الوصول إليه؛ ولهذا فإن من الممكن أن نعتبرهما قد حاولا تصوير الصعاب المعروفة في كل العصور والتي في ضوئها تعدل النظرية العسكرية القائمة من أمرها لتتمشى مع الواقعية في عالم الحقيقة.

***

---

(١) انظر H. Debbrück Geschichte der Krieqskunst

«تاريخ فن الحرب» هـ. ديلبروك في ٧ مجلدات طبع برلين (١٩٠٠-١٩٣٦) المجلد الرابع ص ٣٦٣و ٤٢٦ «التعاليم العسكرية لنابليون» بقلم ج. كولين باريس ١٩٠٠.

[٢]

وقد أعطى غزو فردريك الأكبر لسيليزيا دون إنذار عام ١٧٤٠ ، أعطى أوروبا الطابع أو الصورة التي قيل لها فيما بعد «الحرب الخاطفة» أو «الحرب البرقية»؛ وفي الحروب السيليزية الثلاث استطاع فردريك أن يحتفظ بالولاية التي استولى عليها ، والتي مكنته من أن يضاعف مساحة مملكته الصغيرة ، كما استطاع أن يثبت ـ تبعًا لقتاله ضد ظروف مضادة متباينة ـ أنه دونما جدل أقدر على القيادة من كل خصومه ، وكانت تتوافر في بروسيا التي يحكمها المظاهر الأساسية للدولة التي تحكمها أسرة ملكية ، وكانت بروسيا ـ بين كل الدول الرئيسة في أوروبا ـ أكثر الدول التي تحكم من أعلى ، وأقلها حيوية من ناحية روح الأهالي المواطنين ، وأضعفها في المواد والموارد البشرية ، وكان فردريك كاتبًا موهوبًا موفور الإنتاج ، وفي كتابات ملك كفردريك يحكم مملكة كبروسيا فإن الأصول العامة التي أجملت في الفصل السابق يمكن أن تتشكل في صورة صلبة محددة.

وكان أول أعمال فردريك العسكرية المهمة كتابه «الأصول العامة للحرب» والذي كتبه في عام ١٧٤٦ مستندًا إلى تجاربه في الحربين الأوليين في سيليزيا ، وقد نشر في طبعة محدودة سرية بين قادته ، وقد أدى استيلاء الفرنسيين عام ١٧٦٠ على نسخة منه إلى طبعه وانتشاره؛ وقد أوضح فردريك بعد هذا كل آرائه في كتابه «العهد السياسي» والذي كتبه عام ١٧٥٢ للاستخدام الشخصي لمن يخلفونه على العرش ، وقد ألحق كتابه «الأصول العامة للحرب» بكتابه «العهد السياسي» كملحق له.

وفي عام ١٧٦٨ عندما انتهت كل حروبه وكانت آراؤه إلى حد ما

تتطلب التعديل فإنه كتب كتابه «العهد العسكري» قاصدًا به توجيه خلفائه ، ثم عاد في عام ١٧٧١ وأصدر لقادته كتابه «عناصر فن اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن القتال ـ التكتيك ـ». وقد كتب باستمرار وعلى طول حكمه تعاليم خاصة لمختلف فروع الجيش.. وقد جُمعت هذه التعاليم مع كتاباته الأخرى ونُشرت في عام ١٨٤٦؛ ومن بين مؤلفاته التي تركها تُنشر للناس عامة قصيدة طويلة وسمت بعنوان «فن الحرب» ، وقد جاء فيها حديث عن عدد من الموضوعات السياسية التي تمس المسائل العسكرية ، كما تحدث فيها عن تاريخ وذكريات حكمه ، وقد كتب فردريك مؤلفاته بالفرنسية ، ولم يكتب بالألمانية غير تعاليمه الفنية ، وتمتد حياته الأدبية ـ أي تمتد المدة التي كتب فيها ـ لأكثر من أربعين سنة ، وقد حاول معاصروه أن يصلوا من كتاباته إلى أسرار قيادته.

والواقع أن فردريك ظل حتى آخر لحظة من حياته يتبع آراءً واحدة فيما يختص بتنظيم الجيش ، وفي أصول فن القتال. أما في السياسة والاستراتيچية فقد تحول من الاعتداء العنيف الذي كان رأيه في عام ١٧٤٠ إلى فلسفة عدم النشاط النسبي في عصر متأخر.

وكان تنظيم الجيش موضع عناية قديمة من حكام بروسيا ، وفي عام ١٦٤٠ أي قبل تولي فردريك للعرش بقرن كامل من الزمان فإن جده الأكبر وصل إلى العرش في خضم حرب الثلاثين السنة ، ولم تكن هناك مملكة بروسيا.. بل كانت هناك مجموعة من المناطق على طول السهل الشمالي الألماني تجتازها وتقوم بالسلب والنهب فيها جماعات المحاربين المأجورين لكل قوة مقاتلة ، وقد أوجد «المختار الأكبر» ـ جد فردريك ـ جيشًا؛ ولكي يدعم هذا الجيش أوجد سياسة واقتصاديات جديدتين ، ومع حكمه بدأت

الظاهرة المميزة لبروسيا.

وهنا يجب أن نلاحظ أمورًا ثلاثة:

أولها: أن وجود بروسيا إنما يرجع إلى جيشها.

وثانيها: أن العلم العسكري والسياسي والاقتصاديات قد ارتبطت كلها معًا لتوجد فن إدارة الحكم للدولة.

وثالثها: أن بروسيا التي أوجدتها أسرة هوهنزلرن كانت انتصارًا لتخطيط معنيٍّ به ، وفي وقت والد فردريك الأكبر ـ أي فردريك ويليام الأول ـ كان ملك بروسيا يعتبر من ناحية عامة من أكثر العاملين في أوروبا طاقة على العمل المتواصل؛ ذلك لأنه كان يوجه كل أمور الدولة بشخصه وكانت كل الخيوط في أصابع يده ، وكان عقله وحده هو المركز الذي يصدر عنه كل الإشعاع للدولة ، ولم يجيء «النظام» إلى بروسيا قط نتيجة لتشاور الأفراد وتعاونهم؛ وقد أشار فردريك مرة إلى هذا بقوله: «لو أن نيوتن قد اضطر إلى مشاورة ديكارت وليبنتز فإنه ما كان ليصل إطلاقًا إلى ما وصل إليه من نظرياته العلمية والفلسفية».

كان ملك بروسيا في نظر فردريك الأكبر يجب أن يكون له جيش وأن يوجد توازنًا قويًّا بين الطبقات في الدولة ، وأن يوجد كذلك توازنًا تامًّا بين الإنتاج الاقتصادي وبين القوة العسكرية ، وأن يحافظ على طبقة النبلاء بأن يحرِّم بيع أراضي النبلاء للفلاحين وسكان المدن؛ وكان فردريك يرى أن الفلاحين أكثر جهلًا من أن يكونوا ضباطًا[١] ، وأن اختيار الضباط من بين

(١) «العهد السياسي» Politisches Testament ١٧٥٢- ضمن مؤلفات فردريك الأكبر في عشرة مجلدات طبع برلين ١٩١٢ – ١٩١٤.

البرجوازيين معناه القيام بالخطوة الأولى لاضمحلال الجيش وسقوطه[١] ، وكان يرى تبعًا لهذا أن الإعداد الصلب لبناء الطبقات ـ مع وجود أشخاص من النبلاء وأرض للنبلاء لا يجوز انتقال ملكيتها لغيرهم ـ كان يرى أن هذا ضروريًا للجيش وللدولة ، ويقول فردريك: إن كولونيلا شجاعًا يمكن أن يوجد كتيبة من الشجعان ، وأن القرار الذي يصدره ضابط برتبة الكولونيل في لحظة حرجة قد يؤثر في مستقبل الدولة ، ولكن الملك يجب أن يتأكد من أنه تتوافر في هؤلاء «الأرستقراطيين» النبلاء الروح المرجوة. ويقول فردريك في أولى صفحات كتابه «العهد السياسي» ، ويقول لخليفته مسرًّا له: إنه في الحرب السيليزية الأولى قام بجهد كبير ليبث في ضباطه فكرة القتال من أجل مملكة بروسيا[٢].

وكان فردريك يبدي احترامًا عنيفًا للجنود الذين يخاطرون بحياتهم في خدمته ، إلا أن أهم ما كان يعني فردريك من جنوده هو المسائل المادية والخاصة بالضبط والربط ، وكان يقول بأن أسر الفلاحين في شرق الألب يجب أن تحمى ، ولا يجب أن تؤخذ أراضيها بواسطة البرجوازيين أو النبلاء ، ولا يجند من هؤلاء إلا صغار السن الذين لا يعملون في الزراعة ، على أنه من وجهة عامة يعتبر الفلاحين وسكان المدن ذوي نفع كبير كمنتجين «فمن الضروري أن يعنى بالعاملين الكادحين من أفراد الشعب عناية الإنسان بعينيه ، ولا يجوز في وقت الحرب جمع الجنود من المواطنين إلا عندما

(١) «مجمل إيضاح طبيعة الحكومة البروسية والأصول التي قامت عليها» لفردريك الأكبر ـ المجموعة . طبع برلين في ثلاثين مجلد ١٨٤٦ ـ ١٨٥٦ المجلد التاسع ص ١٨٦.
(٢) «العهد السياسي» ١٧٥٢ ـ المجلد السابع ص ١٤٦ ، مجموعة أعمال فردريك الأكبر المجلد ٢٩ ص ٥٨.

تضطرنا الضرورة القصوى والحاجة الملحة إلى هذا»[١] ، فإن نصف الجيش أو أكثر يمكن أن يجمع من الجنود المحترفين من غير البروسيين ومن أسرى الحرب ، ومن الفارين من الجيوش الأخرى ، ويمتدح فردريك الطريقة الإقليمية البروسية ، والتي تقضي بالمساواة في احتمال أعباء التجنيد بأن يجمع أفراد مناطق معينة للعمل في «آليات» معينة ويكونوا هم مواردها البشرية.

وبهذه الطريقة ، وباستخدام الأجانب ، لاحظ فردريك راضيًا في عام ١٧٦٨ أن الذين يحتاجهم للتجنيد في كل عام من المواطنين البروسيين هم خمسة آلاف مقاتل فقط ، ومع هذا فإنه قد حزر قيمة وأهمية القوات التي تجمع من الأهالي المواطنين والذين يتجمعون في آليات إقليمية ، أي أن ينتظم أهالي كل منطقة جنبًا إلى جنب في الحرب؛ وكان فردريك قد كتب في عام ١٧٤٦ عن أن جنوده الذين جمعهم من الأهالي قد قاتلوا بشرف وشجاعة. ثم يردف قائلًا: «وبمثل هؤلاء الجنود يستطيع الفرد أن يهزم العالم كله لو لم تكن الانتصارات بالنسبة لهم مجهدة قتالة كما هي بالنسبة لخصومهم»!. ولكنه مع هذا كان في تاريخ متأخر ، شأنه شأن غيره من الفلاسفة ، قد قدر الكثير من الأهمية لعامل الوطنية ، ولكنه لم يفعل شيئًا في هذا الشأن. ***والواقع*** أنه لم يكن ليستطيع هذا إلا لو أوجد روحًا ثورية في مملكته ، وقد بقى يظن أن الجندي العادي لا شرف له ، ومات وهو يعتقد بأن استخدام الأجانب للقيام بالقتال هو سياسة حكيمة للدولة[٢]..

---

(١) «العهد العسكري» .Militarisches Testament Von ١٧٦٨ المجلد السادس ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) «المبادئ العامة للحرب». .Principes génèaux de la guerre ١٧٤٦ ـ مجموعة أعمال فردريك مجلد ٢٨ ص ٧ ، «رسائل في حب الوطن» ـ المجموعة.. المجلد التاسع ص ٢١١-٢٤٤.

ولم يكن جنود فردريك يحسون بارتباط داخلي نحوه ، وكان «فرار الجنود» هو الحلم الذي يخيف كل قادة القرن الثامن عشر ، وعلى الأخص في ألمانيا غير الموحدة؛ حيث كان من الممكن أن نجد رجالًا يتحدثون ذات اللغة في كلا الجانبين المتضادين في كل حرب؛ وفي عام ١٧٤٤ كان على فردريك أن يقف تقدمه في بوهيميا بسبب أن جيشه كان قد بدأ يتفكك ، وقد وضع قواعد عنيفة وقوانين صارمة ليمنع فرار الجنود ، ومن أوامره لعلاج هذا أن لا يعسكر الجيش قرب الغابات الكبيرة ، وأن تحرس مؤخرة الجيش وجانباه بالخيالة ، وأن يتجنب السير الليلي إلا عند الضرورة القصوى ، وأن يقاد الجنود في صفوف وبقيادة ضابط عند ذهابهم للمرعى أو للاستحمام[١].

ومع أن فردريك كان يعمل بجيش هو في الواقع مادة خام غير موثوق بها!! فقد أصر على ضرورة توافر الضبط والربط في هذا الجيش بالصورة التي كانت في عهد أبيه ، وقد قال: «إن أقل فقدان للضبط والربط سيؤدي إلى الشراسة والتوحش»[٢]؛ وهنا أيضًا كان الجيش مرآة للدولة ، فإن الهدف من الضبط والربط كان ـ من الناحية الجزئية ـ لإظهار أثر السيادة والسلطان؛ وذلك بجعل الجندي مخلوقًا بشريًا فقط بحكم السلطة عن طريق منع مثل هذه الجرائم «كالسُّكْرِ» أو «السرقة»؛ ولكن الهدف الأساسي كان هو تحويل الجيش إلى آلة تعمل بعقل ورغبة فرد واحد ، وكان يقول: «ويجب أن يفهم الضباط والجنود أن كل قرار إنما هو من عمل رجل واحد». وفي مكان آخر يقول: «ولا يجب أن يناقش أحد الأسباب؛ بل إن

(١) «المبادئ العامة» المجموعة مجلد ٢٨ص ٥-٧ ، المجلد ٣٠ ص ٥٧-٦٥و ١١٩-١٢٣.
(٢) «العهد السياسي» مجلد ٧ ص ١٧٢.

كل فرد يجب أن ينفذ» أي إن التفكير يتم مركزيًّا في عقل الملك وحده ، وكل ما يمكن أن يفعله الجنود ـ على ما يقول فردريك ـ هو أن يتزودوا «بحب الوحدة»[*] لتنغمر شخصياتهم في آلياتهم ، فلما تقدمت السن بفردريك وأمسى أكثر شراسة وقسوة لاحظ أن العناية الطيبة تؤثر في الرجال العاديين أقل مما يؤثر فيهم التهديد والوعيد ، وأن الضباط يجب أن يقودوا جنودهم إلى الخطر ، «ولهذا فما دام شرف القتال لا يؤثر فيهم ولا يعتبر عاملًا دافعًا لهم فمن الضروري أن يخافوا قادتهم أكثر مما يخافون الخطر»؛ ولكنه أضاف إلى هذا أن الإنسانية تتطلب تزويد الجيش بعناية طبية جيدة[١].

على أنه لما كان «الضبط والربط» قد جعل الجنود ممتثلين طائعين لقادتهم سَلِسِي القياد ، فقد كان من الضروري أن يدرب الجنود جيدًا ، وقد اشتهرت بروسيا بميادين تدريبها؛ حيث أعجب المراقبون الأجانب بأن الكتائب والسرايا تقوم بتشكيلات معقدة بمهارة كبيرة ، وكان القصد من هذا التدريب المتواصل هو الحصول على خفَّة الحركة التكتيكية ، والوصول إلى المهارة في الانتقال من تشكيل السير إلى تشكيل القتال ، والثبات تحت النيران والطاعة التامة لأوامر القيادة ، وقد كرر فردريك أن جيشًا مدربًا بهذه الصورة إنما يسمح بتطبيق كل أصول فن القيادة على أقصى حد ، كما سيستطاع تفهمه وإدراكه وتنفيذه ، فإذا ما تم تشكيل هذا كله بين يديه فإن عقله سيكون طليقًا للعمل؛ ولهذا فإن فردريك لم يجهد قط من مداومة الإلحاح على قادته بأن لا يفتروا عن متابعة تدريب جنودهم في السلم وفي

(*) «حب الوحدة» Esprit de Corps يعتبر حديث فردريك عنها في الواقع شيئًا جديدًا بالنسبة لعصره. ولكنها ذات قيمة كبيرة في العصر الحديث. راجع كتاب Psychology for the Fighting Soldiers ص ٢٨٥ – ٣٣٢ طبع أمريكا عام ١٩٤٣.

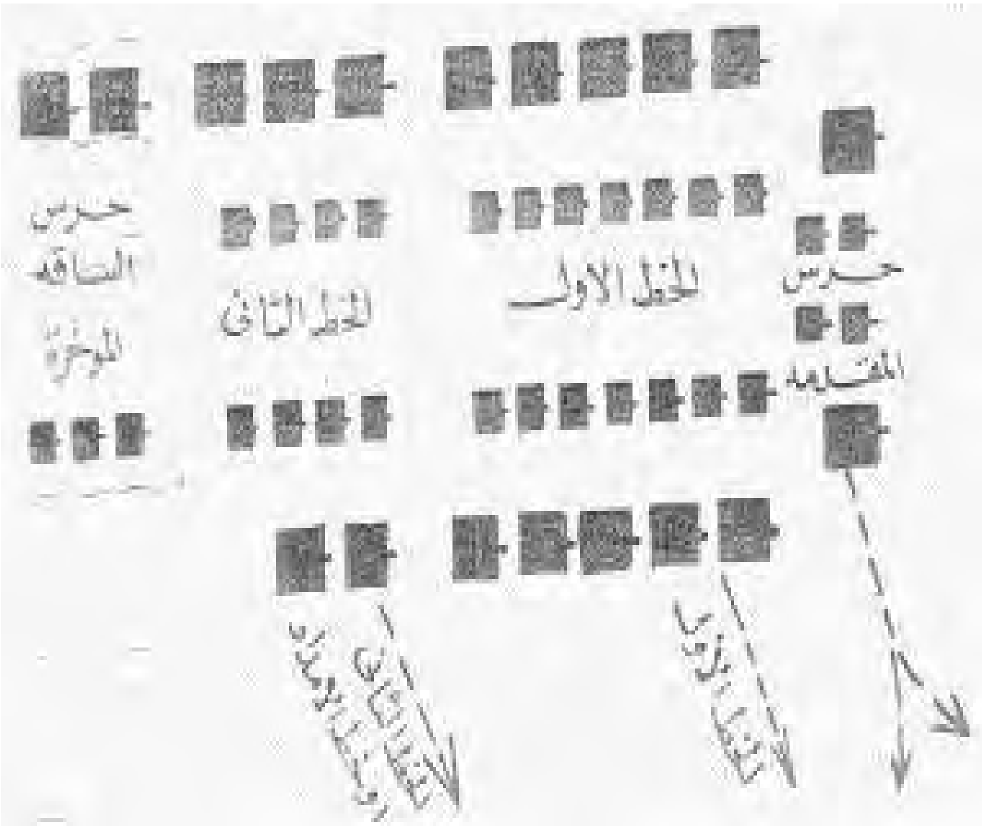
(١) «العهد العسكري» مجلد ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٧ ، المجموعة . مجلد ٢٨ ص ٥.

الحرب: «وما لم يكن كل رجل مدربًا من قبل في وقت السلم على ما سيقوم به في الحرب ، فلن يكون لدى القائد إلا جماعة من الأهالي يحملون اسم صناعة أو حرفة لا يعرفون كيف يقومون بها»(١).

وكانت الجيوش المتضادة كلها تتبع ذات الأسلوب والطابع؛ ولهذا فإن القتال بجنودٍ هذه حالهم ، وتكون لهم هذه الروح الآلية كان مسألة تخضع للنظم وأساليب قائمة ولم يكن فيها مجال لقوة الابتكار من جانب القادة.

وكانت القوات المتضادة من الجانبين المتقاتلين مثلها مثل أحجار الشطرنج في بداية اللعب ، فعلى الجانبين الفرسان ، وتتوزع المدفعية في المؤخرة ، وتنتظم كتائب المشاة في خطين جامدين متوازين أولهما وراء الثاني ببضع مئات من الياردات؛ ويتكون كل من الخطين ـ أو على الأقل الأول منهما ـ من ثلاث مجموعات ، ويطلق جنود كل مجموعة النيران بأمر قائد واحد ، وتطلق كل مجموعة النيران أثناء اشتغال جنود المجموعتين الأخريين بإعادة التعمير ، ولم يتحول فردريك قط عن ضروريات هذا التشكيل للمعركة وإن كان قد سمح لنفسه ـ أسوة بالقادة الأكفاء المجيدين ـ بالحرية في تطبيقه تبعًا للأغراض الخاصة ، وكان نظام المعركة هو الذي يوجه نظام السير ، فالجنود يجب أن يسيروا تبعًا لتنظيم فردريك في قوات متأهبة دائمًا لتتحول بسرعة إلى خطوط للنيران مع بقاء الخيالة على الجانبين ، وكان التنظيم للمعركة هو أيضًا الغرض النهائي للتدريب العنيف القاسي ،

(١) «العهد السياسي» ١٧٥٢ المجلد السابع ص ١٧٣- ١٧٥ ، المجموعة .. المجلد الثامن والعشرون ص ٧.



تنظيم السير في تخطيط فردريك الأكبر وباتجاه القول لليمين يستطيع تغيير الدوران لليسار بالفصائل ليكون في تشكيل المعركة

ولم يكن من السهل الإبقاء على الجنود في خطوط تقف في السهل المكشوف جنبًا إلى جنب ولا يفصلها عن العدو الذي تواجهه إلا مئات قليلة من الياردات؛ ولهذا فقد كانت الأوامر والنظم عنيفة صارمة «فإن أي جندي يبدو في أثناء القتال وكأنه سيفر أو حتى يضع قدمه بعيدًا عن خط القتال فإن ضابط الصف الذي يقف وراءه يطعنه لتوه برمحه «السونكي» ويقتله في مكانه»[١]؛ فإذا فرَّ العدو فإن «الخط المنتصر» الجنود المنتصرين يبقون في أماكنهم، وكان سلب القتلى والجرحى محرمًا، وكانت عقوبة ارتكاب هذا هي الإعدام..

وكان فردريك ينظر نظرة تقدير خاص إلى الفرسان الذين كانوا نحو ربع تعداد جيشه؛ ولكنه استخدام الفرسان في عمليات الاصطدام وبوحدات تكتيكية جامدة؛ ولهذا كانت عملياته للاستكشافات ضعيفة، وفي عام ١٧٤٤ لم يستطع بعشرين ألفًا من الفرسان أن يكتشف مواقع النمساويين، ولم ينجح كذلك في استخدام المشاة الخفيفة في «المناوشة» وأعمال الدوريات، وفي الوقت الذي كان فردريك يعرف بوجود مجموعات كبيرة من الجنود «الخفيفة» سواء الراكبون أو المترجلون لدى النمساويين بين قواتهم المجندة من الكرواتيين والباندور.. فإنه لم يكن يعرف ماذا يمكن أن يفعل بمثل هؤلاء الجنود لو وجدوا عنده[٢].

وقد شهدت السنوات الوسطى للقرن الثامن عشر تزايدًا سريعًا في استخدام المدفعية بالنسبة للأسلحة الأخرى، تزايدًا لا مثيل له في أي فترة

(١) Dispositian, Wie es bci Vorgenhender Battaille bei Seiner Komigliehen Majestat im Preussen Armée unveranderlich Soll gehalten Werden (١٩٤٥) in Vres Oeu xxx, ١٤٦.

(٢) ديلبروك ذات المرجع المجلد الرابع ص ٣٢٧، ٣٢٨.

أخرى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين[١]. فقد اتجه النمساويون

(١) من العمود ٢ في الجدول التالي تتضح لنا زيادة نسبة المدفعية في الحرب منذ عام ١٦٠٠ ، وقد نقل هذا الجدول من كتاب «التاريخ العسكري للحروب» بقلم بودارت ، طبع ڤيينا عام ١٩٠٨ ، الصفحات ٦١٢ و ٧٨٤–٧٨٥ و ٨١٦–٨١٧.

	١	٢	٣	٤
حرب الثلاثين سنة	١٩٠٠٠	١.٥	١	٠.٢٤
حروب لويس الرابع عشر				
حرب الوراثة الأسبانية	٤٠٠٠٠	١.٥٧	٧	
حروب فردريك الأكبر				
حرب الوراثة الأسبانية	٤٧٠٠٠	٣.٣٣	١٢	٠.٨٢
حرب السبع السنوات				١.٤٠
حروب الثورة الفرنسية	٤٥٠٠٠	–	١٢	
التحالف الأول				٣.٠
التحالف الثاني				٤.٤
حروب نابليون	٨٤٠٠٠	٣.٥	٣٧	
التحالف الثالث				٧.٠
حرب عام ١٨٠٩				١١.٠
حرب عام ١٨١٢				٥.٢ =

بعد خسارتهم المزرية في سيليزيا إلى الاستزادة من المدفعية على التخصيص لمواجهة تهديد قوات فردريك الخفيفة الحركة ، وكان الفرنسيون أقدر مدفعيي أوروبا وأكثرهم تقدمًا من هذا الفن ، وكان فردريك يبدي دائمًا حسرته على أن بروسيا مع أنها بين الدول الكبرى إلا أنها أقلها قدرة على إخراج مدفعيين مهرة ، وكانت المدفعية على ما لاحظ فردريك هي الهوة الحقيقية التي تتسرب منها مالية الدولة ، ومع هذا فإنه شارك في هذا التسابق ، وكان فردريك ـ نتيجة لتفهمه التحركات السريعة ـ هو الذي أدخل مدفعية الميدان التي تجرُّها الخيول لنقلها من موقع إلى آخر أثناء المعركة؛ وقد استمر مصرًّا على أن المدفعية ليست «سلاحًا» قائمًا بذاته؛ بل سلاحًا معاونًا أقل مكانة من المشاة والخيالة ، ولكنه قدم آراء كثيرة عن استخدامها.

ومن آخر ما كتب فردريك في هذا الشأن: هو ما جاء على ما يبدو في تعليمات عام ١٧٨٢ن وقد أوضح فردريك تأثير الفرنسيين من أصحاب النظريات في المدفعية أولئك الذين كان نابليون سيتعلم على أيديهم ، وهنا يأمر فردريك ضباط مدفعيته أن يركِّزوا نيرانهم الأولية على مشاة العدو

=الحرب الأهلية الأمريكية	٥٤٠٠٠	٣.٠	١٨	١.٠
حرب عام ١٨٧٠	٧٠٠٠٠	٣.٣	١٢	٩.٠
الحروب الروسية ـ اليابانية	١١٠٠٠٠	٣.٧٥	٣	١.٠

ويوضح العمود (١) متوسط تعداد الجيش ، وقد أُخِذَ المتوسط مما أمكن الوصول إليه من ثلاثين معركة في كل حرب.

ويوضح العمود (٢) عدد المدافع بالنسبة لكل ١٠٠٠ جندي.

ويوضح العمود (٣) عدد المعارك التي زاد فيها تعداد الجيوش المتضادة عن ١٠٠.٠٠٠ جندي.

ويوضح العمود (٤) متوسط عدد المعارك التي كانت تحدث في الشهر الواحد.

ليشقوا ثغرة في خط العدو لمعاونة مشاتهم على النفوذ منها[١].

وتبعًا لاستخدام تشكيل غير متكسر للمعركة فإن فردريك ـ بسبب كون الهجوم بالمواجهة بين خطين قويين يؤدي إلى مجزرة ـ قد اتجه للكسب بالهجوم الجانبي ، ومن أجل هذا قد وضع أصول «السير المائل» الذي اشتهر به ، ومع إغفالنا للتفاصيل التكتيكية فمن الممكن أن نقول في بساطة أن غرض فردريك من تفضيل هذا اللون من القتال وهذا الطابع للمعركة هو الحصول على نصر سريع في حال النجاح بطيّ خط العدو ، كما أنه في حال الفشل يمكن من تقليل الخسائر؛ لأن قيام الجناح المتأخر للخلف بالمناورة يغطي انسحاب الجناح المشتبك بالعدو ، وقد مكنت خفة الحركة التي توافرت لفردريك مقترنة بالتنسيق لأعماله ، مكنته من أن يوجد تأثيرًا خاصًّا لهذه التحركات الجانبية ، والتي كانت في حدِّ ذاتها من بين أقدم الصور المستخدمة في الحرب[٢].

ولم يغير فردريك من آرائه تغييرًا جديًّا قط في هذه المسائل الخاصة بتنظيم الجيش وبالتكتيكات التي يستخدمها ، وإن كان قد غير من آرائه في المسائل الاستراتيچية العامة ، وقد بدا في البداية أنه سيدخل روحًا جديدة في صناعة العسكرية إلا أنه انتهى بأن قَبِلَ هذه التحديدات التي فرضها النظام السياسي في المسائل الخاصة بالظروف التي تحدث في غمرتها الحروب ، ثم الاشتراطات التي تحدد وقت ومكان الاشتباك في المعركة..

(١) «العهد العسكري» ١٧٦٨ المجلد السادس ص ٢٢٨» ، عناصر اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن التكتيك» المجلد التاسع والعشرون ص ٤٢ والمجلد ٣٠ ص ١٣٩-١٤١ و ص ٣٩١-٣٩٦.

(٢) المجموعة ... المجلد (٣٠) ص ٢٥ ـ ديلبروك ذات المرجع مجلد (٤) ص ٣١٤-٣٢٢.

وقد أدهش هجوم فردريك الخاطف على سيليزيا أوروبا كلَّها وأفزعها، وكانت الحرب السيليزية الأولى «١٧٤٠ - ١٧٤٢» مقامرة يائسة لعب فيها ملك بروسيا دوره وهو يخاطر بكل شيء، وفي الحرب السيليزية الثانية «١٧٤٤ - ١٧٤٥» ـ والتي كانت كسابقتها مرحلة من مراحل حرب الوراثة الأسبانية ـ استهدف فردريك أغراضًا كبيرة وعمل حتى للتدمير الكامل للملكية آل هبسبورج؛ وإذا كان هذا الهدف لم يدرك إلا أن فردريك احتفظ بسيليزيا، وقد باتت سياسته بعد هذه الحرب الثانية أقلّ أطماعًا، ثم عاد في حرب السبع السنوات «١٧٥٦ - ١٧٦٣» وبعد معركتي روزباخ ولوثين(*) ـ واللتين ربما أنقذتا بروسيا ـ عاد فردريك فاتخذ سياسة دفاعية رائعة ضد قوات فرنسا والنمسا وروسيا مجتمعة، والتي كان سكان كل منها على الأقل أربعة أضعاف سكان بروسيا؛ وكانت آخر حروب فردريك هي حرب الوراثة الباڤارية «١٧٧٨ ـ ١٧٧٩»، والتي كانت عبارة عن سلسلة من المظاهرات العسكرية لم تسفك فيها دماء.

وفي كتابه «المبادئ العامة للحرب» نجده يدعو إلى استراتيچية الحرب «البرقية» الخاطفة وإن كان لم يستخدم هذه التسمية قط، ويقول: «إن حروب بروسيا يجب أن تكون قصيرة مليئة بالحركة، ويجب أن يهدف القادة البروسيون إلى قرارات سريعة»[1]، وكانت هذه هي المبادئ التي عمل على أساسها أولًا.

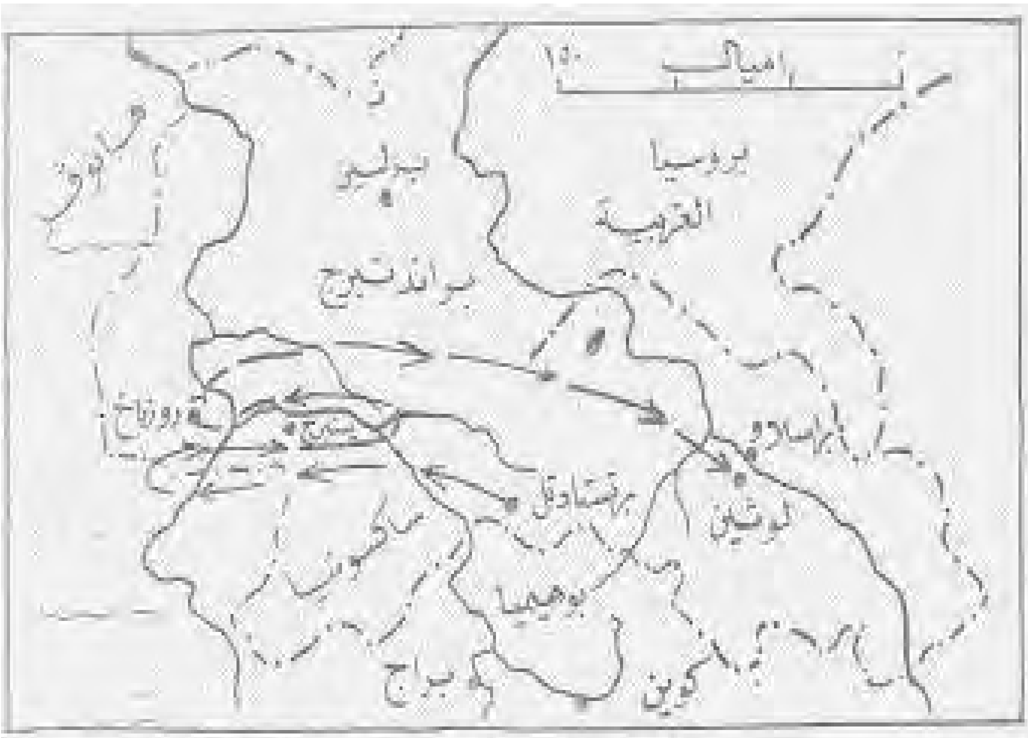
ومما يستحق الذكر: أن الأسباب التي أدت لهذه العمليات المليئة

(*) لوثين ـ ٥ ـ ١٢ ـ ١٧٥٧.. قال عنها نابليون: إنها وحدها تكفي لتخليد اسم فردريك كأعظم عبقرية عسكرية في أوروبا.

(١) «المبادئ العامة» ١٧٤٦ .. المجموعة المجلد ٢٨ ص ٨٤.

بالمخاطرة هي ذات الأسباب التي جعلته في سنوات أخرى تالية أكثر حذرًا؛ وقد قال: «إن حربًا طويلة لابد وأن تنهك موارد بروسيا وتحطم الضبط والربط الجيد طابع الجندي البروسي ... هذا الطابع الذي يثير الإعجاب» ، وفي تفضيل فردريك للحرب السريعة القصيرة الأمد فإنه في الواقع قد قارنها ووازن بينها وبين كل صور الحرب.. حتى الحرب الطويلة الأمد القليلة الاستهلاك في الرجال والعتاد. ومهما كانت الحال فإن الظروف المسيطرة واحدة متماثلة ، سيما وأنه من غير الممكن مع موارد الدولة المحدودة.. ، ومع اعتماد الجيوش على المستودعات التي تعد من قبل ، ومع استخدام الجنود الذين لا تتوافر لهم ـ مهما كانت درجة تدريبهم ـ الدوافع التي تمكن من المحافظة على الكفاية والقوة في أوقات الشدة ، من غير الممكن مع هذا كله احتمال الحرب الطويلة الأمد.

ولم يكن فردريك يستطيع في الواقع التغلب على أي من هذه الصعاب؛ فهو لم يكن يستطيع أن يجعل بروسيا دولة موفورة الثروة؛ بل كل ما كان يستطيعه في هذا هو أن يقتصد في مواردها ، ولم يكن يستطيع أن يفعل ما فعلته حكومة الثورة الفرنسية من أن يجعل جيوشه تعيش على البلاد التي تحتلها ، وإن كان هو قد أوصى بهذا؛ وذلك لأن هذا كان سيسبب بعثرة جيوشه لو توزعت للبحث عن احتياجاتها المادية ، كما أن أفرادها سيفقدون معنوياتهم إذا لم يحصلوا على تموينهم بانتظام ، ولم يكن كذلك يستطيع أن يعتمد على أي ترحيب من سكان الأراضي المحتلة ، وقد أخفقت جهوده أكثر من مرة في إيجاد طابور خامس في بوهيميا ، ولم يكن يستطيع أن يقوم بتقوية وإنعاش الروح المعنوية في جنوده بين وقت وآخر دون أن يغير من كل أسلوبه ووجهة نظره في الحياة.



خط سير فردريك في حملة خريف ١٧٥٧

وبالإضافة إلى هذا فإنه عندما قوى النمساويون من مدفعيتهم وتحصيناتهم بعد أن فقدوا سيليزيا فإنهم قد أضافوا عوائق فنية تعطل من استراتيچية فردريك الاعتدائية؛ وكان الملك الشيخ في آخر سني حياته يكرر ما يلاحظه من تغير الأحوال عما كانت عليه في أيام شبابه ، ومن أن بروسيا لم تعد تستطيع أن تقاتل غير حرب مواقع ، وقد أثبت هو نفسه مع حدوده المعرضة ومستودعاته الثابتة. أثبت القيمة الكبيرة التي للتحصينات الدائمة ، وقد قال عن هذا: «إن خطى المشاة ـ راجع التخطيط لسير فردريك ـ في تنظيم متماسكة معًا». وقد تحولت تبعًا لهذا الأغراض الأساسية للحرب لتكون حصار هذه القلاع والتغلب عليها ، وكانت عمليات الحصار قد باتت فنًّا منذ أيام ڤوبان ، وقد تابع فردريك هذا التقليد وكان يقول: «ومن الضروري أن نضع توزيعاتنا للمعركة على أساس القواعد؛ أي المواقع التي تعد للقيام بالحصار» ، وقال فردريك في عام ١٧٧٠: «إن خطى المشاة ـ راجع التخطيط لسير فردريك ـ في تنظيم المعركة إنما يماثلان المتوازيات التي كانت تعدها القوات التي تقوم بالحصار» وحتى في احتلال القرى فإن هذه الأصول يجب أن لا تغيب عن البال ، ولم يكن هناك أبعد من هذا في التوجيه الذي كان يتجه إليه التطبيق العسكري فإن نابليون لم يقم في حياته كلها إلا بحصارين اثنين(١).

ومرة أخرى فإن فردريك ـ على نقيض نابليون. بالرغم من أنه كان قائد معركة ناجحًا ـ لم يكن مغرمًا بالمعارك الكاملة المراحل ، أو بمعنى آخر: أنه لم يكن يحب الوصول إلى درجة الاصطدام القوي النهائي بين القوات

(١) التعليمات العسكرية ١٧٦٨ المجلد السادس ص ٢٤٧ و ٢٥٧ ، العهد السياسي ١٧٥٢ المجلد السابع ص ١٧٦ ، المجموعة المجلد ٢٩ ص ٤ و ٢١ و ٣٨.

الأساسية للطرفين المتقاتلين ، وكان من رأيه أن نتيجة المعركة تتوقف إلى حد كبير على الفرص ، وأن الفرص والظروف هي الشيء الذي يضاد التقدير الحسابي الدقيق الذي يعتمد على منطق الواقع وماديّاته ، فإن القدرة على التخطيط الجيد وقوة القيادة لإيجاد الطاعة (اللتين كانتا في رأي فردريك من أهم اللبنات الأولى لدعم بناء الحرب الفنية) لا يمكن الاعتماد عليهما في خضم الاشتباكات العنيفة الواسعة المدى ، «ويجب أن يلاحظ ـ بالإضافة إلى هذا ـ أن أغلب القادة إنما يتجهون هذا الاتجاه تبعًا للحاجة وللافتقار إلى موارد أخرى ، وليس هذا خاصية ممتازة فيهم؛ بل هو عادة علامة على القحولة والإجداب في مواهبهم»(١).

ولهذا لم يكن تدمير قوات العدو الأساسية هو الغرض الاستراتيجي العادي لفردريك ، ولا شك أنه قد أدرك عندما تحدث عن المعركة أن المنتصر يجب أن يحاول القيام بمطاردة مدمرة للعدو؛ ولكن لم تكن هذه المطاردة المدمرة مسألة سهلة ميسورة لجيش فردريك ، فإن الخيالة قد دربت على عمليات الاصطدام بوحدات صلبة متكتلة ، وكانت تواقة للفرار لو تبعثرت ، ثم إن الجنود الخيالة في جيش فردريك لم تكن تلهب مشاعرهم الغلظة نصف الوحشية أسوة بغير النظاميين من الكروات ، ولم تكن تلهب مشاعرهم أيضًا العقيدة السياسية كما هي الحال بالنسبة لجنود العصر الحديث؛ ولهذا فإنهم لم يكونوا يصلحون لمطاردة جيش مهزوم ، ولم يكن جيش فردريك ليستطيع القيام بما قامت به خيالة نابليون بعد يينا(*).

(١) انعكاسات على شارل الثاني عشر Reflexions sur Charles XII (١٧٥٩) المجموعة مجلد ٧ ص ٨١ ، دراسة في صور وتشكيلات الحكومة (١٧٧٧) المجموعة مجلد ٩ ص ٢٠٣.

(*) سار موارت طوال الليل حتى سقط على البروسيين المتعبين المنهوكي القوى حال ظهورهم من (برانتز لوا) مما اضطر هوهنلوه القائد البروسي بعد مقاومة عنيفة إلى إلقاء=

كان الغرض من المعركة في رأي فردريك هو أن يضطر عدوه للتحرك تاركًا له مواقعه التي يحتلها «كسبك للمعركة معناه أن تضطر عدوك ليسلم لك موقعه»[1] ، وهكذا باتت تتزايد في حروب فردريك صورة حرب المواقع ، حرب مناورات معقدة وحصيلة من الانتصارات الصغيرة أي ركام من الكسب القليل في كل مرة ، حرب بطيئة في جملتها ، وبذلك فهي صورة تختلف تمامًا عن الحرب السريعة العنيفة المليئة بالحركة التي أوصى بها في عام ١٧٤٦.

وقد كتب فردريك في عام ١٧٦٨ يقول: «إن حصولك على جملة أرباح قليلة يمكنك من جمع ثروة». وأضاف في عام ١٧٧٠: «إن كل المناورات التي يقوم بها القائد في الحرب تعود بالنفع على المواقع التي يحتلها كقواعد له يعمل منها.. كما تعود بأقل خسارة على المواقع التي قد يهاجمها» ، «ولعل فردريك كان يقصد هنا أن عمليات المناورة تمكن من إخراج العدو من مواقعه التي يحتلها دون أن تتعرض هذه المواقع إلا لأقل عمليات التدمير والإتلاف»؛ وقد أكمل فردريك حديثه بأنه من التجارب القاسية التي لقيها في بوهيميا يستطيع أن يقول بأن الجيش لا يستطيع أن يعمل بنجاح بعيدًا بدرجة كبيرة عن حدوده؛ وفي عام ١٧٧٥ كتب: «ألاحظ أن كل الحروب التي حدثت بعيدًا عن حدود بلاد أولئك الذين خاضوا غمارها كانت أقل نجاحًا من تلك التي خاضوها على مقربة من بلادهم ، ألا يمكن أن يكون هذا بسبب الشعور الطبيعي في الإنسان بأنه أكثر عدالة عندما

=سلاحه (١٤- ١٥ أكتوبر ١٨٠٦). «المترجم».

(١) العهد العسكري ١٧٦٨ المجلد (٦) ص ٢٤٦- ٢٤٩ ، العهد السياسي ١٧٥٢ مجلد (٧) ص ١٧٤.

يدافع عن نفسه أكثر مما يحس عندما يسبب خسارة لجاره؟!! بل وربما يكون السبب المادي أكبر قيمة من السبب المعنوي تبعًا لصعوبة الإمداد بالتموين والأغذية في نقط بعيدة عن الحدود ، ولصعوبة الإمداد السريع بالمجندين الجدد والخيول وذخائر الحرب»؛ ولا شك أن نابليون ، الذي استطاع أن يكسب معارك في أماكن بعيدة عن فرنسا كأوسترلتز ، كان من الضروري أن يبتسم لهذه التعاليم المليئة بالحذر بالرغم من أن «بورودينو»(*)قد تذكر بهذه التعاليم وقيمتها ، ولكن مع هذا فإن هذه القاعدة كانت صحيحة في رأي فردريك[1].

على أنه بالرغم من أن تفكير فردريك الاستراتيجي قد بقي في نطاق الحدود القديمة للحرب بالموضعية «حرب الموقع» ، وبالرغم من أنه قد بقي عازفًا عن خوض غمار المعركة الكاملة «وكان قادته هم الذين ألحوا عليه للعمل في العام الذي حدثت فيه معركتا روزباخ ولوثين» فإن فردريك لم يكن قط في جانب العمل السلبي في المعركة ، بل بقي يصر على أهمية المفاجأة ، وكان دائمًا على أتم أهبة في سنوات السلم التي تلت حرب السبع السنوات للوثوب ـ «بعد دقيقة واحدة من إنذاره» ـ على سكسونيا أو بوهيميا مزودًا بالمصورات التفصيلية والمعلومات الدقيقة ، وقد زودت وحداته بالمدافع الهاوتزر الجديدة زِنَة عشرة أرطال ، كما زودت بأسلوبين جديدين لهجوم

(*) «بورودينو»: قرية روسية تبعد ٧٠ ميلًا عن موسكو انتصر فيها نابليون على الروس الذين خسروا أربعين ألفًا ، أي ثلث جيشهم؛ بينا خسر نابليون اثنين وثلاثين ألفًا من مائة وثلاثين ألفًا ، وقد شيد القيصر نيقولا في القرية نصبًا تذكاريًّا لذكرى البرنس بيتر باجارايثون قائد الجيش الروسي الثاني الذي أصيب بجروح قاتلة يوم ٧ سبتمبر ١٨١٢.

(١) ذات المرجع مجلد (٦) ص ٢٤٨ ، المجموعة مجلد ٢٩ ص ٩ ، «تاريخ عصرنا» مقدمة لكتابات عام ١٧٧٥ مجلد ٢ص ٢٨ من المقدمة لا المتن..

الخيالة الاقتحامي، وقد احتفظ بهذين الأسلوبين كَسِرٍّ من أسرار الدولة.

وقد شجع فردريك الاستراتيچية الهجومية في الميدان تبعًا لأنها تسمح بطلاقة أكثر في الابتكار والمبادأة، ولكنه كان يحارِب راضيًا كمدافع، الأمر الذي كان عليه أن يفعله دائمًا عندما يكون أقل قوة من عدوه، أو عندما يتوقع أن يكسب نفعًا بعامل الوقت، ولكنه كان يستخدم دفاعًا إيجابيًّا يمكنه ـ عندما يستند إلى تحصينات دائمة ـ من حرية اقتحام مواقع العدو وقوَّاته المنفصلة.

وقد قال: «إنما يخدع القائد نفسه عندما يفكر في أنه يستطيع إدارة حرب دفاعية بحال جيدة بأن يبقى سلبيًّا طوال الحملة دون أن ينتفع بقوى المبادأة والابتكار .. فإن مثل هذا الدفاع ينتهي دائمًا بأن يزاح جيشه عن الأرض التي قصد أن يحميها»[١].

وقد بدأ شك فردريك يتزايد في الكسب الذي يمكن أن يحصل عليه من الحرب في ضوء تلك الظروف التي كانت قائمة يوم ذاك، ومع أنه بدأ ظهوره العام بحصوله على أكثر نجاح ثوري في توازن القوى.. مما أثر في قارة أوروبا طوال حياته، فقد انقلب إلى رجل يطلب السلام بعد انتهاء استيلائه على سيليزيا، وانتهى باعتقاده القوي في قيمة التوازن الأوروبي بعد أن باتت بروسيا عاملًا من عوامله الرئيسية، وكان ينظر إلى الاتساع التدريجي في بولندة وساكسوني وبوميرانيا السويدية من وجهة النظر البروسية، ولكن فيما عدا التقسيم الأول لبولندة والذي اتجه دون حرب ودون أي اضطراب في توازن القوى، الأمر الذي أرضى كل السياسيين،

(١) «العهد العسكري» ١٧٦٨، المجموعة مجلد (٦) ص ٢٥٣ و ٢٦٠-٢٦١.

فإنه كان راغبًا في أن يترك الاتساع التدريجي الذي يتبع الحوادث لخلفائه من بعده؛ وكان فردريك رجلًا من أسرة ملكية حاكمة؛ فهو لم يكن ثائرًا ولا مغامرًا ، وكان في استطاعته أن يترك شيئًا ليفعله غيره ، وفي عام ١٧٧٥ وقف في جانب إبقاء الحال على ما هي عليه ، وقد كتب: «يجب أن يقدر الطامع قبل كل شيء أن التسليح والنظام العسكري متماثلان في أوروبا كلها ، وأن قيام الأحلاف قد مكن من المساواة في القوة بين الأطراف المتضادة ، وكل ما يمكن أن يحصل عليه الأمراء الحكام من نفع كبير في الوقت الحاضر هو الاستيلاء على مدينة صغيرة على الحدود ، أو قطعة من الأرض لا يمكن أن تساوي نفقات الحرب ، ولا يمكن أن يتعادل سكانها مع عدد المدنيين الذين يهلكون في الحرب»؛ ولم يكن فردريك كذلك يخشى من أن تدمر بلاده بوساطة جيرانه الأقوياء؛ فقد كتب يقول: «وأعرف عن ثقة أن الدول الصغيرة ـ يقصد بروسيا والتي يسكنها خمسة ملايين من السكان ـ يمكن أن تحتفظ بسيادتها ضد الدول الملكية الكبيرة ـ يقصد فرنسا والنمسا وروسيا ـ والتي يصل سكان كل منها إلى عشرين مليونًا من الأنفس ، وذلك إذا ما وضعت هذه الدول الصغرى الصناعة والنظام في أعمالها ، لقد وجدت الإمبراطوريات العظيمة وفي بنائها الكثير من العوامل الضارة؛ ولكنها تستطيع البقاء فقط بسبب مواردها الكبيرة ، وبسبب القوى المتوافرة في حشد جموع سكانها ، إن المفاسد والمؤامرات التي يزخر بها بلاط كل من هذه الدول الملكية الكبيرة ستدمر كل الحكام الذين لا تتوافر لهم القوة والمقدرة ، وهؤلاء في العادة ليسوا تواقين إلى الضرر؛ ولكن هذا لا يحول دون أن يحتفظوا بجيوش كثيفة على أتم أهبة واستعداد».

ولكن يبدو أن فردريك لم يقدر قط ماذا يمكن أن يحدث للتوازن

الأوروبي لو أن هذه الدول الملكية الكبيرة قد تخلصت من الفوضى والاضطراب والعوامل الضارة في بنائها ، ولو دمرت الحواجز التي أقامها النظام الأرستقراطي للأسر الملكية واتجهت في المسائل العامة ذات الاتجاهات التي بدأت بروسيا تعنى بها ، وفي الواقع أن هذا كله لم يفكر فيه[١].

***

(١) العهد السياسي ١٧٥٢ المجلد السابع ص ١٥٨. «تاريخ عصرنا» مقدمة لكتابات عام ١٧٧٥ المجموعة المجلد الثاني ص ٢٨- ٣٠ من المقدمة لا المتن.

[٣]

ومع هذا فقد كانت أسس الحروب النابليونية توضع في فرنسا ، فإن السلم المذل لعام ١٧٦٣ ـ والذي فقدت به فرنسا إمبراطوريتها وراء البحار ، وفقدت به أيضًا مكانتها وهيبتها في أوروبا ـ قد تبعه تفكير عسكري جاد ، فقد أوجد جريبوڤال تطورًا ثوريًّا في المدفعية ، كما زاد من تحسين ضبط ودقة النيران ومن خفة حركة المدافع بتخفيض وزنها؛ وقد أوجدت إصلاحاته الأنواع التي بقيت هي الطابع العادي ، أي المستوى المعدل للمدفعية حتى عام ١٨٢٠ ، وقد أدخل الماريشال دي بروجلي والدوق دي شوازل de Choiseul في عام ١٧٦٠ ، وحدة جديدة كبيرة في تنظيم الجيش هي الوحدة التي أطلق عليها اصطلاح «الفرقة»؛ وقد تطورت هذه الفرقة تدريجيًّا حتى أضحت تعرف بأنها «الوحدة الدائمة الثابتة التي يقودها ضابط عظيم ، والتي تتوافر لها القوة للاشتباك بالعدو بنجاح حتى تصل وحدة أخرى غيرها إلى ميدان المعركة ومسرح القتال»..

كان قد انتهى اعتبار الجيوش الكبيرة حشدًا واحدًا يكون جبهة غير متكسرة في المعركة ، بل أضحت الجيوش مجموعات من الوحدات المتصلة ببعضها البعض والتي هي وحدات مستقلة يمكن أن تنفصل وأن تقوم بمناوراتها كل على حدة ، وقد جاءت للقائد العام بإمكانيات استراتيچية وتكتيكية جديدة ، وفي ذات الوقت باتت للقادة التابعين ـ كقادة الفرق ـ أهمية لم تكن قط لهم أيام فردريك ، وكانت حروب الثورة هي أول حروب كانت للفرق فيها أهميتها ، وكان نابليون وماريشالاته هم النشء الجديد

لاقتطاف ثمار هذا كله[١].

وجاء مع هذه المكتشفات العملية الجديدة بعد عام ١٧٦٣ الكثير من الكتابات النظرية ، وكان بين الكتاب أصحاب النظريات شريف في فجر العمر هو الكونت دي جيبير؛ وقد نشر جيبير هذا في عام ١٧٧٢ كتابًا وسم بعنوان «دراسة عامة في فنِّ القتال «التكتيك» ، وكان الرجل عندما نشر كتابه في التاسعة والعشرين من عمره ، وقد أكسبه الكتاب شهرة وجعل منه أسدًا من أسود الصالونات في المجتمع الفرنسي! وتورط في غرام مدموازيل دي ليسبيناس ، وكتب ثلاث مسرحيات من القصيد لم تخل من الأحاديث عن صناعة الجندية ، وخدم بعض الوقت في وزارة الحرب ، وفي عام ١٧٨٩ أثناء اجتماع من الاجتماعات التي عقدت لاختيار هيئة أركان الحرب العامة نُحِّي عن عمله في الثورة التي ستبدأ نتيجة للغيرة وللرجعية ، ومات الرجل عام ١٧٩٠ وهو يصيح في فراشه عندما حضرته الوفاة: «سأصل إلى الشهرة.. وسيعرفني الناس ، سأنال حقي من العدالة»[٢].

وكان جيبير في الواقع شخصًا متقلبًا غير ثابت ، كما كان دائمًا غير قانع وغير راض عن نصيبه من الحياة ، ولم يكن كذلك بقادر على إدراك السحب قبل تجمعها؛ ولكنه ولا شك كان موفور الذكاء ، وكان أديبًا وفيلسوفًا اعتبره معاصروه أنه تتوافر له العبقرية والموهبة الفذة ، وكان عنيفًا لا يسهل

(١) بيكار ـ المدفعية الفرنسة في القرن الثامن عشر باريس ١٩٠٦ ، Picard, L'artillerie Française au XVIIIe siécle كامبانا (مدفعية الميدان) ١٧٩٢– ١٩٠١ ، باريس ١٩٠١ ، فيجان ذات المرجع ص ١٩٢ ، كولين J. Colin ذات المرجع ص ١– ٨٥.

(٢) من مقدمة بقلم الناشر لكتابه «يوميات رحلة في ألمانيا» باريس ١٨٠٣ ، كتاب دي سيجير «رجل عظيم من رجال الصالونات ... الكونت دي جيبير» في مجلة باريس عام ١٩٠٢ ص ٧٠١ – ٧٣٦ ، جانز ذات المرجع المجلد الثالث ص ٢٠٥٩–٢٠٧٢.

التفاهم معه ، ثم إنه كان يتأثر دائمًا بالقوى التي تسود اللحظة التي هو فيها مادية أو معنوية؛ وعندما كتب دراسته العامة عن التكتيك كان يعمل ضابطًا في ألمانيا ثم كورسيكا ، وكان كغيره من فلاسفة عصره شديد الإعجاب بفردريك الذي كان يبدو لأعينهم في هالة من الضوء كنموذج للعبقري المجدد في الفن العسكري ، على أن فردريك نفسه ـ على ما تقول الشائعات ـ قد غضب لأنه وجد أسراره الفنية يصل إلى تقديرها صغير حدث ليس من أهل الصناعة.. وكانت مطالعته لكتاب «جيبير» تثيره إلى حد بعيد؛ ولا نستطيع أن نعرف حقًّا ما إذا كان كتاب جيبير قد كشف عن كثير من النواحي الفنية التي كان فردريك يعتبرها سرًّا خاصًّا به. ولكن من المحقق أن هذه الدراسة قد تجاوزت في بعض النواحي صور الحرب التي جاء بها فردريك.

وكان موضوعان اثنان هما أبرز ما في هذه الدراسة العامة للتكتيك:

أولهما: المطالبة بجيش من الأهلين المواطنين ، **وثانيهما**: الدعوة إلى حرب الحركة.

وكان هذان الأمران يقعان في تقدير جيبير ضمن نطاق فن القتال ، وكانت كلمة «تكتيك» تعني في ذلك الوقت فن المناورة بالجنود ، بينما كان يجيء في نطاق «التكتيكات الكبرى» ما نسميه الآن «بالاستراتيچية» ، ويجيء في نطاق «التكتيكات الأولية» ما نسميه الآن «بالتكتيك».

وقد اعترض جيبير على هذا المعنى على أساس أنه ضيق الإيضاح والتفسير؛ كان الاصطلاح «تكتيك» يعني في تقديره: كل العلم العسكري ، وكان يراه ذا جزأين: أولهما: إعداد وتدريب الجيوش ، وثانيهما: فن القائد أو

ما كان يسميه الناس إذ ذاك بالتكتيك ، وما نطلق عليه نحن الآن التكتيك والاستراتيچية. وقد أراد المؤلف الصغير السن أن يثب بالتكتيك في صورته الكبيرة ومداه الفسيح ليكون حقيقة عامة ، ويقول في هذا: «لقد أضحى «التكتيك» علم كل عصر ، وكل مكان ، وكل سلاح ، وفي إيجاز إنه نتيجة كل شيء حسن فكرت فيه كل العصور العسكرية وكل ما استطاع العصر الذي نعيش فيه أن يضفه إلى هذا»[(١)].

وكان موضوع «الجيش القومي» جيش المواطنين عقيدة عامة في محيط الفلاسفة ، وقد كان كل من مونتسيكو[(*)] وچان چاك روسو[(**)] ومابلي وغيرهم ممن يقلون عنهم مكانة ـ كان هؤلاء الذين خرجوا على الناس عام ١٧٧٠ بالآراء الحرة الطليقة ـ قد تحدثوا بهذا على أساس أنه وقاية ضد السلطات الملكية الاستبدادية ، السلطات القاسية الإدارة ، وقد نشر

(١) (١٧٧٢) Essai général de tactique «دراسة عامة للتكتيك» ١٧٧٢ ـ مجموعة الدراسات العسكرية للكونت دي جيبير في خمسة مجلدات طبع باريس عام ١٨٠٣ ، وقد قدم جيبير الاصطلاح (استراتيچية) في المجلدين ٣و٤ من ذات المرجع في دراسته التي وسمت بعنوان «الدفاع عن أسلوب الحرب الحديثة ـ ١٧٧٩».

(*) مونتسيكو .. شارل دي سيكوندا بارون دي لابريد (١٦٨٩ – ١٧٥٥) مؤرخ فيلسوف ولد قرب بوردو وفي عام ١٧١٤ عين مراقبًا لبرلمان بوردو ثم ورث اللقلب ورياسة البرلمان عن عمه ، له عدة كتب مختلفة أهمها كتابه (روح القوانين) في ٣١ مجلد ، وكان لكتابه تأثير كبير في التوجيه الأول اللثورة الفرنسية ـ راجع دائرة معارف كل فرد المجلد التاسع ص ٣٦٠ (المترجم).

(**) جان جاء روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) ولد في جنيف لرجل يعمل في صناعة الساعات ولم ينل حظًّا من التعليم أكثر مما يمكن الحصول عليه في مدرسة القرية ، عمل في عدة صناعات ثم فر ودخل جامعة تورين .. واتصل بعدد من الناس كان لهم فضل توجيهه ، ونال جائزة جامعة ديمون لبحث كتبه عن تقدم الحضارة وأثر هذا في معنويات الناس ، نشر عام ١٧٦٢ كتاب العقد الاجتماعي؛ راجع معجم كل فرد المجلد ١١ص ٢٤٨– ٢٤٩. (المترجم).

ج.سيرڤان زميل ديدرو في «دائرة المعارف» والذي كان وزيرًا للحربية أثناء الثورة. نشر في عام ١٧٨١ كتابًا عن «الجندي المواطن» ، *والواقع* أن جيبير كان يندفع في التيار معتليًا قمَّة موجة هائلة ، وكان موضوع بحثه الذي وسم بعنوان «إلى وطني» يستهدف «إنشاء تنظيم عسكري سياسي» يكون فيه الفرنسيون عامة ، النبيل والفرد العادي ، الملك والتابع ، كلهم سواسية لا فرق بين فرد وآخر ، بل إن كل هؤلاء يفخرون بأن يحملوا لقلب «المواطن»؛ وكان هذا يعتبر من الأعمال الفلسفية التقدمية التي أسهمت في العلم العسكري.

ويبدأ جيبير حديثه بأن حكومات أوروبا كلها آلات مطلقة القوة ، وأن كل الشعوب تواقة للإطاحة بهذه الحكومات لو استطاعت ، ولم تكن الشعوب لتحارب من أجل تلك الحكومات ، ولم تكن الحكومات نفسها معنيَّة بالدراسات العسكرية ، وحتى في بروسيا فإن النظام العسكري كان يُعتبر نظامًا خارجيًّا ، ولم تكن للسكان صلة بالجندية ، ولم يدرب الشبان للحرب كما كانت الحال في «إسبارطة» القديمة ، وكان الناس عزوفين عن مغانم الحرب؛ لأن الأسرى لا يذبحون كالنعاج ، ولم يكن المدنيون في الولايات المغْزوَّة يقاسون شيئًا ، اللهم إلا أن يدفعوا جزية لا تزيد عادة عن الضرائب القديمة التي كانوا يدفعونها أصلًا للدولة التي كانوا يتبعونها.

والواقع ـ في إيجاز ـ: أن كل أهل أوروبا كانوا قليلي الصلابة والاحتمال ، وكانت كل الحكومات ضعيفة ، ثم يقول جيبير: «ولكن فلنفرض أن شعبًا قد نهض في أوروبا ، شعبًا قوي الروح المعنوية ، قويًّا في حكومته وفي الإمكانيات المتوافرة لها ، إن هذا الشعب الذي تتوافر له هذه الخاصيات القوية لابد وأن يوجد جيشًا قوميًّا. ويضع تخطيطًا للاتساع ،

وسنرى أن هذا الشعب يخضع جيرانه ويطغى على تنظيماتنا الضعيفة ، ويطويها كما تطوى الرياح التي تهب من الشمال سيقان الأشجار الصغيرة[١].

وكانت هذه الملاحظة تنقل دائمًا من المتن على أنها نبوءة عن حروب الثورة وحروب نابليون؛ ولكن جيبير كان لا يقدر أن ينهض بالثورة أناس أقوياء في عنف ، كان من الممكن أن يحدث هذا في روسيا تحت حكم بطرس الأكبر في أول القرن ، ولكن روسيا في أيام جيبير كانت قد اتجهت نحو الحضارة الغربية بدرجة كبيرة ، وكان أهلها قد عرفوا حياة الرفاهية وعرفوا كل الصورة الأنيقة في الطباع والعادات والسلوك العام ، الصورة التي جاءت بها الحضارة ، ولكن ولو أن جيبير لم يتوقع تغيرًا كبيرًا لنظرياته التي قدمها إلا أنه أشار إلى أنه في عالم مضطرب يتسم بهذا الطابع من الإجهاد؛ فإن الدولة التي تستطيع إصلاح حالها ولو بدرجة قليلة ستكون لها الأفضلية على غيرها من الدول.. وكان يظن أن كل هذا يمكن أن يتوافر لفرنسا.

كان يرى أنه لو دفعت فرنسا الروح القوية «روح الأهالي» إلى جيشها فستستطيع القيام بحرب حاسمة أكثر سرعة وأعنف تأثيرًا ، ومع أنه كان يأمل في هذا إلا أنه لم يكن يتوقعه ، وكان يقول إن خطايا الحرب الحديثة أسوأ كثيرًا من أن يمكن إصلاحها إلا بأن يجيء هذا نتيجة لثورة سياسية ، ولكن الثورة مسألة أبعد من أن تتم ، كان جيبير كغيره من الفلاسفة لا يثق كثيرًا بأن التفكير الثوري يمكن أن يتبعه سلوك ثوري؛ ولهذا فإنه بعد هذه الضجة عن الأصول العامة وصل في دراسته للموضوع إلى حيث ابتدأ فردريك الأكبر ، أي إلى الرأي الذي أوضحه فردريك عام ١٧٤٦ من أن

(١) الدراسات العامة ... ضمن المجموعة ... المجلد الأول ص ١-٢٣.

الجندي المواطن هو خير الجند، ولكن لما كان كل الجنود ليسوا مواطنين فإنه يجب أن يدربوا جيدًا وأن يتوافر لهم الضبط والربط الجيد بالعنف والإرغام[١].

وكان الجانب الآخر من الدراسة هو تطلب حرب للحركة، وهذه ناحية أكثر تطورًا من الجانب الخاص بجيش المواطنين، وفي هذا الجانب كما في الجانب الأول من الدراسة يبدو ذات الجهد البدائي وذات الشعور باضطراب وتعقد الطابع الثقافي للقرن الثامن عشر، وذات التقدير الكبير والاعتبار بمثالية الفضائل والصفات الإسبارطية الخشنة، وكان جيبير يأمل في أن يجعل الحرب أكثر خفة للحركة وحاسمة بدرجة أكبر نتيجة لتبسيط عواملها وعناصرها، فلقد فكر أن الجيوش في عصره أكبر مما يجب أن تكون. وأن قيمة المدفعية تقدر بأكثر من حقيقتها، وأن التحصينات ومستودعات العتاد والتموين تنمو وتتزايد بسرعة، وأنه يعنى بدراسة الطبوغرافية إلى أبعد مما يجب، ثم إن الشعوب الأوروبية في تفكيره لا تتوافر لها قوة الروح وأنهم يضاعفون من اهتمامهم بالمسائل المادية، وأنهم بسبب ما ينقصهم من الشجاعة والجرأة فإنهم يعتمدون على المال.

ولم تكن وجهات نظر جيبير عن تعداد الجيوش وعن وحدات المدفعية أبعد مما رأى سيده فردريك الأكبر، بالرغم من أن الأمرين كانا إذ ذاك في السماء بارزين أعلى الأفق، وقد وصلا في «ليبزج» عام ١٨١٣ إلى ذروة ما وصلا إليه في معركة ما حتى القرن العشرين، وقد بقي جيبير بسبب هذا في نطاق المدرسة التي تتحدث عن الحرب المحددة. الحرب غير الشاملة؛ ومع أنه كان جزئيًّا في جانب قوات المواطنين فإنه لم يتنبأ قط

(١) ذات المرجع ص ١-١٥١.

بالحشود الكبيرة في تكوين الجيوش ، فقد اعتبر الجيوش الكبيرة دليلًا على حماقة وقلة مهارة الرجال الذين يتولون الأمر.

وقد قال: إن القائد الجيد لا يستطيع العمل لو زادت القوة التي يتولى قيادتها عن سبعين ألفًا ، وقد كرر العبارات المليئة بالحسرة والتي تحدَّث بها قبله فردريك عن الشعب المدفعي المعاصر.. الشعب الذي يتجه بكلياته للمدفعية.. مع التباين بين اتجاهي الرَّجُلَين ، وقد اعتبر جيبير ـ أيضًا كفردريك ـ أن المدفعية قوة معاونة وليست سلاحًا قائمًا بذاته ، فإن الآراء الفنية التي قدمها جريبوڤال كانت كالعادة قد أوجدت انقسامًا واسعًا بين الأخصائيين ، وإلى درجة صغيرة كانت المدفعية إذ ذاك ـ وإلى حد ما ـ في ذات الوضع الذي للطيران في هذا العصر الذي نعيش فيه ، كان جيبير قد وقف موقفًا وسطًا بين الرأيين ، فهو يتفق مع جريبوڤال.. ولكنه لم يتقبل تمامًا أعمال المعاصرين من أصحاب النظريات في المدفعية مثل دوتيل الذي كان يستخدم خفَّة الحركة الجديدة للمدافع في الحصول على حشد كبير للنيران ، والذي وجهت تعاليمه عقول أكثر ضباط المدفعية نجاحًا ألا وهو نابليون بونابرت[1] ، وانفلت جيبير بعد ذلك بعيدًا عن فردريك مقتربًا من تجربة الحرب العالمية التي كانت وشيكة الوقوع؛ وذلك تبعًا لآرائه في قلة قيمة التحصينات والمستودعات؛ كان يرى أن الجيوش يجب أن تعيش على ما تأخذه من البلاد التي تحتلها ، فالحرب يجب أن تعمل لإمداد الحرب كما في أحسن أيام روما القديمة ، ويجب ألا يعرف الجنود الإسراف ، ومن الضروري أن تكون احتياجاتهم قليلة ، وألا تصحبهم حملات نقل كبيرة وأن يحتملوا النقص في احتياجاتهم كما يحتملون الصعاب والمتاعب دونما

(١) ذات المرجع المجلد الأول ص ٩٧و ٤٤٥-٤٧٢.

شكوى ، ويقول بأن الطريقة الفرنسية الحالية والتي يصحب فيها المدنيون الجيش للإشراف على التموين تعتبر طريقة خطرة؛ ذلك لأن القرارات العسكرية قد باتت تتوقف على موافقة وقبول موظفين مدنيين يهتمون بوقاية التموين أكثر مما يهتمون بقتال العدو ، والجيش الذي يتحرك دون قوافل حملة ويعيش على البلاد التي يمر بها يكتسب خفة الحركة كما يكون مدى عمله طويلًا ، وتتوافر له قوة المفاجأة[١].

وقدر جيبير أن فن التحصينات قد زادت قيمته بدرجة كبيرة منذ أيام ڤوبان؛ ولكن كان من الواضح أن الحاجة إلى القلاع ستقل تبعًا لإلغاء المستودعات الكبيرة والتي تعتبر وقايتها واحدًا من أهم واجبات القلاع؛ ثم إن توزيع القوات في حاميات هذه القلاع قد جعل الجيوش أكثر مما تتطلب الحاجة ، وكذلك فإن تحول العمليات الحربية إلى سلسلة من أعمال الحصار قد جعل الحروب طويلة الأمد دونما حاجة إلى هذا.

ولم يتقبل جيبير أيضًا القول بأن النقط المحصنة لها قيمة دفاعية ضد جيش خفيف الحركة في الصورة التي رسمها هو ، وقد كتب: «فإذا كانت أبراج القلاع وحدها يمكن أن تدافع عن المدن التي تحيط بها فإن مستقبل هذه المدن لا يتوقف على شجاعة وخاصية الجنود الذين يدافعون عنها ، وإذن فإن القلاع التي لا يتوافر لها الدفاع القوي لن تمنع مذلة وامتهان الشعوب المغزُوَّة التي بنت هذه القلاع»... ثم يكمل حديثه بأن هذه القلاع والحصون يجب أن تكون قليلة وقوية وأن تكون معاونًا للتحركات الاستراتيچية[٢].

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ٢٥٤-٣٠٧.
(٢) ذات المرجع المجلد الثاني ص ٢٠٨-٢٢٠.

وكان لتنظيم الجيش أثره في سرعة السير ، وكان لدى جيبير ما يمكن من مضاعفة سرعة التحركات في تقديره ، وذلك بأن يوجد تشكيلًا جديدًا هو تشكيل «الفرقة»؛ «وإن لم يكن جيبير مبتدعًا في هذا إلى غاية ما للكلمة من معنى ، فإن فردريك قد فكَّر في مثل هذا التنظيم من قبل ، ونفذه إلى حد ما ، وكان التجديد فقط في درجة الكفاية الذاتية»؛ ولكن حتى عام ١٧٧٢ لم يكن هذا التشكيل الجديد قد قطع شوطًا بعيدًا في مرحلة التنفيذ؛ على أن جيبير قد أخفق في أن يقارن بوضوح بين تنظيم «الفرقة» الجديدة في الجيش الفرنسي وبين التنظيم «المؤقت» لقوات الفرقة والذي نفذه فردريك الأكبر ، ولكن مما لا شك فيه أن نظريات جيبير تبدي تقدمًا أبعد مما حققه فردريك الأكبر ، فإن هدف فردريك الأساسي كان أن يقسِّمَ جيشه أثناء السير في صورة تمكن هذه الأقسام ـ عند الوصول إلى مكان العدو ـ أن تتشكل في أماكنها من خط المعركة المحدد من قبل؛ ولهذا كان الجيش يسير وكأنه قد اعتزم القتال من البداية «راجع تشكيل السير لفردريك» ، ولكن جيبير حرر تشكيل السير من الارتباط دائمًا بتشكيل المعركة..؛ وكان تشكيل السير في تنظيم جيبير يقوم على أن تتحرك كل فرقة في «قول»(*) منفصلة عن غيرها ، وهذه الأقوال تبعًا لانفصالها عن بعضها البعض تستطيع أن تتحرك بسرعة أكبر.. وأن تغطي ميدانًا أوسع ، كما أنها تستطيع أن ترغم العدو الذي يرغب الاشتباك بها أن يتجه الاتجاه الذي تريده هي؛ فإذا اقتربت المعركة فإن هذه الفرق تحشد معًا جملة واحدة دون أن تفقد قط الوحدة التي تربطها

(*) «القول Column» هو التشكيل الذي تسير به مجموعات من الجنود أو العربات أو المدفعية الواحدة إثر الأخرى... ويعني القول في عصر فردريك سير المشاة أو الخيالة في مواجهة ضيقة وبعمق كبير ، وكانت العادة أن أفراد كل صف في المواجهة بين أربعة وثمانية ، وهذا خلاف السير بتشكيل (الخط) الذي يشغل مواجهة كبيرة.

معًا في جيش واحد ، كما يستطيع القائد العام الذي يسبق هذه الفرق أن يفحص ميدان المعركة «أي أن يقوم باستكشافه الشخصي لمسرح المعركة» ، وأن يضع تخطيطه للقتال في ضوء هذا الاستكشاف الشخصي ، وأن يعين أماكن وأوضاع فرقِهِ بمجرد وصولها إلى مسرح المعركة؛ ومن هنا يبدو لنا أن المعارك قد صارت أكثر مرونة مما كانت من قبل وأضحت تتمشى مع طبيعة الأرض ومع الظروف ، كما أضحى من الميسور أن تتقبل التوجيه من القائد العام حتى بعد أن تشتبك الجيوش في القتال؛ ولم يغفل جيبير عن أن يرجع بالفضل لفردريك في استخدام هذه الطريقة في «هوهنفريدبرج» ، وإن كانت الحقيقة أن هذه الفكرة أقرب إلى أن تكون فكرة نابليون لا فكرة فردريك[١].

على أن هدف فردريك من كتابه «دراسة عامة للتكتيك» كان هو العمل لإيجاد جيش في طابع جديد؛ ومن الناحية المثالية يمكن أن نقول بأن هذا الهدف إنما كان إيجاد «جيش الشعب» ، أي إيجاد جيش أخف حركة تبعًا لأنه يعيش من الأرض التي يعمل فيها ، كما أنه يكون أكثر انطلاقًا وتحررًا في العمل؛ لأنه قد تخلص من النقط المحصنة التي يجب أن يستند إليها في تحركاته وفي القتال الذي يخوض غماره ، ثم إنه يكون أكثر قدرة على المناورة؛ لأنه قد نظم في فرق منفصلة عن بعضها طوال تحركها ، وبمثل هذا الجيش كان من الممكن أن تتغير صورة الحرب القديمة «حرب المواقع» إلى حرب الحركة؛ وهنا يقول جيبير: «ونسبيًّا ما دمنا نريد أن نقاتل حربًا أكثر حركة فإننا يجب أن نتخلص من الرُّوتِينِ الحالي ، وأن نعود إلى جيوش أقل عددًا وأقل أثقالًا؛ بل وأن نقلل مما نطلق عليه اسم «المواقع الحصينة»؛ ذلك لأن

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ١٥ –٨٨.

المواقع يجب أن تكون آخر ما يفكر في الاستناد إليه جيش خفيف الحركة جيد القيادة ، فإذا ما وصل جيش إلى الدرجة التي تمكنه من القيام بالمناورة فمن النادر أن توجد «المواقع» التي لا يستطيع هذا الجيش مهاجمتها من الخلف ، أو التي لا يستطيع إرغام العدو على إخلائها وتركها ، إن المواقع صالحة فقط عندما يتجه الفرد إلى الوقوف موقفًا سلبيًّا أي عدم العمل»؛ ثم يقدم جيبير تصويرًا سريعًا للحرب الخاطفة التي كان على نابليون تنفيذها. فيقول بأن القائد الجيد إنما ينفض يديه من هذه الصور ة التي عرفها في الماضي للمواقع. ثم يتابع حديثه: «وأقول: إن القائد الجيد سيستطيع أن يثير الخوف والرعب في قلوب أعدائه ، وأن يضرب جيش العدو ضربة تفقده حواسه ، ولا يسمح له بفرصة لينتعش؛ بل يضطره للقتال أو التقهقر باستمرار ، ولكن هذا القائد يتطلب جيشًا يخالف ـ في تكوينه ـ جيوشنا الحالية ، يتطلب جيشًا يقوم هو نفسه بإعداده لهذا النوع الجديد من العمليات التي يريده أن يقوم بها»(١) ، وكان على الثورة الفرنسية أن توجد هذا الجيش.

على أنه لسوء جدِّ جيبير فإن عمله الوحيد الكامل في الفن العسكري ـ بالإضافة إلى كتابه الأول «الدراسة العامة ..» هو كتابه «الدفاع عن الطريقة الحديثة للحرب» والذي نشره عام ١٧٧٩؛ وفي هذا الكتاب يناقض جيبير الكثير من الآراء التي جاء بها في كتابه الأول ، ويقول جيبير عن هذا: «عندما كتبت ذلك الكتاب ـ يقصد الدراسة العامة لفن القتال ـ كنت أصغر مما أنا الآن بعشر سنوات ، إن أبخرة الفلسفة الحديثة قد ألهبت رأسي ،

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ٢٤٩-٢٥٤.

وغطت صدق تقديري للأمور بالسحب»[١]؛ وكان جيبير بعد أن نال شهرة إثر نشر كتابه الأول قد قابل فردريك الأكبر وجاس خلال ألمانيا ، وانغَمَرَ في المجتمع ، واندفع بسرعة في طريقه كرجل أخصائي ، وأضحى أكثر اقتناعًا بالعالم الذي يعيش فيه.

وكان الطريقة الحديثة التي حاول في كتابه «الدفاع..» أن يبرز حقائقها وقيمتها هي في بساطة صورة الحرب في ذلك الوقت مقارنة بصورة الحرب في العصور القديمة ، كانت هي الفن العسكري التقليدي لعام ١٧٧٩؛ ويعرض الكتاب في جملته لصورة واحدة من هذه الحرب «الحديثة» هي مناقشة التفضيل بين استخدام «القول» أو «النحط» في تكتيكات قتال المشاة ، وقد وقف جيبير في الجانب المحافظ مدافعًا عن «النحط» (أي عن مبدأ قوة النيران) ضد القول (أي ضد مبدأ الاقتحام التصادمي) ، وقد أضاف جيبير إلى هذا النقاش فصلًا ختاميًّا وسم بعنوان «الطريقة الحالية للحرب واختبارها بالنسبة للسياسة والإدارة» ، وهنا يجيء في الواقع تنكره لآرائه وتصريحاته الأولى.

ولم تكن قد توافرت لجيبير أية فكرة عن جيش الأهلين ، ***والواقع*** أنه في الوقت الذي كان فيه جيبير يكتب هذا كانت القوات الأهلية تقاتل الجنود المحترفين الإنجليز والجنود المأجورين الذين يعملون في خدمة بريطانيا في أمريكا ، وقد قام كثيرون من الضباط الأوروبيين بمراقبة ما كان يدور هناك من قتال ، وقد جاء لافاييت[*]

(١) «الدفاع ...» المجلد الرابع ص ٢١٢.

(*)لافاييت .. جوزيف بول جلبرت موتييه مركيز دي لافاييت (١٧٥٧-١٨٣٤) قائد فرنسي وسياسي ، هجر فرنسا بعد أن خدم في الجندية ، ورحل إلى أمريكا عام ١٧٧٧=

وبيرثيير(*) وجوردان(**) وجينيسناو(***) من أمريكا ببعض الآراء

=لمساعدة المستعمرين ضد الحكومة الإنجليزية ، حارب إلى جانب واشنجتون وعلى الأخص في الدفاع عن ڤرچينيا عام ١٧٨١ ، وفي معركة يورك تاون عام ١٧٨٢ ، منح رتبة ميجر جنرال في فرنسا إثر عودته ، وانتخب للجمعية الوطنية عام ١٧٨٩ ، وكان هو الذي أعلن الحقوق التي قامت على أساس ما جاء في إعلان الاستقلال الأمريكي ، وكان هو الذي تخير ألوان العَلَم الفرنسي الحالي ، أرغمه اليعقوبيون على الفرار إلى لييج حيث سجنه النمساويون لخمس سنوات حتى أطلق سراحه نابليون بونابرت ، كان قائد المقاومة من عام ١٨٢٣ إلى عام ١٨٣٠ ، وأثناء ثورة عام ١٨٣٠ تولى قيادة الحرس الوطني؛ ولكنه لم يكن ناجحًا «المترجم» E. Encycl. Vol. ٨ PP. ٢٤٦.

(*) بيرثيير.. ، بير الكسندر بيرثيير (١٧٥٣-١٨١٥) قائد فرنسي ، كان هو الذي أعلن الجمهورية في روما عام ١٧٩٨ ، وقد عمل رئيسًا لأركان الحرب لنابليون بونابرت في حملته على مصر ، ثم في حملة عام ١٨١٢- ١٨١٤ ، وعندما تولى لويس الثامن عشر العرش بعد رحيل نابليون إلى جزيرة إلبا سَلَّم نيقشاتل التي كان قد عين أميرًا عليها ١٨٠٦ للملك وقدم خضوعه له. فلما عاد نابليون من إلبا ثانية انتحر الرجل فقد اعتبر ما قام به يتعارض مع إخلاصه الواجب لنابليون «المترجم» E. Encycl. Vol. II P.P. ٢٦٩.

(**) جوردان .. جون بابتسيتا كونت جوردان ١٧٦٢-١٨٣٣ ، قائد فرنسي حارب ضد النمساويين في عام ١٧٩٣و ١٧٩٤ ، وردهم وراء الرين ، ثم حاصر ميتز عام ٩٥ ولكنه هُزم من الأرشيدون شارل بعد ذلك ، نزل عن قيادته لمسينا عام ١٧٩٩ ، ودافع عن نفسه في كتابه (عمليات جيش الدانوب) الذي تشره عام ١٧٩٩ ، رقاة نابليون إلى رتبة الماريشال عام١٨٠٤ ، وعينه حاكمًا على نابولي عام ١٨٠٦ ، وصحب الملك يوسف شقيق نابليون إلى أسبانيا عام ١٨٠٨ ، فلما جاء لويس الثامن عشر منحه لقبًا وأبقى له ثروته إلا أنه شجع ثورة عام ١٨٣٠ . «المترجم» E. Encycl. Vol. ٨ p. ٤٥.

(***) جينيسناو .. أوجست ويلهلم أنطون جراف فون جينيسناو (١٧٦٠-١٨٣١) جنرال بروسي ، درس لعاملين في جامعة إير فورت ، ثم انضم للآلاي النمساوي ، وحارب في صفوف الألمان من عام ١٧٨٢ إلى عام ١٧٨٦ الذين ساعدوا الإنجليز في حرب الاستقلال الأمريكي ، عاد إلى قوات بروسيا برتبة الملازم ، وخدم في بولندة ١٧٩٣-٩٤ ، وحارب في ينيا ثم في ليبزج ، ثم كان ضمن هيئة أركان الحرب الجنرال بلوخر في معركة ووتر لو عام ١٨١٥ ، كان فيلد ماريشال قائد الجيوش البروسية عام ١٨٣١ ، وأُصيب بالكوليرا ومات في بوزن في أغسطس عام ١٨٣١ وسنعود إليه عند الحديث عن كلاوزيفيتنر . «المترجم».E. Encycl. Vol. ٦ p. ٤٣٧

والأفكار القيمة عن الجنود المواطنين «جيش الأهلين» وعن تشكيلات القتال؛ ومع هذا فإن جيبير بقيَ مصرًّا على أن المدنيين لا يستطيعون الوقوف ضدّ الجنود المحترفين ، وقرر أن نجاح الأمريكان إنما يرجع إلى ضعف الإنجليز؛ ويقول: إنه لا توجد دولة حديثة تستطيع المخاطرة باستخدام قوات شعبية ، هذه القوات التي ربما كانت تصلح بين القدامى ، الذين كانت مناوراتهم بسيطة ولم تكن الأسلحة النارية معروفة لهم ، كما يقرر أن كل دول أوربا قد أغفلت هذا ونفضت أيديها من استخدام الأهلين عدا بولندة وتركيا ، وقد تحطمت بولندة وتمزقت؛.. على أننا يجب أن نلاحظ بأنه على طوال صفحات هذا الكتاب وفي سطور هذه الآراء لم تكن كلمة «المواطنين» تعني شيئًا أكثر من التعبير عن جملة السكان(١) .

وقد امتدح جيبير حرب «الاحتراف» للطابع الهين غير الضار الذي لها ، هذا الطابع الذي كان هو علَّة هجومه الأساسي عليها في كتابه الأول؛ ويلاحظ جيبير أنه (في العصر الذي كان يعيش فيه) كانت البلاد المغزُوَّة تنجو من كل الصور المخيفة التي تنتج عن الحرب من تدمير وذعر ، بينا «أن أية دولة يدافع عنها أهلوها فإنها لا تنجو قط من هذا اللون من المصائب» ، وكان يرى أنه من الأفضل من الناحية الإنسانية أن يبقى الناس في موقف المشاهدين بالنسبة للعنف الذي تجيء به الحرب ، ثم يضيف بأن الإصرار على إنشاء واستخدام المواقع المحصنة مع كل هذه الدقة التي للمناورة ـ حرب الحركة ـ التي تتبع قاعدة ثابتة «قد يكون استخدامًا أو تفكيرًا خاطِئًا ، ولكن من المؤكد أنها ـ يقصد المواقع المحصنة ـ تجيء بنفع كبير يحول دون

(١) ذات المرجع ... المجلد الرابع ص ٢١٩-٢٣١.

اضطراب الأمم ويؤكد سلامة الإمبراطوريات» ، وكان يرى أن هذه المساواة أو التماثل بين الدول العسكرية إنما توجد توازنًا طيبًا؛ ولهذا فإنه «كلما كانت الحروب حاسمة ، وبالتبعية مدمرة للأمم كلما قلَّت الاحتمالات ليتواجد غزو ، وكلما قلت الأسباب والدوافع التي تدفع الحكام الطامعين للفتح.. بل وكلما قلت الثورات في الإمبراطوريات»؛ وهكذا ينتهي جيبير بفكرة الدفاع ، ومن الصعب في الواقع أن نفرق بينه وبين فردريك الأكبر في هذا[1].

وقد وضح في كتابي جيبير إدراكه للفرق بين الحرب «المحددة» والحرب «غير المحددة» ، أو بمعنى آخر: الفرق بين قتال الجنود المحترفين ، وبين الكفاح المدمر الذي تقوم به الشعوب؛ وقد رأى العلاقة الوثيقة بين صناعة الحرب وبين نظام وتكوين الحكومة ، ***والواقع*** أن تضارب جيبير كان معنويًّا لا منطقيًّا وكان عدم تماسكه يتضح في الاتجاه لا في التحليل للأمر ، ففي التاسعة والعشرين كان ينظر إلى الآراء عن الجيوش القومية وعن استراتيجية الحرب الخاطفة بعين الرضا ، ولكنه وهو في الخامسة والثلاثين نظر إلى هذه الآراء نفسها نظرة اعتراض بل وعدم موافقة ، وفي كلا العصرين لم يُبدِ أيَّة قدرة عملية على التنبؤ بما يمكن حدوثه ، هذه القدرة التي يمكن أن تميزه عن أن يكون رجلًا حسن الجد ليس إلا ، وأن الظروف وحدها هي التي ساقت هذا التقدير دون جهد منه ، ولم يستطع قط أن يدرك أن هذه الآراء التي قبلها ورضي عنها في عام ١٧٧٢ ثم عاد فاعترض عليها في عام ١٧٧٩ ستكون هي هي حقائق ثابتة بالنسبة للجيل الذي كان على قيد الحياة يوم ذاك.

(١) ذات المرجع المجلد الرابع ص ٢٦٣-٢٧٥.

وقبل أن ينهي جيبير كتابه «الدفاع» أسهم بقوة في هذه الفلسفات التي كانت في بعض الأوقات توضح ميولًا مسالمة أو على الأقل تعارض الحرب التي تقوم بها الحكومات القائمة يومذاك ، ويقول: «إن الوقوف ضد الحرب كأنه إطلاق صرخات لا معنى لها في الهواء؛ ذلك لأن الحكام الأقوياء الطامعين غير العادلين لن تكبح جماحَهم مثل هذه الوسيلة ، ولكن الوسيلة المنتجة والتي يجب أن تنتج هي أن نطفئ تدريجيًّا هذه الروح العسكرية ، وأن نجعل الحكومات أقل رغبة في هذا الجانب المهم من الإدارة ، وأن نصل بها يومًا ما إلى أن تنزع أسلحتها أو إلى ما يشابه هذا بأن تكون سيئة التسليح ولا يحسن أهلوها استخدام الأسلحة ، ثم بأن نربط بين الأمم المحاربة والتي قد تكون أقل حظًّا من المدنية؛ ولكنها أكثر حكمة وأكثر تجنبًا للتهور والاندفاع»[١].

وكانت هنا نبوءة جيبير عن فرنسا!

ومع هذا فإن حديثه كان تحذيرًا لا حاجة للقرن الثامن عشر به؛ لأنه لم تكن هذه الاتجاهات المسالمة هي التي ستكون لها الغلبة على غيرها من الآراء التي جاءت بها هذه الفلسفات القائمة!!!

***

(١) ذات المرجع المجلد الرابع ص ٢١٣.

[٤]

وفي عام ١٧٩٣ واجهت جمهورية فرنسا الثورية حلفًا من بريطانيا وهولندة وبروسيا والنمسا وسردينيا وأسبانيا ، وكان الفرنسيون بالنسبة لغيرهم من الشعوب التي تعيش تحت حكومة واحدة هم الأكثر عددًا وربما كانوا أيضًا الأوفر ثروة ، وقد استطاعت اللجنة المشكلة لسلامة وأمن الدولة أن تعبئ لمواجهة الموقف الحرج الخطر كل إمكانياتها العسكرية بطريقة لم تكن مستطاعة في حكم النظام القديم؛ وفي غمرة التخلص من الحقوق القديمة ومن الامتيازات المحلية للطبقات ومن العوائق الداخلية ومن صور الاحتكار الاقتصادي ـ من كل هذا الذي كان يحد من العمل المنتج أيام الملكية ـ استطاعت هذه اللجنة أن توجد نظامًا اقتصاديًّا للحرب بوسائل ديكتاتورية ، وأنعشت اللجنة من المشاعر القومية بين الأهلين ، ثم أوجدت مبدأ الخدمة العسكرية العامة بتكوين حشود المواطنين المقاتلين ، وكان الثوريون ـ في هذا الجانب السياسي من الحرب ـ يدركون أنهم بسبيل إيجاد نظام عسكري جديد ، ولكنهم كانوا أقل إدراكًا لما أمكن الوصول إليه في المسائل الفنية الاستراتيچية؛ وكانت آراء كارنو الاستراتيچية تعتبر ـ في الواقع ـ آراء من طابع قديم(١)؛ ومع هذا فإنهم بتركهم جيوشهم لتموَّن مما تحصل عليه من المناطق التي توجد بها بدلًا من أن تموَّنَ من مستودعات معدة من قبل. فإن الجمهوريين قد سببوا بهذا ثورة في فن تحركات وتموين

---

(١) R. Warschauer, Studien Sur Entwicklung der Gedan Ken, Lazare Carnot uber Kricgfuhrung.

«دراسة عن تطور آراء لازاركارنو الخاصة بالقيادة في الحرب» بقلم ر. ڤارشاور طبع برلين ١٩٣٧.

الجيوش ، ثم إنهم بدفعهم جنودهم نصف المدربين إلى المعركة في قولات مندفعة أو في خطوط مفتوحة في شكل المروحة من المناوشين يقاتلون ويطلقون النيران ويستترون في الصورة التي جاءت بها حرب استقلال أمريكا أنهم بعملهم هذا قد انصرفوا عن أسلوب فردريك باستخدام الكتائب الصلبة الجامدة ، وأوجدوا طابعًا ثوريًّا جديدًا في فن القتال.

وفي عام ١٧٩٤ تحول الفرنسيون إلى الهجوم ، وفي عام ١٧٩٥ انسحبت بروسيا وهولندة وأسبانيا من الحرب ، وفي عام ١٧٩٦ سقط نابليون على إيطاليا منحدرًا من جبال الألب ، وفي عام ١٨٩٧ عاد قادة أوروبا إلى السلم وبدأت بريطانيا مفاوضتها مع فرنسا ، ولكن الحرب لم تلبث أن عادت من جديد في عام ١٧٩٨ ضد التحالف الثاني ، وفي عام ١٧٩٩ أضحى نابليون سيد فرنسا ، ودمر الحلف الثاني في عام ١٨٠٠ ، ثم كسب بعملياته الخاطفة في إيطاليا أولى المعارك النابليونية الكبيرة السريعة الحاسمة ـ معركة مارنجو.

كانت قد حدثت ثورة في فن الحرب ، وقد وضَحَ شروق شمسها تدريجيًّا للمراقبين ، وقد استطاع بعض المدنيين أمثال ماليه دي بان وجنتز أن يدركوا بعض الأسباب العميقة لهذا قبل أن يدركها العسكريون المحترفون؛ وذلك بسبب أن التغيير الجوهري إنما جاء في مقدمات العمل السياسي للتنظيم العسكري ، وفي هذا الاتجاه الجديد الذي كان قدومه في رأي ديلبروك لازمًا وضروريًّا لاستحداث الثورة في فن الحرب.

كان العسكريون المحترفون في فرنسا في ذلك الوقت جد مشغولين في العمليات الحربية وفي كتابة المؤلفات عما يقومون به من أعمال ، وكان شارنهورست في ألمانيا يحرر إحدى الصحف وينشر دراسات قصيرة عن

الحوادث ، وكان جينيسناو في حامية إحدى مدن سيليزيا يطلق التجارب التي جاء بها من أمريكا في تدريب الجنود ، وكان الاثنان شارنهورست وجينيسناو ـ في الواقع ـ يزيدان من ثقافتهما العسكرية ، وقد تقدم الاثنان الصفوف في عام ١٨٠٦ لإعادة بناء الجيش البروسي؛ وفي ذات الوقت كان الكتاب العسكريون الأظهر من غيرهم في أعين الناس ، وهم بهرنهورست وبيلو وهوبر وڤينتوريني ـ على ما وضح للناس لوقت ما ـ لم يتعلموا شيئًا مما يمر أمام أعينهم؛ ولهذا فإنه قد يكون من المفيد في هذا البحث أن نتوقف قليلًا لنستمد في دراستنا هذه إلى بيلو وحده دون هذه المجموعة من الأفراد الذين مرَّ ذكرهم معه(١) .

وكان ديتريش ڤون بيلو مثله مثل الكونت دي جيبير من صغار «الأروستقراطيين» توافرت له مثله خبرة بسيطة بالجيش ، ولكي يكسب عيشه عمل في تأليف الكتب في موضوعات مختلفة متباينة، وقد أثبت بيلو أيضًا أنه غير مستقر في آرائه كجيبيرن بل وربما كان أكثر منه إعتدادًا بنفسه وثقة في كفايته ، وقد ثار بيلو ضد كل فرد واتهم كل من عرض له بأن عقليته غير منظمة ، وأثار الروس ضده أثناء الحلف الروسي ـ البروسي ، وانتهى الأمر بأن اعتبرته الحكومة البروسية غير كامل القوى العقلية ومات في مصحة ببلدة ريجا عام ١٨٠٧؛ ومنذ ذلك التاريخ اختلف الناس في تقديره ، هبط به البعض إلى اعتباره مغرورًا معجبًا بنفسه ثم لا شيء بعد هذا ، وسما

(١) راجع (اعتبارات عن طبيعة الثورة الفرنسية) مالية دوبان طبع لندن عام ١٧٩٣ ، وكتاب (الحالة السياسية السائدة في أوروبا قبل وبعد الثورة الفرنسية) لجنتز .. طبع عام ١٨٠١ .

J. Mallet du Pan, Considérations sur la révolution de France (London ١٧٩٣) F. Gentz, von dem Politischen Zustande van Europa. vor und nach der frnzosischen Revolution (١٨٠١).

به آخرون إلى اعتباره منشئ العلم العسكري الحديث[١].

وقد نشرت أولى دراساته العسكرية «روح الطريقة الحديثة للحرب» في عام ١٧٩٩ ، وقد أكسبته شهرة كبيرة وسرعان ما ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية ، ويرى علماء الجيوبوليتيكس «علم سياسة الكرة الأرضية» اليوم في هذه الدراسة خطوة في تطور هذه الدراسات ، وقد أكمل بيلو كتابه بأحاديث وآراء عن «المساحة» السياسية ، وقد صرح ـ على نقيض فردريك ـ أنه بسبب الطريقة العسكرية الحديثة قد انتهى عصر الدول الصغيرة ، ويرى أن قوة الدولة تتجه إلى ملء منطقة معينة ، وأنها تكون غير مؤثرة إلى ما وراء هذه المنطقة ، ولما كانت كل قوة لها حدود طبيعية فإن إدراك هذه الحدود يمكن أن ينتج توازنًا سياسيًا كما يوجد سلمًا دائمًا وذلك تبعًا لأن كل قوة ستكون قد وصلت إلى الحد الطبيعي لعملها ، ثم يقول بأنه ستكون في أوروبا قرابة الاثنتي عشرة دولة هي الجزر البريطانية ، فرنسا (ممتدة إلى الميز) ، ألمانيا الشمالية (متجمعة حول بروسيا وممتدة من الميز إلى ممل) ، ألمانيا الجنوبية (التي تخلف النمسا والتي تمد حدودها جنوبًا إلى الدانوب وربما إلى البحر الأسود) ، إيطاليا المتحدة ، شبه جزيرة إيبيريا المتحدة ، سويسرة ، تركيا ، الروسيا ، السويد؛ وربما ـ وإن لم يكن هذا ضروريًّا ـ هولندة المستقلة والدانمارك المستقلة[٢].

والمدهش أن هذا كان تقديرًا طيبًا سابقًا لوقته لمصورة أوروبا؛ إذ أنه قد تحقق في عام ١٨٧٠؛ ومن الصعب أن نزعم بأن هذا التقدير قد قام على

(١) ذات المرجع المجلد الثالث ص ٢١٣٣-٢١٤٥.

(٢) ر. ستروزس «الجيوبوليتيكا .. الصراع من أجل المساحة والقوة» نيويورك عام ١٩٤٢ ص ١٤ – ٢١؛ بيلو «روح الطريقة الحديثة للحرب» لندن ١٨٠٦ ص ١٨٧-٢٨٥.

أساس تقدير صحيح للموقف العسكري في عام ١٧٩٩ ، فإن كتاب بيلو «روح الطريق الحديثة للحرب» لم يوضح تفهمًا حقيقيًّا لحروب الثورة ، ولم يكشف بيلو عن تجديد له طابعه المميز اللهم إلا في التشكيل المفتوح الجديد للمناوشين ، أي في تكتيكات المشاة فقط[1].

والواقع أننا يجب أن نذكر له فضل بذل الجهد لايضاح بعض المصطلحات ، وإن كان هو في الحقيقة قد قدم هذا في كلمات ذات معان عامة بعيدة الأهداف محاولًا تعريف «الاستراتيجية» و«التكتيك» و«قاعدة العمليات»؛ وبالرغم من أن تعاريفه لم تكن مقبولة من وجهة عامة إلا أن بحوث كتابه كانت إحياء جديدًا لآراء غير مستعملة.

وكانت «طريقة بيلو الحديثة» كطريقة «جيبير» ، «هي في بساطة تطور الطريقة في أيام القرن السابع عشر ، ومع هذا فقد قال بأنه قد كشف مفتاح تلك الطريقة عن طريق فكرة «قاعدة العمليات» ، «ومن الضروري ـ بالنسبة لطريقته ـ أن تكون قاعدة العمليات خطًّا محصنًا لمستودعات معدة من قبل ، كما يجب أن يلتقي «خطا العمليات» اللذان يوجهان من طرفي هذه القاعدة عند النقطة التي ستهاجم ، ويكون هذا في زاوية لا تقل عن ٩٠° درجة ، ويجب أن لا يسير الجيش الذي يعتزم الهجوم لمسافة تزيد عن مسيرة ثلاثة أيام من منطقة مستودعاته ، ويجب أن يكون هدف القائد ليس مهاجمة قوات العدو بل وقاية خدمات تموين قواته ، وفي العمليات الهجومية لا يحشد قواته ضد جيش العدو بل ضد خطوط تموين العدو ، ويجب تجنب القتال ، ويجب أن لا يتابع القائد المنتصر نجاحه فإن المعارك الحديثة لا تقرر شيئًا ، والجيش الذي يهزم في ميدان القتال يستطيع غالبًا الهجوم ثانية بعد

(١) ذات المرجع هامش ص ١٠٩.

أيام قليلة»[١].

على أن عدم صحة هذه التصورات والآراء قد وضحت مبكرًا في عام ١٧٩٤ عندما سارت خيالة الفرنسيين إلى أمستردام على الجليد ، كما أن معركتي هوهنليندن ومارنجو ـ اللتين حدثتا بعد طبع كتاب بيلو بشهور قليلة ـ كانتا ردًا واضحًا على «طريقته»؛ وقد فتحت معركة مارنجو عينيه فكتب عنها كتابًا خاصًا أصر فيه على أن النصر الفرنسي يثبت كل عقيدته التكتيكية ، وإن كان في الحقيقة يتعارض مع الكثير مما قاله من قبل؛ وقد تعلم بيلو ولكنه قد تعلم بالرغم منه وعن غير رغبة منه في تقبل هذا العلم الجديد.

وقد قال بيلو: إن مارنجو قررت في أقل من شهر مستقبل الثورة الفرنسية وبالتالي قررت إنسانية أوروبا ، «إن خفة الحركة هي سرّ نجاح فرنسا؛ كما تبدو أغلب التحصينات عديمة الفائدة أمام جيش خفيف الحركة؛ لقد باتت خفة الحركة والإقدام ممكنتين نتيجة تخفيف قوافل الحمل للجيش؛ ونتيجة للتحرر من نظام المستودعات» ، ويلاحظ بيلو أن بونابرت قد عَبَرَ الألب دونما طعام للجنود إلا «البقسماط» وهو غذاء كاف لا يتطلب الطهي ، ووصل إلى إيطاليا بجيش جائع وقد قرر أن يعيش من الأرض التي وصلها.

ولكن إلى أيِّ حد يتمشى هذا مع «قاعدة العمليات» ومسألة الزاوية ٩٠°؟

الواقع: أن بيلو قد أخفق في إيضاح هذا وإن كان قد ناقش الأمر

(١) ذات المرجع في كل مكان من الدراسة وعلى التخصيص ص ١- ٢٥ و ٨١- ٨٢و ١٠٨و ١٨٣-١٨٤.

مناقشة طويلة جدًّا ، وقد أشار إلى أن وجود أشخاص جدد في الجيش الفرنسي كان هو مورد الشجاعة الجديدة في هذا الجيش؛ وقد قال: إن ضباط الجيش النمساوي يصلون إلى مراكزهم بالأقدمية ، وأن مواهبهم متوسطة؛ ولكن «مع عدم إمكان فصل التطور واضطراب الأوضاع عن الثورة فقد ظهر في فرنسا رجال ما كان ليمكن في وقت السلم والهدوء أن يكشفوا قط عن كفايتهم. أو حتى أن يشك في وجود هذه الكفاية ، وكان هذا التطبيق المفاجئ للكفاية النادرة والعبقرية هو أول الأسباب التي أوضحت أفضلية الفرنسيين في هذه الحرب»[١].

ومع هذا الإيضاح فإن بيلو لم يستطع أن يفهم الحرب الخاطفة التي أذهلت أوروبا ، فقد قال عن النصر الفرنسي: إنه إنذار ، إنه نذير شؤم ، إنه رسالة من السماء. وتحول الرجل ليقف في جانب بونابرت والفرنسيين ، وقد سبب له هذا الموقف حرجًا تبعًا للروح القومية التي كانت تطغى على ألمانيا ، وبلا شك أن هذا كله قد زاد من توجيه الأنظار إلى اضطراب قواه العقلية.. أو على الأقل مهَّد السبيل إلى تقبل هذا..

ثم جاءت حملة عام ١٨٠٥ ، وفي ذلك العام تكوَّن التحالف الثالث من النمسا وروسيا وبريطانيا ، وقد وجهت الدولتان اللتان تعيشان في قارة أوروبا الجيوش الجرارة للغرب ، وقد أمَّلت أوروبا الأروستقراطية خيرًا كثيرًا في هذه الجيوش. ومن النادر أنْ حدثَ في التاريخ ما حدث بتلك

(١) Histoire de la campagne de ١٨٨٠ en Allemagne et en ltalie
«تاريخ حملة عام ١٨٠٠ في ألمانيا وإيطاليا» طبع باريس عام ١٨٠٤ ص ٤ و ٥ و١٦ و ٩٠ و٩٢ هامش ١٤٢ و ١٨٣ ، والنسخة الألمانية طبع برلين عام ١٨٠١ من الصعب الحصول عليها.

السرعة؛ ففي أيام قليلة سيَّر بونابرت عددًا كبيرًا من الفيَالق من أماكن على الساحل الغربي لأوروبا إلى جنوب أوروبا ، وفي «أولم» أرغم الجنرال ماك ـ الذي اشتهر بأنه من سادة الاستراتيچية ـ على أن يستسلم وفي رفقته ثلاثون ألف جندي دون قتال عنيف ، ثم تحرك إلى ڤيينا ومنها إلى موراڤيا ووجد القوات النمساوية الروسية تواقة إلى الهجوم ، ولكنه هزمها هزيمة منكرة في قرية «أوسترلتز».

وكتب بيلو بعد هذا مباشرة كتابًا في مجلدين عن تلك الحملة ، وأصدره في الشهور الحرجة التي تبعت أوسترلتز والتي اندفعت فيها بروسيا رغم سياستها ذات الوجهين نحو الهزيمة التي لحقت بقواتها في يينا ، وكان على بيلو أن ينشر كتابه في طبعة خاصة؛ فقد كان من الخطر أن يشترك فيه أيُّ فرد ، وقد أدى هذا الكتاب إلى نكبته هو ، والكتاب مليء بالمتناقضات ، وقد كشف الكتاب عن عدم اتزان قواه العقلية،كما كشف عن الاضطراب العام في أوروبا كلها ، وقد كتب كتابه كما يكتب شخص يؤمن بأن أحدًا لا يرى الحقيقة غيره ، كان يقول: إنه موجه ليوجد طريقة جديدة في الحرب هي الطريقة البيلوية «بيلويتش» نسبة إليه ، والتي على أساسها يجب أن يتعلم كل ضباط المستقبل ، وقد هاجم فردريك وانتقص من كفايته ومن تعاليمه ، وألحَّ في التجديد الذي لم تحاوله بروسيا حتى كانت معركة يينا ، ولكنه مع هذا يقول بأنه لا أمل في الإصلاح ، وأن نابليون على وشك أن يوحد أوروبا بالحرب ، وأنه يجب على دول أوروبا كلها أن تتقبل سيادته عليها ، ثم يضيف أن أوسترلتز هي أكتيوم الجديدة(*) (١).

(*) اكتيوم بلدة على خليج إمبركيان على الساحل الغربي لليونان هزم فيها أغسطس جيش مارك أنتوني وكليوباترة في الثاني من سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد ، وقد مهدت هذه=

وقد رأى بيلو أن النصر الفرنسي لعام ١٨٠٥ إنما هو دليل قوي على نجاح عقيدة جيبير التكتيكية ، وقد قال: إن الفن الناجح في الحرب هو أن تحتفظ بكل قوتك لا أن تبعثر جيشك في حاميات الحصون ، إن نابليون أكثر من غيره احتفاظًا بكل قواته نشطة ، ويدل هذا على فساد وعدم صلاحية أسلوب الحرب القديمة.. حرب المواقع ، ففي أولم كان لدى ماك جيش قوي في موقع قوي؛ ولكن نابليون أرغمه على الاستسلام ، وقد استطاع نابليون هذا بتطبيقه مبادئ جيبير بالاستخدام الصحيح لفرق الجيش التي سهل منها الاكتشاف الجديد الذي جاء به نابليون بإعداد الفيلق مع توزيع هذه الفرق للحصول على سرعة السير؛ ولتغطية مسرح فسيح لميدان القتال دون أن يفقد وحدة قواته ، وقد نتج عن هذا ـ على ما يقول بيلو ـ: «الدليل الواضح الصحيح لأفضلية الاستراتيجية على التكتيك في الحرب الحديثة»[٢].

وقد جاءت هذه الأعوام بالكثير مما يستحق التسجيل والدراسة.. فإن زيادة الاعتماد على «الاستراتيجية» مع قلة الاعتماد على «التكتيك» بالتبعية قد جعلت مشكلات القيادة العليا تتجه إلى تعقد غير معروف من قبل ، وفقدت ـ أيضًا ـ المعركة بعض العوامل الخالصة للفرص والاحتمالات الطارئة التي كان فردريك يخشاها والتي كانت ـ قبل الثورة ـ لا تشجع على

=المعركة لسيطرة الرومان على الشرق الأدنى.

(١) Der Feldzug uom ١٨٠٥

حملة ١٨٠٥ طبع ليبزج عام ١٨٠٦ المجلد الأول ص ١-٢٦ (المقدمة) المجلد الثاني ص ١٨٥.

(٢) ذات المرجع المجلد الأول ص ١٠٨-١٠٩ المقدمة ، المجلد الثاني ص ٣٤ المقدمة و ص ١٠٩.

القيام بالعمليات الاعتِدَائِيَّةِ ، وأمست المعركة في صورتها الجديدة وسيلة لاختبار الاستعدادات الإضافية التي تتم من قبل.

ومن جهة أخرى كان التخطيط قد أضحى مثمرًا ، وصار التكهن والتنبؤ أكثر إمكانًا ، وأضحت الحرب علمًا أكثر مما كانت من قبل ، وامتدت ظلال القيادة العسكرية لتصل إلى العلاقات السياسية العامة من ناحية ، وإلى السياسة الداخلية من ناحية أخرى.

وكان لدى بيلو الكثير مما يمكن أن يقوله عن هذه الموضوعات كلها.

على أن بيلو قد أصرَّ كما أصرَّ فردريك من قبل على الحاجة إلى ضرورة توافر عقلية واحدة منظمة التفكير موفورة الذكاء في رأس الدولة؛ وقد آمن بأنه في ضوء الأحوال الحديثة للاستراتيجية لم يعد من سبيل للفصل بين السياسة والحرب؛ فكبار القادة يجب أن يتفهموا الشئون الخارجية كما يجب أن يتفهم السياسيون الناجحون العمل العسكري ، وقد كانت حياة نابليون مثالًا جيدًا لإيضاح فائدة الجمع بين السياسة الخارجية والسلطة العسكرية في يدٍ واحدة وعقل واحد ، بينا نرى أن اضطراب إجراءات الحكومات المتحالفة والتي كانت تضاد نابليون إنما يقدم صورة واضحة للعمل السلبي.

وقد أضحى من الضروري توافر الذكاء الموجه تبعًا لهذه الصورة الفنية الحديثة التي عرفتها الحرب ، ووجب كذلك أن تسمو القيادة العليا على عمل الأخصائيين والفنيين؛ إن أعمال التحصينات ونظرية نيران المدفعية والطب العسكري وما يشابه هذا هو كله من العلوم التحضيرية الأولية ، ولكن علم استخدام كل هذه النواحي الفنية في تقوية المجتمع والدفاع عنه هو العلم العسكري الصحيح ، وكان بيلو يرى في هذا الواجبَ الصحيحَ

للقيادة ، «وهنا يبدو بوضوح أنه عندما يضطر رئيس الدولة ليترك توجيه نشاط دولته في الحرب إلى نفر من الأخصائيين المدربين على العلوم التحضيرية فإن أول مظاهر هذا هو تضارب الاتجاهات ، وتكون أولى النتائج له ضعف الدولة. وتكون النتيجة النهائية: التقسيم والتفكك؛ ذلك لأن القوة الرابطة تكون قد فقدت ، هذه القوة التي تجمع «المواد» في بناء واحد ولغرض واحد ، وهنا أيضًا كان الدرس واضحًا في الفرق بين نابليون وأي حاكم آخر من حكام أوروبا[١].

وكانت لبيلو وجهات نظر عن «القوى العددية» أي إنشاء الجيوش وتشكيلها ، ولكنها لم تكن كلها مخادعة أو مداهنة لبروسيا المعاصرة ، فلقد هاجم الحكومة البروسية وسخر منها لأنها تصر دون رويَّة أو حسن تقدير مبقية على أسلوب فردريك ، هذا الأسلوب الذي يقول بيلو: إن فردريك نفسه قد أدرك ضعفه وأحس به قبيل وفاته ، الأسلوب الذي ترك عامة الشعب بلا علم أو روح معنوية وعاش الناس يتبعون نظامًا يتعارض مع «حقوق الإنسان».

وأوصى بيلو باتباع الأسلوب الفرنسي للتجنيد العام؛ لما لهذا من تأثير قوي على الروح المعنوية ، «وحتى لو اتخذنا وجهة النظر الانتفاعية الخالصة فإن الجيش يمكن اعتباره أكبر مؤسسة ثقافية للشباب» ، ويجب أن يواجه التعليم العسكري «ثقل التنظيم الداخلي ، وأن يمكن من مكافأة الأفراد عن الفضائل والمواهب التي تتوافر لهم» ، ويشير بيلو إلى أن بروسيا لم تنجب إلا العدد القليل من الرجال ذوي العبقرية ، ومع هذا فإن الموارد تضيع هباءً ما لم يسيطر عليها رجال أَكْفَاء؛ ولهذا فقد طالب بيلو بأن يمهد السبيل لذوي

(١) ذات المرجع المجلد الأول ص ٥-٢٠.

المواهب ، وضرب مثلًا بوسام جوقة الشرف الذي أصدره نابليون.. ، واقترح إنشاء تنظيم «رابطة الفضيلة» Bund der Tugend يمكّن من وضع الناس في درجات تبعًا لذكائهم ومؤهلاتهم ومدى نفعهم للدولة «على أن يطغى هذا التنظيم على التمييز الأرستقراطي القديم»(١).

وقد بقيت هذه الآراء كلها غير منظمة في عقل بيلو ، فهو لم تتوافر له قط هذه الصلابة في الاستمساك بالرأي ووحدة الغرض الذي يهدف له ، الأمر الذي قال عنه إنه ضروري للقيادة ، ومن المستحيل القول بأنه قد أحس بماذا يمكن أن تكون أهدافه ، كان قد وقف في جانب الثورة الفرنسية وتحدث عن حقوق الإنسان ولكنه كان أقل تحررًا من جينيسناو ، لو أردنا أن نقارن بينه وبين عسكري محترف آخر ، كان يقول عن نفسه إنه مواطن بروسي ، ولكنه كان لا يقدر فردريك. ويقول بأن بروسيا بوجودها قد أنهت الوجود القومي لألمانيا ، وكان في بعض الأحيان يتحدث كمواطن ألماني؛ ولكنه كان دائمًا يقف في إصرار وعناد في جانب فرنسا؛ وكان يتحدث أحيانًا عن توازن القوى ثم يعود فيعترف بأنه لا يعنيه ما إذا بقي ملوك أوروبا محتفظين باستقلالهم أم فقدوا هذا الاستقلال؛ وكان الرجل في الواقع مكافحًا من أجل هدف غير واضح ، وكان مجددًا في صورة تُعتبر خرافة ، وكان فيلسوفًا في العلم العسكري على غير تجربة ، وقد نصح فرنسا بل وكل أوروبا بأن تتفق مع نابليون بعد أوسترلتز ، وقد قال بأن التحالف الرابع سيكون عديم النفع ، وألحَّ على قادة أوربا أن تتفق مع الإمبراطور الفرنسي لإذلال بريطانيا ، وكان سلوكه بعد معركة «يينا» كأنه يقول: «لقد قلت لكم

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ١٨- ٢٢ المقدمة ، الحديث في التكتيكات الجديدة طبع ليبزج ١٨٠٥ ص ٤٨.

هذا!».

وفي عام ١٨٠٧ قدم بيلو للحكومة البروسية كل الأسباب التي تمكنها من اعتباره قد فقد عقله أو على الأقل كأنه شخص خطر في وقت يعتبر مصابًا عامًّا للدولة، ووضح أنه يكتب لا لغرض إلا ليضخم من آرائه ومن الحملة القاسية على رجال الدولة، وأرسلوا به حيث احتجز لمرضه العقلي.

والواقع أن هؤلاء في غمرة نظرهم إلى أخطائه أغفلوا إدراك مواهبه فلما مات لم يفقد العالم بموته شارنهورست آخر.

وكان بيلو كرجل من أصحاب النظريات تتوافر له حاسة إدراك طبيعة الثورة العسكرية في عصره وإن كان هو قد جاء بطيئًا وفي صورة مضطربة، فإن هذه الثورة في الواقع لم تقم على أسس فنية برغم التحسينات المهمة في المدفعية، ولم تكن كذلك ثورة في الاستراتيچية إلى غاية ما لهذه الكلمة من معنى برغم الزيادة الكبيرة في خفَّة الحركة وقوة الضرب بعد تخلص الجيش من الاستناد إلى المستودعات، وبعد تنظيمه في فرق؛ لقد كانت الثورة العسكرية في أعماقها ثورة سياسية، وقامت القوة الدافعة على أساس امتزاج الشعب والحكومة الأمر الذي أوجدته الثورة، فقد أحس أفراد الشعب ـ في صورة لم تكن مستطاعة قبل عام ١٧٨٩ ـ بأنهم يسهمون ويشتركون في الحكومة، وأنهم ينالون النفع الكبير من حكومتهم؛ ولهذا يجب أن يقاتلوا من أجلها؛ ومن جانب آخر فإن الحكومة وهي تتولى الأمر باسم الشعب كان في استطاعتها أن تعمل بموارد مادية وبشرية في صورة لم يكن فردريك يحلم بهذا الأمر، وكانت النتيجة النهائية أنه بعد عام ١٧٩٣ وجهت كل ثورة فرنسا وقوتها ضد أوروبا؛ وفي طوال القرن التاسع عشر كان المبدأ الأساسي مبدأ ارتباط الشعب والحكومة ـ سواء أكان ارتباطًا

ديمقراطيًّا أم غير ديمقراطي ـ هو دعامة النظام السياسي في كل دول أوروبا..

كانت حروب الملوك قد انتهت وبدأت حروب الشعوب.

***

مراجع الفصل الثالث

فردريك الأكبر وجيبير وبيلو

من حروب الأسر الحاكمة إلى الحروب الأهلية

M. Jậhns, Geschichte der Kriegswissenschaften Vornehmlich in Dewtschland, ٣ vols. (Munich, ١٨٨٩- ١٩٠١).

H. Delbrück, Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte, ٧ vols. (Berlin, ١٩٠٠ – ١٩٣٦).

O. Hintze, Das politische Testment Friedricks des Grosen von ١٧٣٢).

(Deursche Bucherei ٩٨/٩٩).

Frederick The Great, Werke Friedrichs des Grossen, ١٠ vols. (Berlin, ١٩١٢-١٩١٤).

In French, Oeuvres de Frédéric le Grand, ٣٠ vols. (Berlin, ١٨٤٦-١٨٥٦).

T. R. Phillips, Principles généraux de la guerre, in Roots of Straregy, (Harrisburg, ١٩٤٠).

Guibert, Oeuvres militaires du comte de Guibert, ٥ vols. (Paris, ١٨٠٣).

Guibert, A general essay on tactics, with an inrtoductory

discourse upon the presnt state of politics (London, ١٧٨١).

Bülow, The Spirit of the Modern System Of War. (London, ١٨٠٦).

القسم الثاني

أمهات الكتب في القرن التاسع عشر

شرَّاح خطط نابليون

الفصل الرابع

جوميني

بقلم : كـــران بـــرنتون
جوردون كريـج
فيليكس جلبرت

جاءت الحرب العالمية التي قامت بين فرنسا وهذه المجموعة من الاتحادات الدولية ـ هذه الحرب التي تعرف الآن باسم «حروب نابليون» والتي استمرت من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٥ فيما عدا فترات قليلة قصيرة للراحة ـ جاءت بعمل رئيسي جديد في صناعة الحرب هو: «جيش المواطنين» ، الجيش الذي حشد من عدد كبير من الأهلين لأداء خدمة عسكرية عامة ، كما جاءت أيضًا بعبقرية عسكرية فذَّة هي: «نابليون بونابرت».

وبالرغم من أن شخصية نابليون وموهبته تستحقان هذه الدراسات الطويلة الدقيقة التي وقفت عليهما إلا أنه ما من شكٍّ في أن هذا العامل الخاص بجيش الشعب كان هو أهم ما خلفته لنا هذه السنوات المجهدة المليئة بالمتاعب.

والواقع أن النداء القوي الذي بدأ به تصريح ٢٣ أغسطس عام ١٧٩٣ مطالبًا وداعيًا إلى التعبئة العامة لقوى الشعب لابد وأن يظل دائمًا ماثلًا لأعيننا يثير انتباهنا.. **فقد جاء فيه:**

«**المادة الأولى**: ومن هذه اللحظة وحتى ينتهي طرد العدو من أرض الجمهورية فإن كل الرجال مطالبون أن يتقدموا للعمل بصفة دائمة في جيوش الجمهورية».

«وسيرسل الشبان إلى ميدان المعركة ، ويعمل الرجال المتزوجون في صنع الأسلحة ونقل الذخائر ، وتعمل النساء في صنع الثياب والخيام ويخدمن في المستشفيات ، ويعمل الأطفال في صنع أربطة الجرحى من الأقمشة القديمة ، ويجمع الشيوخ والعجائز في الميادين العامة لإثارة شجاعة الجنود أثناء الدعوة لوحدة الجمهورية وكراهية الملوك»(١).

وقد أنشئ هذا الحشد لجموع المقاتلين ـ «جيش الشعب» ـ في وقت بدت فيه فرنسا وكأنها على وشك الانهيار ، وفي أقل من عام منذ تطبيق هذا النظام بدأ الفرنسيون الهجوم ، وكانت الدول التي تكوِّن الحِلف المضاد لفرنسا في غمرة شكوك كل منها بأهداف الأخرى لم تجئ بقواتها كاملة في اللحظة الحاسمة ، بل على النقيض جاءت بأقل ما تستطيع من قوة ، وقد أثبتت حكومة الجمهورية ـ تبعًا للوحدة التي أوجدتها حكومة الإرهاب بالإرغام ، ثم بهذه القوى العددية الكبيرة التي مكن منها التجنيد العام ـ أنها قادرة على مواجهة الحلف غير المتماسك ، وفي عام ١٧٩٥ تفكك الحلف فوقَّعت أسبانيا وهولندة وبروسيا معاهدات الصلح ، وفي عام ١٧٩٦ حصل بونابرت ـ أحد القادة الذين أظهرهم عهد الإرهاب ـ على أولى قياداته المستقلة فاخترق أرض إيطاليا مجتازًا جبال الألب ، وفصل بين

(١) **Réimpression de l'ancien Moniteur depuis la Réunion des Etats – Généraux jusqu'au Consulat.**
٢٥ أغسطس ١٧٩٣ مجلد ١٧ ص ٤٧٨ طبع باريس ١٨٤٠-١٨٤٥.

جيوش النمسا وجيوش سردينيا ، ثم دار بسرعة ليواجه النمساويين الذين أرغمهم في عام ١٧٩٧ عل تقبل معاهدة كامبوفورميو ، وحصلت فرنسا على حدودها الطبيعية فوق الرين مع السيطرة على جمهورية جديدة وليدة في لومباردي ، وبالرغم من أن جمهورية ڤينيسيا كانت قد ضاعت من الوجود بضم أراضيها للنمسا إلا أن توازن القوى في أوروبا كانت قد هزت الثورة منه بعنف؛ ولهذا استمر السلم لشهور قليلة وعقدت انجلترا والنمسا حلفًا جديدًا مع روسيا.

وقام الحلف الثاني بسلسلة من العمليات ضد نابليون الذي أدت به انتصاراته إلى مقعد الديكتاتور ، هذا المقعد الذي تظاهر بعدم الرغبة فيه قبل أشهر قليلة عندما حدث التعديل الحكومي في الشهر الثاني من التقويم الثوري الفرنسي ، وقد اضطرت بريطانيا إلى أن توقع في إميان معاهدة صلح لم تكن في صالحها إلى حد بعيد ، ثم مرَّ عام كامل تقريبًا بين ١٨٠٢ و ١٨٠٣ دونما حرب.

وفي أثناء هذا دعم نابليون سلطته في فرنسا وتدخل في إيطاليا وسويسرا وهولندة وألمانيا ، وأثار مخاوف وأطماع الدول المهزومة ، ثم وجد نفسه من جديد في حرب مع انجلترا ، وتبعًا للسياسة الإنجليزية وجد بونابرت نفسَه يواجه تهديدًا بحلف ثالث.

وقد اضطر نابليون ليستطيع العمل ضد النمسا وروسيا إلى أن يؤجل غزو بريطانيا ، وفي أسابيع قليلة استطاع تدمير النمساويين في أولم وأوسترلتز ثم دفع الروس للوراء من فوق جبال الكربات ، وفي ذات الوقت كسب الإنجليز معركة «الطرف الأغر» البحرية مما أكد نجاة بريطانيا من أيِّ غزو فرنسي لأرضها في المستقبل ، وهكذا أضحى على فرنسا أن تهزم

بريطانيا عن طريق الحرب البرية.

ووجد نابليون الدوافع ليدعم سيادته على قارة أوروبا من جديد ، ***والواقع*** أنه قد استطاع أن يحقق هذا نتيجة لمقابلة أعدائه فرادى في عمليات سريعة متتالية ، فسحق بروسيا في معركة يينا عام ١٨٠٦ ، وأرغم روسيا على أن تقبل التحالف معه بعد معركة فريدلاند عام ١٨٠٧ ، ثم وقف نابليون في ذروة مجده بعد معاهدة تيليست في ذات العام.

وكانت بريطانيا لا تزال بمعزل عن قبضة نابليون. ورأى أن الوسيلة الوحيدة للقضاء عليها هي تدمير بناء الاقتصاد البريطاني ، وبدأ باستخدام نظام تجاري للقارة يمنع دخول السلع الإنجليزية إلى قارة أوروبا ، ولم يكن الأمر هينًا؛ فقد تطلب هذا الجهود الجبارة للسيطرة على سواحل القارة ، ومن أجل هذا احتل أسبانيا ، وشدد من قبضته على إيطاليا ، وضم إلى فرنسا هولندة وساحل ألمانيا على بحر الشمال وأجزاءً من إيطاليا وكل ساحل دلماسيا ، ولكن كل هذا لم يصل به إلا إلى القليل؛ فقد بدأت المقاومة الشعبية في أسبانيا بمساعدة قوات إنجليزية ، وفي ذات الوقت وقفت النمسا بتشجيع المواطنين النمساويين وبتشجيع الثورة الأسبانية ، وقفت موقف التحدي لإمبراطور فرنسا.

وقد أدى وقوف النمسا وحدها إلى هزيمتها للمرة الرابعة في حرب عام ١٨٠٩ القصيرة الأمد ، ولعامين اثنين عاشت أوروبا في سلم مضطرب ، وأخيرًا استطاعت الهيئات المضادة لفرنسا والضالعة مع الإنجليز أن تكسب إذن القيصر ، وكان على نابليون أن يفعل شيئًا ليرغم روسيا على البقاء في موقفها الأول ضد انجلترا ، وهكذا اندفع في الحملة الخاسرة الفاشلة لعام ١٨١٢ ، وربما كان جيشه ـ الذي وصل تعداده إلى ستمائة ألف

جندي ، والذي جمع من شباب فرنسا بالتجنيد العام ومن قرابة اثنتي عشرة دولة من الدول الخاضعة لسلطانه ـ ربما كان هذا الجيش أكبر حشد عسكري حدث في أوروبا حتى ذلك الوقت للقيام بحملة واحدة. على أن نهاية هذا الجيش الكبير معروفة لا تتطلب إيضاحًا ما.

وهكذا كشفت عن نفسها العوامل التي كانت تسبب ضعف الإمبراطور ، وبدأت الدول الخاضعة لسلطانه تخرج عليه الواحدة إثر الأخرى ، وانضمت النمسا والولايات الألمانية إلى بريطانيا وروسيا ، كما شدّ من سواعدهم الثوار الأسبان والإيطاليون ، ولم تكن هذه الدول الثلاث ـ والتي هي أقوى دول أوروبا ـ قد وقفت معًا من قبل كتلة واحدة متماسكة ، ونتجت عن هذا أن حدثت (في أكتوبر عام ١٨١٣) معركة ليبزج أو معركة الأمم ، والتي كانت أكبر معركة حدثت في أوروبا وأمريكا حتى عام ١٩١٤ ، كانت صراعًا بين الجيوش الأهلية. وقد قررت هذه المعركة مستقبل نابليون بل ومستقبل فرنسا ، ومكنت السياسة الإنجليزية من أن تقف الدول الأربع الكبرى في أوروبا في أقوى حلف تجمع ضد فرنسا ، وانتهى الأمر بإرسال نابليون إلى جزيرة إلبا ، «وفيما عدا الأيام القليلة التي قاتل فيها ضد الحلف الأوروبي من جديد بعد عودته من إلبا» كان هذا هو نهاية حياة نابليون العسكرية.

على أن مدى هذه الحروب وأحجام الجيوش التي خاضت غمارها ، والسرعة التي حركها بها نابليون والتي حصل بها على انتصاراته ، ثم ازدياد اتجاه فرنسا إلى تغيير كل صور الحكم في دول أوروبا لوضع نظام جديد للقارة مع سيادة فرنسا عليها ، كل هذا قد بدا لأعين المعاصرين كشيء جديد لم يجئ التاريخ بمثله من قبل ، وفي وعظ كنسيٍّ ألقاه ويليام إيليري

كانِنج في كنيسة بوستون في اليوم الخامس من إبريل عام ١٨١٠ قال: «إننا نعيش في وقت لا مثيل له في العصور القديمة ، في وقت قد اتخذت فيه الطباع البشرية صورة جديدة ، في وقت له طابعه المظلم المميز الذي يدفع إلى اليأس والقنوط ، فهل لي أن أسأل عن هذه الصورة القاتمة في هذا العصر الذي نعيش فيه؟ إنني في إجابتي لهذا السؤال أقول: إنه في قلب أوروبا وفي قلب العالم المتحضر يقوم اليوم نظام جديد له تأثيره التدميري على أنقاض تعاليم قديمة ، إننا نرى هناك أمة كان لها دائمًا مركز ممتاز في أوروبا ، وفجأة نفضت يديها من كل صور الحكمة: من القوانين ، من العادات ، من الروح التي عاشت بها الأمم التي تحيط بها ، ومرة واحدة اتخذت لها طابعًا جديدًا ، وكونت حكومة جديدة حرة بالاسم واللفظ ولكنها تتحكم في كل فرد من رعاياها ، في ممتلكاته ، في حياته الخاصة. بل وتوجه كل نشاطها للسيطرة على غيرها من الدول ، إننا نراها اليوم تزخر بكل عوامل الاضطراب الداخلية ، وتتنكر لكل المثل العليا التي تتحدث عنها ، ثم تسيطر بقوة أسلحتها على الأمم التي تحيط بها»(١).

على أن المعاصرين لم يكونوا كلهم جد واثقين ككانِنج من أن العصر الذي يعيشون فيه لم يكن له مثيل من قبل ، فعن حياة نابليون مع ما فيها من طابع جديد قد بدت لضابط سويسري ممتاز يعمل في خدمة فرنسا وكأنها إيضاح كامل لاطراد تطور الحرب والسياسة في القرن الثامن عشر ، وكلما كانت انتصارات نابليون براقة حاسمة كلما بدت لعيني هذا الضابط تستحق

(١) أعيد طبع هذه الموعظة الكنسية كما جاءت يوم ٥ إبريل عام ١٨١٠ في مجلة «السجل المسيحي» (Christian Register) عدد أغسطس عام ١٩٤١ في الصفحتين ٢٤٨ و ٢٤٩ مع وضع اسم «هتلر» مكان اسم «نابليون» ومع استبدال فرنسا بألمانيا.

المزيد من الإيضاح؛ ذلك لأنه كان يرى فيها إعادة للكشف عن قواعد قديمة ، هذه القواعد التي كان عصر التقدم العلمي يحاول دائمًا أن يجعلها أكبر تأثيرًا وأكثر إيجازًا. وفي محاولة «هذا الضابط السويسري» الجنرال چوميني إيضاح وعرض حياة نابليون فإنه قد أسهم في إيضاح آخر ما وصلت إليه صناعة الحرب في هذا العصر الذي عاش فيه.

والواقع أنه لم يبدأ بدراسة خالصة للحرب في الطابع الفني الذي لها كصورة من صور البشرية التي عرفها الناس منذ القدم ، وفي الأسلوب الذي قامت على أساسه مثل هذه الدراسة في الماضي ، بل الواقع أنه بدأ بدراسة الموضوع في أسلوب جديد مستحدث بقي طابعًا لكل الدراسات لصناعة الحرب منذ ذلك التاريخ.

وقد يمكن أن نقول بأن چوميني قد قام ـ مع كلاوزيڤيتز الذي سبقه بوقت قليل ـ في دراسته للحرب بمثل الشيء الذي فعله آدم سمث لدراسات الاقتصاد ، وكما كانت هناك كتب هامة عن الاقتصاد قبل أن يظهر كتاب «ثروة الأمم» في عام ١٧٧٦ كانت هناك كتب هامة عن الحرب قبل أن تظهر المجلدات الأولى من كتاب «دراسة للعمليات الحربية الكبرى» في عام ١٨٠٤ ، وكان أغلب هذه الكتب وعلى الأخص كتابات لويد ، وجريموار ، وجيبير ، وبيلو ، وفردريك الأكبر معروفة لچوميني ، وقد أشار كثيرًا إلى ما كسبه منها من معرفة[١] .

(١) الفصل الافتتاحي للطبعة الأولى الكاملة لكتاب چوميني Précis de l’art de la guerre طبع عام ١٨٣٨ يعتبر عرضًا طريفًا كاملًا للحديث عن الكتاب العسكريين حتى ذلك العصر ، وفي طبعة لاحقة بعد هذا الكتاب أضاف صديق چوميني الكولونيل السويسري ف. لوكونت لهذا الفصل ما حصل به إلى الوقت الذي أعيد فيه طبع هذا الكتاب من جديد.

وبالإضافة إلى هذا فإن محاولة چوميني العملية لاستنباط مبادئ الحرب قد جعلته يشارك كلاوزيڤيتز في مكانه كموجد ومنشئ للفكر العسكري الحديث ، على أن اتجاهات چوميني نحو أولئك الذين سبقوه ونحو الرجل العظيم الذي عاش معه في عصر واحد ـ «كلاوزيڤيتز» ـ إنما تلقي ضوءًا عل مكانته وعلى أهدافه ، فإن الكاتبين العسكريين اللذين أبدى چوميني اهتمامًا خاصًّا بكتاباتهما: هما بيلو وكلاوزيڤيتز ، فإن كل أعمال چوميني في الواقع تشير إلى بيلو أو تنقد نظرياته[١] ، ولقد اتهم چوميني بيلو بأنه قد زاد من تقدير قيمة النواحي الفنية لصناعة الحرب ، كما يقول بأن بيلو قد رمى كل أولئك الذين عارضوا ناحية القياس الهندسي للحرب بالغباء مع أن نظرياته هو نفسه مع دعمها بالنقاش العلمي تبدو غير منطقية خداعة المظهر عندما توضع موضع الاختبار في حروب نابليون..

ولكن بينا أن چوميني عارض ميل بيلو إلى تقدير أهمية كبرى للنواحي الفنية للحرب. فقد اتهم كلاوزيڤيتز أنه قد جعل كل العلم العسكري مستحيلًا ، يقول: «إن المرء لا يستطيع أن ينكر ما يتوافر من المعرفة للچنرال كلاوزيڤيتز ، ولا يمكن أن ينكر قلمه المطواع ، ولكن هذا القلم كثيرًا ما يندفع دون ما سيطرة تحد من اندفاعه ، ثم إنه بالإضافة إلى هذا أبعد ما يكون عن الأسلوب المتواضع ، الأسلوب الذي يجب توافره في النقاش التعليمي ، وإلى أبعد من هذا فإن المؤلف يثير ترددًا أو شكوكًا في الكثير من مسائل العلم العسكري ، إن المجلد الأول من كتابه عبارة عن

(١) راجع (دراسة للعمليات الحربية الكبرى) Traité dis grandes opérations militaires الطبعة الرابعة طبع باريس عام ١٨٥١ المجلد الأول ص ٤١٥ والمجلد الثاني ص ٢٣٦ و ٢٧٣ والمجلد الثالث ص ٣٣٦ ، (دراسة موجزة لفن الحرب) باريس ١٨٣٨ المجلد الأول ص ١٥ و ٢٣٤ و ٢٧٢ – ٢٧٦.

خطبة طويلة ضافية ضد كل نظريات الحرب بينا أن المجلدين التاليين مليئان بحكم ومأثورات نظرية تثبت أن المؤلف يؤمن بصلاحية ما يقدمه من آراء حتى وإن كان لا يؤمن بآراء الآخرين»[١].

فلما قرأ چوميني الدراسة التي وسمها كلاوزيڤيتز بعنوان «فن الحرب» كتب يقول: إنه قد وجد في هذا «الأخطبوط العلمي» القليل من الأفكار التي تسترعي الانتباه ، وأن هذا التشكيك الواضح من جانب المؤلف قد جعله يؤمن بالحاجة إلى استخدام «النظريات الصحيحة» وحدها[٢] وترك ما عداها.

وقد نجد في نقد چوميني لبيلو وكلاوزيڤيتز الغرض الذي استهدفه من كتابه ، فإن زيادة إدراكه وتفهمه لكتابات بيلو قد علمته الحاجة إلى تنقيح وتصحيح النظر في تعاليم القرن الثامن عشر من صناعة الحرب وإن كان من الواضح من تعليقاته النقدية على دراسات كلاوزيڤيتز أنه لم يكن قط راغبًا في التنكر تنكرًا تامًّا لتلك الآراء.

---

(١) «الدراسة الموجزة» المجلد الأول ص ٢٠- ٢٢.

(٢) ذات المرجع ، وفي «الدراسة الموجزة» كتب چوميني نقدًا لكلاوزيڤتينز يعتبر نموذجًا لصورة الزهو والخيلاء الواضحة في كل كتاباته؛ إذ يقول فيه: «إن أعمال كلاوزيڤيتز لها قيمتها ونفعها وإن كانت في الغالب تقل فيها آراء المؤلف نفسه في الوقت الذي تزداد فيه آراء غيره من المؤلفين ، هذه الآراء التي يسخر منها ، وقد كان من الممكن أن تكون أكثر نفعًا لو كان قد عالج هذه الآراء بغير هذه الطريقة ، ولكنه ككاتب يهدف إلى التعليم فإنه قد أثار من الشكوك أكثر مما أوضح من حقائق ، وكمؤرخ ناقد فإنه كان مقلدًا فيما عدا القليل الذي كانت فيه بعض الأصالة ، إن أولئك الذين قرأوا كتابي عن حملة عام ١٧٩٩ والذي نشر قبل كتابه هو بعشر سنوات لن ينكروا ما أقوله من أنه لا يوجد انعكاس فكري واحد لي لم يكرره هو (كلاوزيڤيتز) في كتابه».
الدراسة الموجزة المجلد الأول هامش ص ٣٢.

[٢]

ولد أنطوان هنري چوميني في عام ١٧٧٩ في إقليم «ڤو» في الجزء الفرنسي من سويسرا ، سليل أسرة من الطبقة الوسطى موفورة الحال هاجرت من إيطاليا قبل هذا بعدة أجيال ، وتلقى الثقافة التقليدية لأبناء الطبقة البرجوازية الذين يستهدفون العمل في التجارة أو المصارف ، وكان يعمل فعلًا في أحد مصارف باريس عندما نجح في الحصول على مركز ـ غير رسمي وبغير أجر ـ بين هيئة أركان الحرب للجيش الفرنسي ، فقد كان چوميني في السابعة عشرة من عمره عندما بزغت شمس الجنرال بونابرت في حملة إيطاليا وغمر ضوؤها العالم كله ، وجعل چوميني ينظر إلى عمله المصرفي بضيق وملل ، ولعل السويسري الصغير كان أوسع أطماعًا من أن يكون ميالًا للمخاطرة عندما قرر أن يكون جنديًّا .. على أن درايته بالأعمال الإدارية مكنته من أن يعمل في إدارة التموين للجيش الفرنسي ، وأن يتابع الحياة في هذا العمل البسيط من أعمال أركان الحرب؛ ولم يلبث الرجل أن عاد من جديد إلى الحياة التجارية أثناء فترة السلم التي جاءت عقب صلح إميان ، ولكنه مع تجدد الحرب وجد نفسه رئيسًا لأركان حرب الماريشال ناي في معركة أوسترلتز.

وفي السنوات الست التي عاشها چوميني مختلطًا بالرجال العسكريين وجد نفسه يتحدث كثيرًا ويفكر طويلًا في فن الحرب ، وكانت طاقته الذهنية كما كانت سرعة تقبله للمسائل العسكرية هي التي جعلت ناي يعتبره جنديًّا شجاعًا عارفًا بأصول القتال في أثناء العمليات ، وإن كان لم ينظر إليه كطالب علم يبشر بالنجاح الفذ في دراسته العسكرية ، وفي الفترة

التي جاءت في أعقاب صلح إميان عاونه ناي على نشر أول مجلدات دراسته لحملات فردريك الأكبر التي قدم چوميني فيها بعض الآراء العامة في الفكر العسكري ، وعرض بعض المقارنات بين قيادة فردريك وقيادة نابليون ، وقد استطاع چوميني ـ عن طريق ناي ـ إهداء نسخة من كتابه إلى بونابرت الذي وجد بعض لحظات بعد معركة أوسترلتز ليستمع إلى بعض صفحات كتاب چوميني تقرأ عليه ، ولعل نابليون قد أعجب بفراسة چوميني في تفهم الكثير من لمساته العسكرية فنظم للرجل عمله ومنحه رتبة كولونيل في الجيش الفرنسي ، وأرسل إليه من يبلغه هذا في ميتز عام ١٨٠٦ .

وكانت حملة «يينا» تختمر في ذهن نابليون ، وفي ختام المؤتمر الأخير السابق للحملة سأل چوميني ما إذا كان يستطيع مقابلة الامبراطور بعد أربعة أيام في بامبرج؟!!.

وسأله نابليون بسرعة: ولكن من قال لك إنني ذاهب إلى بامبرج؟!!

ولم تخف مسحة الغضب من الأسلوب العنيف الذي وجه به نابليون سؤاله؛ لأنه كان يعتقد أن وجهته الحقيقية سر لا يعرفه أحد.

وأجاب چوميني في هدوء وبصوت خفيض: لقد استطعت يا سيدي أن أحزر هذا من مراجعة مصورة ألمانيا ومما درسته من حملتك في مارنجو وأولم.

ومن سوء الجد أن السند الوحيد لنا في معرفة مثل هذه الملاحظات الدقيقة إنما هو چوميني نفسه ، عندما كان يستعيد ذكريات حياته في عام ١٨٦٠ أمام كبار الذين يزورونه وهو شيخ يعيش في «باسي» ، ولكن إذا كان چوميني كالكثيرين غيره من ذوي المواهب الفذة قد وصل في بعض

الأحيان إلى الحقائق نتيجة لتقديره الصحيح للموقف ، فمما لا شك فيه أنه قد توافر للرجل تفهم تام لعادات نابليون وتفكيره الاستراتيچي ، وأن نابليون نفسه قد أدرك قيمة كتابات چوميني[١] .

وبالرغم من أن چوميني قد وصل إلى رتبة قائد لواء في الجيش الفرنسي ، وبالرغم من أنه خدم كرئيس هيئة أركان الحرب للماريشال ناي في بروسيا وأسبانيا ، ومرة أخرى بعد التقهقر من موسكو ، وبالرغم من أنه خدم كحاكم لڤلنا ثم لسمولنسك في أثناء الحملة الروسية ، إلا أنه لم يتول قط قيادة مستقلة ، وينسب چوميني هذا ـ كما ينسبه أولئك الذين أرخوا لحياته ـ إلى العداء الشخصي الذي كان بينه وبين بيرثيير رئيس هيئة أركان الحرب العامة للچنرال بونابرت ، ومما لا شك فيه أن بيرثيير كان يكره هذا السويسري الواثق بنفسه ، ومما لا شك فيه أيضًا أن چوميني كان دائم الاستقالة من عمله دائم العودة من جديد. فقد استقال وسحب استقالته أكثر من مرة في هذه السنوات مما جعل رؤساءه ، بما فيهم الإمبراطور نفسه ، لا يمكن أن يثقوا بتوليه قيادة مستقلة للجنود في الميدان.

وفي غمرة يأس چوميني من الترقي ولى وجهه في أغسطس عام ١٨١٣ نحو خطوط الحلفاء وعرض خدماته على ألكسندر قيصر روسيا ، ولما كان چوميني مواطنًا سويسريًّا فإن عمله هذا يقل قليلًا عن اعتباره خيانة لوطنه ، وإذا كان هذا قد حال دون أن يكون چوميني بطلًا في أعين الفرنسيين ، فإنه لم يجعل مؤرخيهم قساة في الحديث عنه ، ولم يمنع

(١) كانت لچوميني بعض تنبؤات عسكرية دقيقة ، إذ يقال إنه وهو في العشرين من عمره قد تنبأ بمسير نابليون فوق الألب عام ١٨٠٠ للهجوم في إيطاليا. راجع كتاب أجزاڤيه دي كورڤل . (Xavier de Courville, Jomini, ou le devin de Napoléon (Paris ١٩٣٥

مدرسيهم من أن يستخدموا كتاباته كمراجع للدراسة ، وفي خدمة روسيا حيث منح رتبة الجنرال حتى وفاته ـ عمل مستشارًا عسكريًّا وقام بدور حاسم في إيجاد الأكاديمية العسكرية الروسية ، ووجد الفرصة التي مكنته من إتمام دراساته التاريخية والتحليلية التي بدأها بعد مارنجو ، وقد قضى السنوات الأخيرة من عمره يعيش حينًا في روسيا وحينًا في فرنسا ، وفي إبان حرب القرم كان قيصر روسيا دائم مشاورته ، كما استشاره نابليون الثالث في عام ١٨٥٩ قبل أن يبدأ مخاطرته ضد إيطاليا ، وفي عام ١٨٦٩ عندما حضرته الوفاة كانت كتبه مستخدمة بدرجة كبيرة في الدراسات العسكرية في العالم كله ، وكان مما يرضيه معرفة أنه يعتبر مرشدًا لتوجيه العسكريين على مثال الموجهين الذين جاءوا في أقاصيص الإغريق القديمة.

وكانت حياة چوميني العسكرية دونما شك حياة غير عادية ، فهو لم يتسلق درجات السلم العسكري بجهد عنيف كما يفعل الجندي الذي يخرج من صفوف المقاتلين ، ولم يرتقها أيضًا في الأسلوب العادي الذي يصل به طلاب العسكرية إلى أعلى الدرجات تبعًا للأقدمية العامة للضباط ، بل إنه انزلق إلى وظيفة إدارية في الجيش دون سابق تدريب عسكري. ثم إن أصله السويسري الذي جعله إلى حد ما دخيلًا قد حال دون وصوله للزمالة كاملة في السلاح ، وفي حديث له مع زواره من كبار الرجال حيث عاش متقاعدًا في «باسي» قال چوميني: إنه وإن كان قد شهد مواقعًا احتلت بقتال التحامي ، إلا أنه لم يشهد قط قتالًا بالسونكي فضلًا عن أن يكون قد اشترك فيه[(١)] .

ولكن من الخطأ أن نفكر في چوميني «كجندي كل عمله على الورق» ، وأنه كان رجلًا نظريًّا فقط لم تكن له صلة مباشرة بالجيوش أكثر مما كان

(١) «Geural Jomini» Every Saturday. المجلد السابع لعام ١٨٦٩ ص ٥٦٧.

لرجال الاقتصاد الأكاديميين القدامى بالأعمال المالية والتجارية ، فالواقع أنه قد عاون في تحريك الجيوش في الميدان ، وقد احتمل المسئولية كرئيس أركان الحرب للماريشال ناي لأن تتم الأعمال إلى غاية ما يمكن من الدقة ، وأنه كان عليه أن يصدر قرارات هامة وعلى الأخص في (أولم) وفي أسبانيا ، وقد توافرت له تجربة فيما ندعوه اليوم «ضباب الحرب» على ما توضح كتاباته.

***

[٣]

ويمكن أن تقسم كتابات چوميني عن صناعة الحرب إلى مجموعتين: الأولى: هي الكتابات الخالصة للتاريخ ، والثانية: الكتابات النظرية أو التحليلية ، ولكن مع هذا فإن هذا التقسيم لا يمكن أن يكون تقسيمًا فاصلًا؛ ذلك لأن چوميني كان في كتاباته في التاريخ العسكري يعمل دائمًا للوصول إلى المبادئ والأصول التي توضح «لماذا؟!! وكيف؟!! حدث القتال»(١) ومن النادر أنه ـ في النظريات العسكرية ـ ذهب بعيدًا في التفكير الجامد دون أن يعمل لدعم نظرياته بحقائق من التاريخ ، كما كانت هناك دراسات قصيرة من قلمه غالبيتها ردود قصيرة على ناقديه.

وقد صدرت كتابات چوميني التاريخية أصلًا في سبعة وعشرين مجلدًا ، جمعت حروب فردريك الأكبر ، وحروب الثورة الفرنسية ، وحروب نابليون من عام ١٧٩٢ حتى عام ١٨١٥ ، ولكنه وإن قدم حرب السبع السنوات وحروب الثورة الفرنسية في إفاضة ، فقد أوجز في سرد حياة نابليون بعد عام ١٧٩٩ ، وقد جاءت حياة نابليون في أربعة مجلدات وسميت بعنوان «الحياة السياسية والعسكرية لنابليون» ونشرت عام ١٨٢٧ ، وقد جاءت كتابات چوميني في الطابع الأدبي للقرن الثامن عشر ، وكتب الجزء الخاص بنابليون في أسلوب المتحدث وكأن نابليون نفسه يدافع عن

---

(١) كانت عناوين فصول چوميني توضح بحثه عن الأصول ، وفي (الدراسة ...)نجد مثل هذه العناوين ـ الفصل الثالث «ملاحظات عن عمليات الفترة الأولى ... حكم وأقوال عن التموين والحصار» ـ الفصل الخامس «ملاحظات عن تشكيل السير عند فردريك وجيبير ... حكم وأقوال عن مهاجمة جيش أثناء السير» ـ الفصل الثامن «العمليات ضد الروس والسويديين ـ معركة ييجرندورف ... حكم وأقوال عن الهجمات المنعزلة».

وجهات نظره وسلوكه كقائد عسكري أمام ظلال وأشباح الإسكندر الأكبر ، وقيصر ، وفردريك الأكبر. ووقف چوميني مجلدًا خاصًّا من كتابه في الحديث عن معركة «ووترلو» وحدها..

ومع أن الجزء التاريخي العسكري من كتابات چوميني يعتبر من الكتابات التي تبعث إلى ملل القارئ ، إلا أنه لم يكن شيئًا يخالف الصورة العادية لأسلوب ذلك العصر ، ومع هذا فالواقع أن السرد جاء سلسًا منساقًا دون الاستطراد في التفاصيل. وقام فيه چوميني بدراسات طيبة ، ثم إن مركزه في الجيش الفرنسي أولًا ، وفي الجيش الروسي بعد هذا ، قد مكنه من الوصول إلى مادة لم تكن ميسورة لدخيل ، والشيء الوحيد الذي يمكن ملاحظته هو أن چوميني قد كتب كتابه قبل أن تصل الكتابة التاريخية إلى الأسلوب الصحيح للتحقيق والعرض ، ولهذا فإن كتاباته تباين الأسلوب الحديث للدراسة النقدية مع العناية بوضع الهوامش وذكر المؤلفات المماثلة والمراجع ، ومن العدالة أن نقول بأن كتابات چوميني كمؤرخ عسكري وإن كانت قد أوجدت آفاقًا جديدة إلا أنها تعتبر قديمة ومن النادر أن تقرأ الآن.

ولكن كتابات چوميني «النظرية» والخالصة للعلم العسكري قد عاشت وبقيت مرجعًا للدراسة لأكثر من قرن من الزمان ، ونجد أول بحث لچوميني في النظريات العسكرية في كتابه «دراسة للعمليات العسكرية الكبرى» الكتاب الذي جاء أصلًا لدراسة تاريخ حرب السبع السنوات ، وكان الفصلان السابع والرابع عشر من هذا الكتاب. هما الفصلان اللذان قرئا على نابليون بعد أوسترلتز وأعجباه ، ويقدم هذان الفصلان في صورتهما الأصلية المبادئ الأساسية للتفكير العسكري لچوميني.

ويقدم چوميني في الفصل السابع مع كتابه «الدراسة» نظريته عن

«خطوط العمليات» ويعرض التباين الهام بين الخطوط الخارجية والخطوط الداخلية ، ويتابع چوميني في الفصل الرابع عشر المناقشة نفسها للموضوع إلى مدى أوسع موضحًا كيف يتم الاختيار بين الخطوط الخارجية والخطوط الداخلية بتأثير العوامل والاعتبارات الجغرافية ، ثم يختتم الدراسة بالفصل الخامس والثلاثين الذي يحاول فيه أن يعرض في صورة عامة كل تجاريبه وأن يجسم المبادئ الأساسية التي تقوم عليها كل العمليات الحربية.

وقد جاءت أهم دراسات چوميني النظرية في كتابه «دراسة في فن الحرب» والذي صدر في مجلدين عام ١٨٣٨ وقد ظهرت عدة طبعات حديثة لهذا الكتاب كما ترجم لأغلب اللغات الحية[١] ، وعني المفكر السويسري أكثر ما عني في كتابه الذي سبقه بمشكلة أهمية صلاحية «الآراء العامة» في دراسة العلم العسكري.

وبدأ چوميني ـ كما يحدثنا هو نفسه ـ بدراسة صناعة الحرب مقتنعًا بأنه ما دامت الحرب صورة من صور النشاط البشري على الأرض فإن هذه الدراسة تعتبر ضرورية ، وقد بدأ چوميني بفكرة مضادة لبعض آراء العسكريين الذين سبقوا عصره كالرأي المعروف للماريشال دي ساكس والذي جاء فيه «الحرب علم تغطيه الظلمة الحالكة ، وفي وسط هذه الظلمة لا يستطيع الإنسان السير بقدم ثابتة ، إن لكل العلوم أصولًا ومبادئ كثيرة ، ولكن لا شيء من هذا للحرب»[٢].

(١) نشرت لهذا الكتاب ترجمة في أمريكا طبع نيويورك عام ١٨٥٤ بعنوان Summary of the Art of War «New York ١٨٥٤» من قلم الميجير ف . وينشب والليفتينانت ا . ماكلين ولكنها ترجمة سيئة بل تعتبر كنموذج لما يجب ألا تكون عليه ترجمة الكتب ولابد أن العسكريين الأمريكيين الذين قرأوه قد دهشوا للغة التي كتبت بها هذه الترجمة التي في أيديهم.

(٢) نقل چوميني هذا الرأي وعلق عليه في «دراسة موجزة لفن الحرب» ـ الفصل=

والواقع أن چوميني وقف موقف التضاد من كل الآراء التي اعتبرها مضادة للبحث والدراسة أو التجديد والإصلاح كالرأي الذي قدمته للماريشال ساكس ، وقد بقي چوميني يصر دائمًا على أن العقل البشري يستطيع أن يوجد وأن يقدم بصورة منطقية الوسائل التي تمكن من النجاح في الحرب ، ويقول في «الدراسة»: «لقد كانت هذه المبادئ الأساسية هي التي تتوقف عليها النتائج الحسنة في الحرب في كل الأوقات ، إن هذه الأصول والمبادئ لا تتغير ، وتتوقف على نوع السلاح كما تتوقف على الوقت وعلى المكان»[١] ، ويقول چوميني في «الدراسة الموجزة» ، إن الغرض الأساسي من الكتاب كان: «إيضاح أن هناك المبدأ الذي يعتبر أساسًا في كل العمليات الحربية ، هذا المبدأ هو الذي يجب أن يتصدر كل التدابير التي تتخذ وذلك لكي تنجح هذه التدابير»[٢].

وأوضح چوميني في نقده لبيلو أنه يعارض «طرق الحرب» التي توضع لكل الحالات التي يمكن أن تحدث في الحرب ، هذه الطرق التي هي عبارة عن تقديرات للعمل مثلها مثل مواصفات كتب الطهي التي تضع قواعد جامدة لكل مسائل التنظيم العسكري[٣] ، وقد أحس چوميني بأن الذكاء البشري لا يستطيع الوصول إلى شيء كهذا ، وليس من الممكن وضع «طريقة» تصلح لكل حالة؛ «ذلك لأن الحرب مأساة غامضة وليست بحال

=الافتتاحي الذي جاء بعنوان:

Notice sur la Théorie actuelle de la guerre et sur son utilité.

(١) الدراسة .. ٣ ص ٣٣٣.
(٢) الدراسة ... ١ ص ١٥٧ – ١٥٨.
(٣) الدراسة ... ٣ ص ٣٣٥.

ما عملية حسابية»[١] ، واعتبر چوميني أن التفكير السليم وحده لا يكسب المعارك ، وأن الصفات الأخرى كالشجاعة وقوة الابتكار والمبادأة أكثر أهمية من غيرها ، ولكن للذكاء الأفضلية في نطاق الاستراتيچية .. ففي ميدان الاستراتيچية قواعد عامة ومبادئ ذات صلاحية دائمة .. يمكن أن يلتقطها العقل البشري ويشكلها تبعًا لاستخدامه لها ، إن المشكلة الرئيسية في العلم العسكري هي إيجاد هذه الأصول العامة ، وقد أوضح چوميني موقفه في أولى صفحات «الدراسة الموجزة»: «إن الضابط القائد بعد أن يسهم في اثنتي عشرة حملة يجب أن يعرف أن الحرب مأساة كبرى تعمل فيها آلاف العوامل المعنوية والمادية بقوة كبيرة أو صغيرة ولكن لا يمكن تخفيض هذه القوة بوساطة العمليات الحسابية».

ولكني يجب أن أقول بأن تجارب عشرين سنة قد قوت عندي الأحكام التالية:

«هناك عدد قليل من المبادئ والأصول الأساسية للحرب والتي يكون إغفالها من الخطورة بمكان ، كما أن تطبيقها أو اتباعها كان من ناحية أخرى سبب النجاح في كل حالة».

«والتطبيقات العملية التي يمكن استنباطها من هذه الأصول هي أيضًا قليلة في العدد وإن كانت قد تبسط أحيانًا تبعًا للظروف ، وهي قد تعمل من ناحية عامة كمرشد لقائد عام الجيش يوجهه للقيام بواجبه لتوجيه العمليات وسط ضجيج المعركة الأمر الذي يكون عادة معقدًا وصعبًا»[٢].

ثم بدأ چوميني لعمل تقريب أولي بين هذه الأصول الأساسية لعلم

(١) الدراسة ... ٣ ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٦- ٢٧.

الحرب ، وقد تردد بعض الشيء بإزاء خطورة هذا الواجب فيقول: «ولقد تجاسرت على القيام بهذا الواجب الصعب دون أن تتوافر لي الموهبة اللازمة لإتمامه ، لقد بدا لي أنه قد يكون من الأهمية أن أضع الأسس التي قد يتعطل تطورها وقتًا طويلًا إذا لم ينتفع المرء من الظروف ليرسي هذه الأسس»[١] .

وكان العمل الذي قام به چوميني في الواقع سبقًا علميًّا ولا يعتبر أول اختراق جريء لأرض مجهولة ، بل أول تصوير صحيح لمصورة هذه الأرض ، وبعد أن ناقش چوميني كل هذه التجارب انتهى إلى أن: ***المبادئ والأصول الأساسية للاستراتيچية هي:***

١- إحضار الفرد للجزء الأكبر من قوات جيشه لينقضَّ بها على المناطق الحاسمة في مسرح الحرب وإلى غاية ما يمكن على خطوط مواصلات العدو دون أن تتعرض مواصلات جيشه هو للخطر.

٢- القيام بالمناورة بحالة تمكنه من أن يشتبك بالجزء الأكبر من قواته ضد أجزاء صغيرة فقط من قوات العدو في كل مرة لسحقها.

٣- القيام ـ أثناء المعركة ـ بمناورات تكتيكية تمكنه من إحضار الجزء الأكبر من قوات جيشه للسقوط على المنطقة الحاسمة من مسرح المعركة ، أو على ذلك الجزء من خطوط مواصلات العدو والتي يكون من الأهمية بمكان سحقها وتدميرها.

٤- تنظيم الإجراءات إلى الحد الذي يمكِّن ليس فقط من إحضار هذه المحتشدات من القوات للسقوط على المكان الحاسم ، بل وأن تشترك هذه المحتشدات في المعركة مجتمعة وبسرعة ، وبذلك فإنها تستطيع القيام بجهد

(١) «الدراسة» ٣ ص ٣٣٦-٣٣٧.

مزدوج في وقت واحد[١].

وقد استطاع چوميني أن يقوي من هذه الآراء العامة بإضافة العديد من قصص التاريخ العسكري التي اتبعت فيها هذه الأصول وطبقت ، مشيرًا إلى أن التاريخ يثبت أن النجاح العظيم أو الإخفاق الذريع كان نتيجة لتطبيق أو إغفال هذه الأصول الأساسية[٢].

فإذا كان فن الحرب يتكون من وضع أكبر عدد ممكن من القوات في النقطة الحاسمة من مسرح العمليات ، فإن وسيلة تحقيق هذا هي اختيار خط العمليات الصحيح ، وهذا ـ على ما يقول چوميني ـ يجب أن يعتبر القاعدة الأساسية للتخطيط الجيد للحملة[٣] وبالتبعية فإنه مركز وقلب كل النظريات العسكرية.

وقد أوضح چوميني نظرية خطوط العمليات بإفاضة في الفصل السابع من كتابه «الدراسة» ، وقال في شرحه: إن «خط العمليات» هو جزء منطقة العمليات الذي يغطيه الجيش أثناء قيامه بالغرض المحدد له ، سواء أكان طريقًا واحدًا أم عدة طرق ، وقد بدأ الفصل السابع بدراسة تحليلية لحرب السبع السنوات قبل معركة «لوثين» ، وفي هذه الحملة قسم فردريك الثاني جيشه تاركًا جزءًا منه في سيليزيا أثناء سيره ببقية الجيش في ساكسونيا ، وبهذا التقسيم ـ على ما يقول چوميني ـ لم يعمل فردريك على خط عمليات واحد ، بل على خط عمليات مزدوج.

ولكن ما هي الفوائد النسبية لخط عمليات واحد؟ ولخط عمليات

(١) «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٥٨ ، انظر أيضًا «الدراسة» ٣ فصل ٢٥.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٦١.

(٣) الدراسة الموجزة ١ ص ٢٥٤.

مزدوج؟

الواقع أن الإجابة على هذا تتوقف على معرفة أي الخطين يمكِّن من النجاح في موقف معين بوضع قوات أكبر مما يستطيع العدو وفي أهم نقط خط العمليات؟[١] «ولما كان الذين يربحون المعركة ليسوا هم الجنود الذين يدرجون في سجلات الجيش ، بل هم الجنود الذين يلقى بهم في خضم المعركة»[٢] ولهذا فإن خط العمليات المزدوج من الخطورة بمكان تبعًا لأنه يفصل بين القوات ، اللهم إلا إذا كان من الممكن إعادة جميع القوات في كتلة واحدة بسرعة ، ويعود القائد من جديد لاستخدام خط عمليات واحد ، ولهذا فإنه عند استخدام خط عمليات مزدوج فمن الضروري أن تظل القوات كلها تحت إمرة قائد واحد.

ويقول چوميني: إن الجيش يكون آمنًا عند استخدام خط عمليات مزدوج لو احتل الخطوط الداخلية ، أي عندما يكون العدو بدوره يستخدم خط عمليات مزدوج هو الآخر ويكون العدو في ذات الوقت أقل قدرة على التجمع في سهولة ويسر ، وإن: «الجيش الذي تكون كل خطوطه داخلية وأقرب إلى بعضها البعض من خطوط العدو يستطيع بتحركات استراتيچية سحق وإبادة قوات العدو الواحدة إثر الأخرى بعد إعادة حشد قواته في كتلة واحدة»[٣].

وقد أكد چوميني أكثر من مرة في صفحات كتبه أفضلية «المركز الداخلي» ، فالجيش الذي يستخدم خط عمليات مزدوج يكون الخط

(١) الدراسة .. ١ ص ٤١٧.
(٢) الدراسة ... ١ ص ٤١٩.
(٣) الدراسة ... ١ ص ٤١٣ – ٤١٥.

الداخلي ضروريًّا ما لم تتوافر له أفضلية عددية ساحقة ، وحتى مع هذه الحال فإن الخط المزدوج يكون له خطره لو كان الخطان ينفصلان عن بعضهما بمسيرة عدة أيام ، أما في حال التماثل العددي لقوات كلا الجانبين المتضادين فإن استخدام خط عمليات مزدوج ضد جيش تكون قواته أقرب إلى بعضها البعض فإن هذا الاستخدام «يكون له خطره إذا ما انتفع العدو بالفائدة التي يحصل عليها من الوضع الذي هو فيه»[١].

وقد لخص چوميني في كتابه «الدراسة الموجزة» كل نظرياته في هذا الموضوع ، وكتب: «إذا ما تماثلت الأشياء الأخرى فإن الأفضلية تكون في جانب خط العمليات الواحد الذي على حدود واحدة بالنسبية لخط العمليات المزدوج ، وفي ذات الوقت يجب ملاحظة أن خط العمليات المزدوج يكون في الغالب ضروريًّا ، إذا ما كانت طبيعة مسرح الحرب تتطلب هذا. أو إذا كان العدو نفسه يستخدم خط عمليات مزدوج أو إذا اضطر لهذا ليواجه كلا من جزئي جيش العدو بعدد أكبر من القوات» وفي الحالة الأخيرة فإن النفع يكون في جانب الجيش الذي يعمل على الخطوط الداخلية[٢] ، وفي ضوء هذه العوامل تتضح أهمية اختيار خط العمليات؛ ذلك لأنه هو الذي يقرر نتيجة الحملة ، فهو «يمكن من علاج الموقف لمواجهة خسائر معركة قد فقدت ، أو يزيد من فوائد النصر في معركة ناجحة ، كما يسبب إخفاق عملية غزو أو يؤكد نجاح هذه العملية»[٣]. وذلك تبعًا للموقف في كل حالة.

(١) الدراسة ١ ص ٤١٣- ٤١٥ - ذات المرجع هامش (٢٣).
(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٥٩.
(٣) «الدراسة» ٢ ص ٢٧٢.

ويقدم چوميني في الفصل الرابع عشر من «الدراسة» العوامل التي يجب أن تؤثر في هذا الاختيار ، وقد وضع في مقدمتها تلك التي تنتج عن طبيعة أرض العمليات والتي تنشأ عن الطرق والنقط الاستراتيچية الموجودة في مسرح الحرب.

ويؤدي هذا بالطبيعة إلى فكرة لها طابعها المميز في نظريات چوميني العسكرية ، فإن كل عملية حربية إنما تحدث في منطقة عمليات محددة ، وبالرغم من أن چوميني انتقد الاتجاه الرياضي الذي كان طابع دراسات بيلو فإنه يعتبر منطقة العمليات كأنها تتكون من ميدان له أربعة أجناب(١) تحتل القوتان المتضادتان اثنين من هذه الأجانب الأربعة ، وهنا يكون واجب القائد أن يتخير ـ مع التقدير الكامل لطبيعة أرض المعركة التي يعمل فيها ـ خط المعركة الذي يكون له تأثيره المسيطر على الأجناب الثلاثة الأخرى لهذا الشكل الرباعي الأضلاع ، فإذا نجح في هذا فإنه يسحق العدو أو يرغمه على إخلاء منطقة العمليات ، ومن الصعب أن تتجنب الخاتمة التي أكد فيها الحاجة إلى السيطرة على منطقة العمليات ، فإن چوميني كغيره من أصحاب النظريات في القرن الثامن عشر قد اعتبر الحرب مسألة كسب الأرض والاستيلاء على المناطق.

ومن الواضح أن چوميني كان يرى عمل القائد إنما هو من ناحية أولية عملًا ذهنيًّا فيقول: «إن الجمع بين الحكمة والخلق هو الذي يصنع القائد العظيم»(٢) ، ولكن مما لا شك فيه أن التفهم للحرب والقدرة على إشعال حماسة الجنود لها أيضًا أهميتها ، ولهذا فإذا أمل القائد أن يكون

(١) «الدراسة» ٢ ص ٢٧٩.
(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٣٠.

ناجحًا فإن من الضروري أن يتعلم الأصول الأساسية للحرب[١].

على أن هذا التأكيد لأهمية «الحكم والأقوال المأثورة» له دلالته وطابعه المميز. فقد كان چوميني يعتقد بأن كل أعمال فن الحرب يمكن أن تضغط حتى تنتهي إلى مجموعة من القواعد العامة يمكن حفظها وتطبيقها في كل المواقف ، وفي الفصل الخامس والثلاثين من الدراسة عمل چوميني لإعداد هذه المجموعة من «الحكم» ، وقد أكدت هذه المجموعة فيما أكدت أهمية «المبادأة والاستراتيچية» وأهمية «حشد القوات تجاه نقطة واحدة لإعادة نقط ضعيفة في خطوط العدو» وأهمية «مطاردة عدو مهزوم» ثم القيمة الكبرى التي للمفاجأة[٢].

وقد أحس چوميني بأن أهمية «المفاجأة» لا يمكن أن يكون مبالغًا فيها ، فلا يكفي عادة أن تقوم بمهاجمة نقطة محددة بقوات أكبر إذا كان العدو يثق بأنك ستقوم بالهجوم في تلك النقطة في ذلك الوقت؛ ذلك لأنه يستطيع الحصول على إمدادات ، ويستطيع أن ينشئ الخنادق لحماية قواته ، وسيكون مستعدًّا بينا تكون أنت .. لا تتبع تمامًا المبدأ الذي وضعه چوميني أصلًا ، ولهذا فمن الضروري أن تفاجئ العدو إلى غاية ما تستطيع ، وقد قدمت حملات فردريك الأكبر ونابليون لچوميني مادة صالحة لتصوير مناقشته لأهمية المفاجأة ، وكانت أفضل الصور التي يحبها چوميني هي حملة نابليون لعام ١٨٠٠؛ ذلك لأن «المفاجأة» قد جاءت في مستوى استراتيچي كبير ، وجاءت في «الوقت» وفي «المسافة» ، وحدث هذا عندما فعل نابليون المستحيل بأن حرك جيشًا كبيرًا في وقت قصير جدًّا ، وفوق أرض لا يمكن

(١) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٧.

(٢) «الدراسة» ٣ ص ٣٣٨-٣٥٣.

اجتيازها هي ممر سان برنارد ، وذلك ليفاجئ النمساويين مفاجأة استراتيجية لا تكتيكية[١].

على أن چوميني يقترب في عدة نقط من عقيدة كلاوزيڤتز بأن الغرض من الحرب هو تدمير قوات العدو المسلحة ، ويقول: «إن موهبة نابليون إنما تكمن في أعطاف اتجاهه مباشرة إلى ما يجب أن يفعل دون غيره» ـ «فإنه كان يتجنب كل الأساليب الروتينية القديمة التي يحاول بها بعض القادة احتلال موقع أو موقعين ، أو حتى منطقة صغيرة على الحدود. لقد تحقق نابليون من أن أول السبل للحصول على نتائج كبيرة هي أن يحشد كل جهوده لتمزيق وسحق جيش العدو واثقًا من أن الولايات والدول تسقط وحدها عندما لا تتوافر لها القوات التي تدافع عنها»[٢].

ولكن چوميني يتجه أحيانًا غير اتجاه كلاوزيڤتز ، ففي رأي چوميني أن المشكلة المركزية للحرب هي الاختيار الصحيح لخط العمليات وأن أهم غرض للقائد هو السيطرة على منطقة العمليات التي يشتبك فيها ، ومثل هذه السيطرة مستحيلة عادة ما لم تدمر قوات العدو ، ولكن يجب أن نذكر بأنه عندما يتخير القائد خط العمليات الصحيح فإنه يترك طريقي عمل مفتوحين للعدو فإما القتال تحت ظروف غير صالحة وإما الانسحاب من

(١) لقد اتفق أغلب المؤرخين على أن نابليون كاد ينهزم في مارنجو؛ ذلك لأنه قد ارتكب الخطأ الذي كان خصومه يفعلونه دائمًا ألا وهو توزيع قواته ، فقد وجه دزيه Desaix بعيدًا جدًّا عنه ، إلا أن عودته هي التي أنقذته في ذلك اليوم ، ويقدم چوميني عذرًا لهذا بأن نابليون قد أخطأ بسبب تصديقه أحد الجواسيس غير الموثوق بهم والذي أكد له أن النمساويين لا يستطيعون تقبل المعركة في ذلك المكان ، راجع الفصل السادس من حياة نابليون لچوميني.

Jomini, Vie de Napoleon, chapter vi.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٠١.

منطقة العمليات.

على أن هذا الإلحاح من جانب چوميني في كثرة الحديث عن اختبار خطوط المناورة ، وجدله في مناقشة ما تسببه المشكلات التي تعرض للقائد من تأثير على مدى تطابق الخطوط الحاسمة نظريًّا مع الطرق الموجودة فعلًا في منطقة العمليات ، ثم استخدامه المستمر للرسوم والأشكال مع ما تسببه هذه الرسوم من اضطراب تبعًا لتحول كل منطقة العمليات إلى شكل هندسي صامت على الورق؛ كل هذه الأشياء إنما توضح في جلاء أن تفكير چوميني لم يكن إفناء العدو بقدر ما كان ـ أساسيًّا ـ الاستيلاء على الأرض(١).

ومن أجل هذا وحده كان چوميني يتجه اتجاهًا ملحوظًا لتفضيل الهجوم حتى لو اضطر القائد تبعًا للاعتبارات السياسية أو غيرها لاتخاذ موقف دفاعي ، ولابد أن يكون چوميني قد قصد بهذا «الهجوم» ما أسماه في غير تردد «الهجوم الدفاعي» ، وهو احتلال موقع تعاونه إغارات مستمرة وهجمات مخادعة ، وغير هذا من الوسائل الضرورية للحيلولة دون ما تسببه حرب المواقع الدفاعية من إجهاد عقلي ومعنوي ، ولم يكن بين كتاب العصر الحديث من كان أكثر إصرارًا من چوميني في إبراز ضعف سيكولوچية خط ماچينو وذلك في حديثه عن المشاعر الوهمية التي توجدها خطوط التحصينات ، ويقول چوميني: «إن البقاء في موقع دفاعي قوي انتظارًا لهجوم العدو دون ما غرض آخر غير هذا البقاء لهو أسوأ خطأ يمكن أن يرتكبه قائد عسكري». وقد استطاع چوميني أن يدعم حديثه ، وأن يجد

(١) راجع (الدراسة) ٢ فصل ١٤و (الدراسة الموجزة) ١ فصل ٣.

النماذج الدقيقة التي تؤكد صدق ما ذهب إليه(١) بأن قدم ما حدث للماريشال «دون»(*) في «تورجاو» وما حدث «لميرشان» (**) في «تورين»..

***

وعلى نقيض كلاوزيفتز الذي وجه تفكيره إلى اعتبارات طبيعة الحرب والروح الضرورية لها ، فإن چوميني يعتبر في سجل تاريخ الفكر العسكري كرجل عمل من أجل النظريات الاستراتيچية وحدها ، وهو لم يكن ليعنى بالمشكلات الفلسفية بقدر ما عني بها قدره ـ برأيه الخاص ـ أنه هو النواحي العملية التي أدمجت في صناعة الحرب .. ويحتل القتال المركز الأساسي الحاسم في نظريته: «إن الغرض من الحرب هو احتلال كل أو بعض أراضي العدو ومثل هذا الاحتلال يتم بالسيادة الناجحة على منطقة العمليات ، هذه السيادة التي تكون ممكنة مستطاعة فقط ، إذا ما وضع تخطيط الحملة بعناية قبل أن تبدأ العمليات العدائية .. وتحقق الحرب غرضها عندما تكون خطوط العمل قد قدرت من قبل ، وعندما تكون الوسائل العسكرية المستطاعة تتمشى مع الحقائق الجغرافية والاستراتيچية للمنطقة المختارة للعمليات» ـ وهنا يجوز أن نسأل عن واجب الاستراتيچية لأنه يتابع

(١) «الدراسة» فصل ٣٥.

(*) دون .. Doun .. ليوبولد جوزيف ماريا كونت فون برنس أوف ڤيانو (١٧٠٥– ١٧٦٦) فيلد ماريشال نمساوي ، ولد في ڤيينا ، كان برتبة الكولونيل في حرب الوراثة البولندية (١٧٣٤–٣٥) وبرتبة الجنرال في الحرب ضد الأتراك (١٧٣٧–٣٩) ثم فيلد ماريشال في حرب الوراثة النمساوية ، وقد انتقد لحذره الشديد وحرصه الدائم اللذين كانا كثيرًا ما يعطلانه عن العمل.

(**)ميرشان ... فرديناند كونت دي ميرشان .. ماريشال فرنسا ولد في ليبج عام ١٦٥٦ وقتل في (تورين) عام ١٧٠٦ .

«المترجم».

حديثه: «ويكون واجب الاستراتيچية هو أن تمكن من إدراك كل هذه الخطط الأولية»[١].

وقد استطاع چوميني بتحديده لمكان الاستراتيچية من فن الحرب أن يميز بوضوح بين «الاستراتيچية» وبين الميادين الأخرى من النشاط العسكري كالتكتيك مثلًا ، ولعل كتابه «الدراسة الموجزة» أكثر من أي كتاب مبسط آخر قد نظم التقسيم العام للعلم العسكري الحديث ، وقدم

(١) إن كل المسائل الخاصة بالمسرح العام للحرب تجيء في نطاق الاستراتيچية ولهذا يجب أن تتضمن ما يلي:

١- تحديد مسرح الحرب؛ ومختلف الخطط التي يجعلها هذا المسرح مستطاعة ممكنة.
٢- تعيين المناطق الحاسمة تبعًا لهذه الخطط وتحديد أصلح الاتجاهات للعمل بها.
٣- اختيار وإنشاء القاعدة الثابتة ومنطقة العمليات.
٤- تعيين الغرض المقترح سواء أكان هجوميًّا أم دفاعيًّا.
٥- تحديد جبهات العمليات .. والجبهات الاستراتيچية وخط الدفاع.
٦- اختيار خطوط العمليات المؤدية من القاعدة إلى الغرض أو إلى الجبهة الاستراتيچية التي يحتلها العدو.
٧- اختيار أفضل الخطوط الاستراتيچية بالنسبة لعملية محددة ، وكذلك المناورات المختلفة التي تتضمن هذه الخطوط في مختلف خطط العمليات الممكنة.
٨- قواعد العمليات المحتملة والاحتياط الاستراتيچي.
٩- تحركات الجيوش التي ستعتبر (مناورات).
١٠- تقدير مستودعات التموين بالنسبة لخطوط سير الجيوش.
١١- المواقع المحصنة التي تعتبر أسلحة استراتيچية أو ملاجئ للجيش أو عوائق لسيره أو تعاون في أعمال الحصار.
١٢- النقط التي يجب أن تنشأ فيها المعسكرات الثابتة المحصنة أو رءوس «الكباري» أو غير هذا.
١٣- اتجاهات السير والأجزاء المنفصلة من القوة والتي تكون نافعة أو ضرورية.

«الدراسة الموجزة» هامش ١- ص ١٥٤.

أقسام العلم في صورة مقبولة يستخدمها الجميع[١].

على أنه بالرغم من أن چوميني كان في حديثه عن «التكتيك» وعن «التحركات» وعن «الإمداد والتموين» ـ المسائل التي وقف عليها المجلد الثاني من كتابه «الدراسة الموجزة» ـ دقيق البحث مرتب الحديث ، وبالرغم أيضًا من أنه قدم بعض مقترحات وآراء لها قيمتها ، إلا أنه في هذا كله ـ كما كان عادة ـ لا أصالة في تفكيره ، ولهذا فإنه مع الدراسة التمهيدية التي قدمها بكتابه والتي تعاون على إيضاح النجاح الكبير الذي لقيه هذا الكتاب بين دراسات القرن التاسع عشر ، لم يكن في الواقع معنيًّا أصلًا بهذه الفروع الأولية من صناعة الحرب ، بل كانت الاستراتيچية هي ميدانه المختار ، وقد وقف هو تبعًا لهذا في الصفوف الأولى للتفكير الاستراتيچي الجديد للقرن التاسع عشر.

ومن الواضح برغم مكانة چوميني في الفكر العسكري للقرن التاسع عشر أنه لم يفصل أفكاره تمامًا عن دراسات القرن الثامن عشر ، كان قد انتقد بيلو لمبالغته في نبذ العقائد العسكرية التي لا تتمشى مع المنطق ، وفي الوقت نفسه كان تفكيره هو نفسه يتأثر بدرجة كبيرة بذات الطابع الذي انتشر في العصر الذي سبقه؛ ثم إن چوميني في بحثه عن الأصول العامة السليمة والأقوال الحكيمة الصحيحة التي لا يمكن أن

(١) عرف چوميني التكتيك بأنه المناورة التي يقوم بها جيش في ميدان المعركة ، وأنه هو التشكيلات المختلفة التي تقاد بها القوات للهجوم ، كما عرف جزء العلم العسكري الخاص بالتحركات والتموين بأنه الحال العامة للجيوش المتحركة ، والتفاصيل المادية للسير والتشكيلات والإقامة المؤقتة للمعسكرات ، وفي إيجازاتها تنفيذ خطط الاستراتيچية والتكتيك «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٥٥.

تكون عرضة للخطأ. فقد مال إلى إطالة التحديق في العوامل غير المنطقية في الحرب والتي زادت عن أن يشملها الحصر ، وقد يكون من حق چوميني أن نذكر بأنه جاهد للكفاح ضد هذه العوامل؛ ففي مقدمة كتابه «الدراسة الموجزة» جاء بفصل عن «سياسة الحرب» قصد أن يناقش فيه المسائل غير العسكرية ، وفي فصل آخر وسم بعنوان «فلسفة الحرب» عمد إلى مناقشة «العامل اللامنطقي»[(١)] ولكن في هذين الفصلين بالذات يتضح المدى الذي ضاعت فيه أفكاره الخاصة وسط العوامل المنطقية والخالصة للعسكرية.

وفي أول هذين الفصلين يقدم چوميني جدولًا لمختلف صور الحرب مميزًا بينها تبعًا لأهدافها وأغراضها السياسية ، ويجادل بحق في أن الغرض السياسي لأي حرب يعلب دورًا كبيرًا في تكوين طبيعة الحرب نفسها ، ولكن الظاهرة المميزة في نقاشه هي إخفاقه في تقدير إمكان وجود اتجاه في الحرب نفسها يجعلها تندفع إلى ما وراء هدفها الأصلي المحدد.

وفي الفصل الثاني ـ والذي وقفه إلى حد بعيد على مناقشة الحرب الأهلية وتأثير العوامل المعنوية في الحرب ـ يتضح في صورة عامة أن چوميني لم يحفظ تمامًا الدرس العسكري لفترة الثورة ، فهو لم يكن متأكدًا من أن الحرب الأهلية قد جاءت إلى العالم لتظل قائمة موجودة ، كما يتضح بأنه لم يقتنع بأهمية العامل المعنوي في الحرب ، «ولو أنه من الممكن الاعتقاد بأن معاونة العقيدة السياسية تكون معاونة فذة كما رأينا

(١) «الدراسة الموجزة» ١ الفصلان ١ و ٢.

في الحديث عن حروب الرأي والفكر ، فمن الضروري أن لا ننسى بأن الكتاب المقدس لا يمكن من الاستيلاء على منطقة من الأرض اليوم؛ ولهذا فإن المدفع والرصاصة والبندقية ضرورية ، وأن المسافة التي يحمل طولها ثقلًا ما إنما تؤثر في الخطط الاستراتيچية؛ ولهذا فما من محل اليوم للمخاطرات البدائية التي يقوم بها الأقوام الرحل[١].

***

(١) الدراسات الموجزة ١ ص ٣٩٥-٣٩٦.

[٤]

على أن «فكر» چوميني العسكري لدليل يستحق التنويه لحقيقة رفض الكثيرون من المفكرين الأحرار في القرن التاسع عشر تقبلها ، هذه الحقيقة هي أن الحرب ليست صورة شاذة من الحياة البشرية لها تاريخها الخاص بها المنفصل عن غيره من صور التاريخ ، بل إنها جزء مكمل لتاريخ الحضارة؛ ذلك لأن چوميني إنما هو ـ في أكثر من صورة ـ مثل كامل لما أسماه كارل بيكر(*) «جو الرأي في القرن الثامن عشر». وبالرغم من أن كل كتابات چوميني تُعْنَى بِالمَسَائِلِ العسكرية إلا أنها من نتاج عصر النهضة الفكرية ما في هذا من شكّ.

والقرن الثامن عشر ليس في حدّ ذاته بالعصر العادي ، وعلى الأخص فيما يتعلق بتاريخ الفكر ، فليس في چوميني شيء من روسو ، أو توماس بين(**) ولامن هولباخ(***) ، أولاميتري(****). بل إن چوميني هو مونتسكيو القرن الثامن عشر والذي يشبهه من نواح كثيرة؛ وقد لا يكون من الخطأ القول بأن كتابات چوميني يمكن أن تجمع تحت عنوان «روح

(*) كارل فرديناند بيكر (١٧٧٥-١٨٤٩) ألماني ولد قرب تريير أنشأ مدرسة في أوفنباخ عام ١٨٢٣ «المترجم». E. Encycl. Vol L٢ P١٧٤.

(**) توماس بين ـ Tom Paine ناشر أمريكي ولد في تيتفود عام ١٧٣٧ ، وقد وقف للدفاع عن الآراء الثورة في بريطانيا ، منحته حكومة الثورة الفرنسية الجنسية الفرنسية وكان عضوًا في حكومة القومسيون ، وتوفى عام ١٨٠٩ .

(***) هولباخ ـ Hilbach جول هنري بارون دي هولباخ: فيلسوف فرنسي مؤلف كتاب «أسلوب الطبيعة» ولد في إيريز هايم ١٧٢٣ وتوفي عام ١٧٨٩ .

(****) لاميتري La mettrie جوليان دي لاميتري طبيب وفيلسوف ، كان صديقًا لفردريك الثاني البروسي ، ولد في سان مالو عام ١٧٠٩ وتوفى عام ١٧٥١ .

الحرب» ، وقد توافر في كلا الاثنين ـ «مونتسكيو وچوميني» ـ الميل إلى التعميم في البحث ، والرغبة في إدراك الحقيقة والمعرفة الواسعة بالحقائق المتصلة بالعصر ، والتطلع إلى حياة هادئة وإن لم تكن كاملة ، ويعتبر چوميني من ناحية التسلسل الزمني للناس من أواخر خلصاء القرن الثامن عشر المعجبين بمونتسكيو التابعين لمنهاجه السالكين سبيله الفكري ، ولقد نقل چوميني إلى عصر بسمارك عادات الفكر والحس التي تكونت وتشكلت في أواخر أيام فردريك الأكبر وبسمارك.

ولقد جاءت تقديرات وآراء چوميني في الواقع إلى حد بعيد على أساس أعمال نابليون وأولئك الثوريين الذين سبقوه ، ولقد اعتُبر چوميني لأجيال تالية بأنه أول معقب عظيم درس أعمال نابليون ، ولكن الآن وبعد أن وضح أن نابليون نفسه وليد القرن الثامن عشر والنهضة العلمية التي صحبته ، وأنه قد تعلم الكثير عن فردريك وجيبير وجربيوفال(*) وبورسيه فإننا نستطيع أن نقول بأن چوميني ـ في الواقع ـ لم تفقده عظمة نابليون وأصالته القدرة على أن يستشف الصلة الطبيعية التي ربطت نابليون بأولئك الذين سبقوه.

ولقد نجح چوميني إلى حد بعيد يثير الإعجاب في تفهم ما حصل عليه نابليون كعسكري فني. ***والواقع*** ـ كما أشار چوميني دائمًا ـ: أن الخطوط العريضة للأصول الاستراتيچية التي قدمها هو «أي چوميني» إنما هي وصف عام لحملات نابليون وعلى الأخص حملة إيطاليا «١٧٩٦-١٧٩٧» وحملة مارنجو واسترلتز وڤيينا.

(*) جربيوفال Gribeauvol جان باتيست دي جربيوفال ، جنرال في المدفعية ، ولد في أيام عام ١٧١٥ وهو الذي أوجد طريقة «فم النيران» Bouches de Feu ، توفي عام ١٧٨٩.

ومع هذا فإن چوميني فقد جزءًا كبيرًا من نابليون ، أو بمعنى آخر: إنه نظر جزئيًّا وكره جملة هذه الناحية الرومانتيكية في نابليون ، وكان نابليون الذي دفع چوميني ليعجب به ويتفهم أعماله ، ويقدم دراساته عنها هو نابليون الذي أوجد الدولة المتحدة والذي حشد أكبر جيش عرفه العالم حتى عام ١٩١٤ ، نابليون الذي سار إلى موسكو فقطع قارة أوروبا من طرف إلى آخر ، ولكن إذا كان نابليون قد نجح في تدمير القواعد والعادات الخاطئة وأنصت لقواعد الطبيعة والمنطق ، فإنه قد سار بعيدًا ليدمر القليل من قواعد الطبيعة والمنطق أيضًا ، ومع أن نابليون قد نال جزاءه على هذا فإنه يعتبر مثلًا له خطره لأن غيره قد يعمل عمله ويثير الحروب دونما قاعدة ولا هدف واضح ، وتسمى الحروب حروبًا دموية وصراعًا لا سبب له ولا حكمة فيه ، تسود هذه الحشود الكبيرة المسلحة بأخطر أنواع الأسلحة ، وبذلك ربما نرقب مرة ثانية حروب الشعوب في ذات الصورة التي شهدها القرن الرابع للميلاد ، بل وربما اضطررنا أن نعيش من جديد في القرن التي عاش فيها الهون والفندال والتاتار[١].

لقد بدا سير نابليون المستمر عبر أوروبا لأعين المعاصرين وكأنه بغير أسلوب أو خطة ، كما بدت معاركه التي كسبها بحشد قوة الضرب الكبيرة التي توافرت له في نقطة واحدة مركزية وكأنها مسألة غير فنية وأنها وحشية لا داعي لها ، وكان چوميني هو أول من استطاع أن يوضح بأن حملات نابليون ومعاركه كانت تقوم على أساس تطبيق مبادئ أساسية كانت تعتبر صحيحة في كل وقت ، لقد كشف عن العامل الصحيح في قيادة نابليون ،

(١) يقدم چوميني هنا سقوط نابليون في أسلوب طريف ... راجع «الدراسة» ٢ ص ٣٥٦-٣٥٧.

ولكن بينما اعتبر كلاوزيفتز «أن نابليون هو إله الحرب العبقري الذي يضع الأسس والرجل الذي يرسم الأصول» فإن چوميني قد قدم في بحثه كل الأصول المهمة التي عرفها الناس من قبل ، ثم قدم نابليون على أنه الآلة التي مكنت هذه الأصول من أن تلعب دورها بنجاح.

ومما لا شك فيه أن الحروب الكبيرة ـ في نظر رجل منطقي التفكير كچوميني ـ كانت هي حروب القرن الثامن عشر ، فقد كانت الحياة ثمينة في ذلك القرن حتى لو قلنا إن سبب هذا فقط هو أن الجنود المحترفين كانوا يتكلفون الكثير من المال ، وأن الضباط كانوا من الأشراف الذين يقاتلون أشرافًا مثلهم ـ أي أن الجميع من طبقة واحدة في المجتمع ـ ، وأن كبار سادة أحد فروع الفكر البشري كانوا يجلسون في مسرح الحرب وكأنهم أمام لوحة الشطرنج العادية يختبرون ذكاء تقديراتهم وخططهم ، ولكن شعور الحب والتقدير الصحيح الذي أحس به هذا الكاتب «الذي ارتبط اسمه باسم نابليون» إنما كان في الحقيقة راجعًا منطقيًّا وطبيعيًّا إلى فردريك الأكبر.

ولكن ماذا إذن كانت أهمية چوميني في تاريخ تطور الفكر العسكري الحديث؟

الواقع: أنه مع مرور الأيام بات الكثير من كتاباته بلا قيمة ، فإن هذه الصورة الشاملة للحرب قد دمرت الحملات الخالصة للجغرافيا ، وجعلت الحرب المحددة مستحيلة ، لقد أثبتت حملة عام ١٨٦٦ في بوهيميا والتي حاول چوميني أن يوضحها في أسلوب تنطبق عليه نظريًّا ، أثبتت أن نجاح المخترعات الفنية قد أوجد شكًّا هائلًا في أفضلية الخطوط الداخلية ، لقد كانت الخدمة العظيمة التي قدمها نابليون للفكر العسكري إنما جاءت في الواقع في اتجاه آخر ، هو إيضاحه للأصول الأساسية للعلم العسكري ، وفي

تعريفه لمدى عمل الاستراتيجية في الحرب ، وكان إلحاح جوميني وإصراره على أهمية التخطيط للعمليات قد وضح لمعاصريه الدور الذي يمكن أن تلعبه «المخابرات» في الحرب ، ثم أهمية إنشاء هيئة أركان الحرب ، وكان إنشاء الأكاديميات العسكرية في كل أوروبا قد أوضح أن نفوذه ـ على الأقل في هذا المجال ـ سيظل واضحًا ملموسًا(١) .

***

(١) في موضوع تطور هيئة أركان الحرب راجع رسالة Dallas D. Ievine, "The Origin of Capital Staffs" مجلة التاريخ الحديث المجلد العاشر لعام ١٩٣٨ ص ١٦١ - ١٧٩ .

مراجع الفصل الرابع

جوميني

Jomini, Traité des grandes opérations militaries, ٨ vols (Paris, ١٨٠٤-١٨١٦).

Jomini, Histoire critique et militaire des guerres de la Révolution (٥ Vols. And atlas, Paris, ١٨٠٦; ١٥ vols. And ٤ atlases, Paris, ١٨١٩-١٨٢٤).

Jomini, Vie Politique et militaire de Napoléon (٤ vols, Paris ١٨٢٧).

Jomini, Precis de l'art de la guerre.

L'étude des grandes combinaisons de la stratégie et de la tactique (Paris, ١٨٢٩).

F. Lecomte, Le général Jomini, sa vie et ses écrits (Lausanne, ١٨٦٠, Paris ١٩٤٩).

C. A. Ste. Beuve, Le général Jomini (Paris, ١٨٦٩). Xauvier de Courville, Jomini ou le devin de Napoléon. (Paris, ١٩٣٥).

Georges Gilbert, Lecomte Jomini, In La nouvelle Revue (December, ١, ١٨٨٨).

Edouard Guillon, Nos écrivains militaires (٢ vols, Paris, ١٨٩٨-١٨٩٩).

Rudolf Von Cämerer, The Development of Strategical Science during the Nineteenth Century, (London ١٩٠٥).

Henri Bonnal, De la méthode dans les hautes études militaries en Allemagne et en France (Paris, ١٩٠٢).

Spenser Wolkinson, The French Army before Napoleon (Oxford, ١٩١٥).

Crane Brinton, A Decade of Revolution ١٧٨٩-١٧٩٩ (New York, ١٩٣٤).

Geoffery Bruun, Europe and the French Imperium, ١٧٩٩-١٨١٤ (New York, ١٩٣٨).

F. M. Kircheisen, Napoleon I, sein Leben and seine Zeite, ٩ vols. (Munich and Leipzig ١٩١١-١٩٣٤).

A. Chuquet, Les guerres de la révolution, II vols. (Paris, ١٨٨٦-١٨٩٦).

R. W. Phipps, The Armies of the First French Republic, ٣ vols. (Oxford, ١٩٢٦-١٩٢٩).

A. Fournier, Napoleon I, Emperor of the French (New York, ١٩٠٣).

T. A. Dodge, Napoleon; A History of the Art of War, ٤ vols. (Boston and New York, ١٩٠٤-١٩٠٧).



ڤون كلاوزيـڤتز (١٧٨٠-١٨٣١)

الفصل الخامس

كلاوزيفيتز

بقلم: هـ. روثفيلز

تحتل كتابات كلاوزيڤتز ـ وعلى الأخص كتابه «في الحرب» ـ مكانًا مفردًا في تاريخ الفكر العسكري ، ويعتبر هذا الكتاب من «أمهات كتب» القرن التاسع عشر وإن كان هو في الواقع ـ مع التقدير الكبير له ـ من كتب المراجع التي ينقل عنها لا التي تُقرأ ، وبالرغم مما يحتويه الكتاب من أقسام كثيرة قد أضعف منها مرور الأيام وهذه هي غير تلك الخاصة بفن القتال ، إلا أن الكتاب في الحقيقة أول دراسة للحرب تمسك تمامًا بأهداف الموضوع الذي تَعِرض لدراسته ، كما يعتبر أول دراسة توجد طابعًا فكريًّا يمكن أن يطبق في كل مراحل التاريخ ، وإن كان تفهم هذا ليس بالأمر السهل المستطاع؛ ذلك لأنه لما كان كتاب كلاوزيڤتز الأساسي لم يكمل بسبب أن الوفاة المبكرة للمؤلف في عام ١٨٣١ قد منعته من القيام بمراجعة كاملة له ، فإن بعض الآراء المعقدة التي قدمها قد بقيت دون إيضاح ، وكأنها معميات لم تحل!

هذا شيء ، والشيء الآخر ، هو ما في ترجمة مؤلفات كلاوزيڤتز من صعاب كثيرة ترجع جزئيًّا إلى المصطلحات الفلسفية الكثيرة التي جاءت في كتاباته والتي تبدو فيها مسحة من الميتافيزيقيا(*) ، وقد لا يوجد نقد أكثر

(*) الميتافيزيقيا Metaphysics «على ما توضحها أبسط الموارد» هي العلم الذي يبحث ويحقق=

عنفًا يمكن أن يوجه إلى كاتب عسكري من أن چوميني السويسري معاصر كلاوزيڤتز قد وجد قلمًا منافسه «مفرد الإسهاب واضح الغرور» ، وبالرغم من أن النظرية الفرنسية في أواخر أيام القرن التاسع عشر ترجع بدرجة كبيرة إلى كلاوزيڤتز إلا أن مؤلفًا فرنسيًّا شكا منذ أكثر من أربعين سنة من أن كلاوزيڤتز «ألماني أكثر من الألمان ، وفي كل لحظة يبدو لك وأنت معه تصحبه في دراساته وكأنك تعيش في ضباب ومعميات الميتافيزيقيا»(١) .

على أنه من وجهة عامة فإن خاصيات كلاوزيڤتز القومية والتحديات التي تسبقها هذه الخاصيات ترى عادة من اتجاه مضاد ، فمن الواضح أنه كان خصمًا عنيفًا للدعوة للبروسية(*) ، كما وقف يعارض «جنون المعركة»(**) العقيدتين اللتين انتشرتا وكانتا طابع القرن التاسع عشر ، ***والواقع*** أن كتابه «في الحرب» يعتبر كتابًا دراسيًّا يمكن من إيضاح وتفهم معركتي «سادوا» و«سيدان»(***) ، وما أظننا نجد رجلًا قد نال تقديرًا كهذا التقدير الذي ناله

=المبادئ الأولية للطبيعة Nature وللفكر البشري.

(١) كلاوزيڤتز لكامون طبع باريس ١٩١١ ص ٧.

Camon, Clausewitz (Paris, ١٩١١).

(*) البروسية Prussianism عقيدة كانت تقوم على أساس سيادة بروسيا ووضعها في مركز الصدارة من الإمبراطورية الألمانية ، وكان لبروسيا طابع استقلالي فذ وسط المجموعة التي تكون ألمانيا الكبرى وظل هذا حتى ثورة عام ١٩٣٣ ، وقضى انتصار النازية على كل الآمال في استعادة مركز بروسيا والدعوة لسيادتها ثقافيًّا وسياسيًّا.

(**) «جنون المعركة» ، المعركة هي القتال الذي يحدث بين قوات مسلحة كبيرة أو صغيرة في البر أو البحر أو الجو. و(جنون المعركة) من المصطلحات التي جاء بها القرن الثامن عشر لمحاولة الوقوف بالقتال في نطاق محدود دونما اشتباك إلا لأقل وقت ممكن ، وكان هذا في الواقع يضاد اتجاهات القادة الذين يسارعون للالتحام وفقدان الخسائر في الأرواح والعتاد دون كسب عاجل أو آجل من الحرب . «المترجم».

(***) «سادوا» بلدة في بوهيميا حدثت فيها معركة عام ١٨٦٦ التي هزم فيها البروسيون=

كلاوزيڤيتز من الكونت ڤون شليڤن(*) الذي قرر بحق أن كلاوزيڤتز «قد أبقى فكرة الحرب الحقيقية حية في أذهان الضباط البروسيين»[١].

ومن الطبيعي في الواقع أن يعكس ناقدوه هذا التقدير الكبير للرجل ، وأن يعتبروه مسئولًا إلى حد ما عن ضيق الفكر العسكري في أواخر أيام القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين بسبب «استراتيچية الاتجاه الواحد» هذه الاستراتيچية التي تبعث الانتصارات البروسية. ويقول الكبتن ليدل هارت ـ الناقد العسكري الإنجليزي ـ: إن قادة نصف القرن الأخير «قد انتشوا بخمرة الدم الأحمر الذي أنبته كلاوزيڤتز»[٢].

=النمسويين في حرب (السبعة أسابيع) ، (سيدان) قلعة على مسافة ١٢ ميلًا شرق جنوب شرق ميزيريه على نهر الميز في ولاية الأردن بفرنسا ، انتصر فيها البروسيون على الفرنسيين واستسلم فيها نابليون الثالث للبروسيين عام ١٨٧٠. وفي عام ١٩٤٠ إبان الحرب العالمية الثانية استند إليها الألمان وداروا حولها ثم وجهوا هجومهم الأخير النهائي ضد خط ماجينو وكان هذا في مواجهة جيش «كوراب» ـ ويقدم كتاب كلاوزيڤيتز إيضاحًا لما قام به البروسيون في (سادوا) و(سيدان) بالرغم من أن نشر الكتاب قد سبق المعركتين بنصف قرن من الزمان.

(*) شليڤن ، كونت الفريد ڤون شليڤن (١٨٣٣-١٩١٣) قائد بروسي امتاز في الحرب السبعينية ، وصل إلى مركز رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية عام ١٨٩١ ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى عام ١٩٠٥ ، يرجع إليه فضل تطور تدريبات الجيش الألماني ، كتب كثيرًا من الدراسات العسكرية وعلى الأخص رسالته عن معركة (كافي) التي يعتبرها المثل الكامل العملي لتطويق جناحي العدو ، بنى كل تخطيطه للحرب ضد فرنسا وحلفائها على أساس هذا ، وقد فشل الألمان في تطبيق هذا عام ١٩١٤ بسبب نقص القوات في جناحهم الأيمن ، ونجحوا في تطبيق هذه الخطة عام ١٩٤٠ باستخدام أصول الحرب البرقية «البليتز كريج» وكان هذا في يونيو ١٩٤٠ (المترجم).

(١) مقدمة الطبعة الخامسة الألمانية لكتاب «في الحرب» طبعة عام ١٩٠٥ ، وعندما سئل مولنكة عن أحب الكتب إليه ذكر الكتب الآتية الإنجيل ، الياذة هوميروس ، كتاب ليترو «عجائب السماء» كتاب ليبيج «رسالة عن الكيميا الزراعية» ثم كتاب كلاوزيڤتز «في الحرب».

(٢) «شبح نابليون» لليدل هارت ١٩٣٣ ص ٢١.=

وفي تاريخ قريب شكا مؤلف أمريكي من أنه منذ أيام كلاوزيڤتز إلى فوش إلى لودندورف «اتجه العسكريون بعناد إلى فكرة الحرب في عنف وقسوة»[١] ، ألم يكن كلاوزيڤتز هو «المهدي الذي دعا إلى الحشود الكبيرة»[٢] ، والذي قدم النظريات التي تؤكد ضرورة الحشد العددي وأهميته؟ وهل لا يعتبر أنه في إصراره على أن قوات العدو الأساسية هي الغرض الأول وأن المعارك هي الوسائل الأولى للحرب يكون قد تنكر لما وصلت إليه عقلية أصحاب النظريات في القرن الثامن عشر الذين أكدوا أهمية المهارة وحسن التوجيه و«اللغة الطيبة» ، وفضلوا هذا كله على استخدام القوة العنيفة ، والذين اتجهوا إلى تفضيل «طعنات السيوف المرهفة» على «ضربات المطرقة» والذين تحدثوا عن العمليات «غير المباشرة» لا العمليات «المباشرة»؟ ألا تعتبر أيضًا التجارب العامة لآراء كلاوزيڤتز بأنها تعاون على التنكر لتجارب الحرب الأهلية الأمريكية ، وأنها توجد «التوقف التام» في الحرب العالمية الأولى»؟

والواقع أنه عندما وضح هذا الاضطراب المعقد نتيجة «التوقف التام» في سير الحرب بعد المعارك المجهدة في فردان والسوم والفلاندرز حاول مؤلف أمريكي أن يصحح آراء كلاوزيڤيتز «بالعودة في صورة ما إلى الجيوش الصغيرة المدربة تدريبًا عاليًا والتي كانت طابع القرن الثامن

=Liddell Hart, The Ghost of Napoleon (١٩٣٣), P. ٢١.

(١) H. Niékerson, The Armed Horde (١٩٤٠) P. ٥٢.

(٢) R. M. Johnston, Clausewitz to Date طبع كمبردج عام ١٩١٧ ، وفي نفس الوقت بدأ الناس في ألمانيا ينتقدون لودندورف في ضوء استراتيچية القرن الثامن عشر وفي ضوء التفهم الصحيح لكلاوزيڤيتز.

عشر»[*] ، وقد ذهب آخرون إلى أبعد من هذا ، وكان اعتراضًا معنويًّا ما صرح به ليدل هارت من أنه «على الاستراتيچية أن تقلل القتال إلى أقل صورة ممكنة»[١] ، ولكي يدعم ليدل هارت حديثه هذا فقد قدم تحليلًا وسمه بعنوان «الأسلوب الإنجليزي في الحرب»[٢].

والواقع أننا عندما نحاول التحدث عن كلاوزيڤتز في غمرة حرب عالمية فمن المفيد أن نضع هذه الاعتراضات نصب أعيننا وموضع التقدير؛ ذلك لأنها لا توضح انعكاسات مدرسة في الفكر العسكري في الفترة بين الحربين العالميتين وحسب؛ بل إنها تكشف أيضًا عن المشكلة الأساسية للاستراتيچية ، كما توضح أيضًا التضاد الحقيقي بين التقليد (القاري) والتقليد الأنجلو / سكسوني ، أي التقليد (الجزري)[**] ، أو بمعنى آخر: التضاد بين الدول التي تملك كل منها حشدًا قوميًّا في جيش كجزء من استعدادها العادي وبين الدول التي ليس لديها أي شيء من هذا.

على أن هذا كله يؤكد أكثر مما يقلل من أهمية «نظرية» لم يكن القصد

(*) يجب ملاحظة أن كل ما يجيء في هذه الدراسة من جمل موضوعة بين أقواس ، إنما تعني أن هذه الجمل منقولة حرفيًّا من كتابات كلاوزيڤتز نفسه وقد قصد بها دعم اتجاهات الدراسة وإيضاح آراء كلاوزيڤتز على حقيقتها وقد أشير في الغالب إلى مكانها من كتابات كلاوزيڤتز ليرجع إليها من شاء الاستزادة من البحث. «المترجم».

(١) «الاستراتيچية» البحث الذي نشرته دائرة المعارف البريطانية في الطبعة الرابعة عشرة لعام ١٩٢٩.

(٢) عارض السير ف. موريس في صورة أكثر تحديدًا أو أكثر تحفظًا للحروب في القارة في كتابه «الاستراتيچية البريطانية» طبعة عام (١٩٢٩).

Sir F. Mautice “British Srtaregy”, ١٩٢٩.

(**) القاري: نسبة إلى (القارة) ، والجزري: نسبة إلى (الجزيرة البريطانية).

منها بلا شك أن تطبق فقط لمجموعات قومية خاصة أو لأوقات محددة أو لمناطق معينة بالذات.

إن هذه الدراسة التي أحاولها لكلاوزيڤيتز لا تعني بالاستنتاجات التي كثر استخلاصها من دراسات كلاوزيڤيتز ، والتي يعتبر بعضها غير كامل أو غير مستوفي البحث ، بل إنها في الواقع تقدم أهدافه الحقيقية والنتائج الصحيحة التي وصل إليها.

***

[٢]

وقد طبعت كتابات كلاوزيڤيتز في الشئون العسكرية وإدارة الحرب في عشرة مجلدات صدرت كلها بعد وفاته ، على أن هذا الجزء من كتاباته الذي أكسبه المديح الذي جاء في عصر تال والذي أنال كلاوزيڤيتز حقه من الشهرة كان هو دراسته التي وسمت بعنوان «في الحرب»؛ وتنقسم هذه الدراسة إلى ثمانية كتب ، يعنَى أولها بدراسة «طبيعة الحرب» ، ويعنى ثانيها «بنظرية الحرب» ، ويناقش كلاوزيڤيتز في الكتاب الثالث «الاستراتيچية» ، ويتحدث في الكتاب الرابع عن «المقاتلة» ، ووقف الكتابين الخامس والسادس على الحديث عن «القوات المسلحة» و«الدفاع». ثم جاءت في الكتابين الأخيرين ـ السابع والثامن ـ كل الصور الأولية التمهيدية لمناقشته «للهجوم» و«خطة الحرب».

ولكن؛ ما هو الواجب الذي وضعه كلاوزيفتز نصب عينيه عند إعداده دراسته «في الحرب»؟

الواقع: أنه مهما قدم من آراء في هذا الأمر فإن كلاوزيڤتز على التحقيق قد أراد أن يفعل أكثر من أن يكتب شيئًا للجيل التالي لعصره أو للمدرسة العسكرية البروسية ، فإنه قد اندفع متعمقًا بروح البحث للصورة «المطلقة» ، للطبيعة الحقيقية الكاملة للشيء ، للفكرة المنظمة للأشياء التي يمكن أن يعرض لها بالبحث؛ هذه الروح التي كانت تسود الفلسفة الألمانية إذ ذاك ، وكلاوزيڤيتز ـ مع تخصصه في الميدان العسكري ـ قد تعمق أيضًا في دراسات أوسع مدى للبحث في أساليب المعرفة ، وفي صلاحية المبادئ النظرية وإمكان تطبيقها على الفنون العملية الأخرى بالإضافة إلى تلك

الخاصة بالحرب[١].

وعندما بدأ كلاوزيڤيتز إعداد كتابه الأساسي في عام ١٨١٦ أو ١٨١٧ ذكر أن طابعه الفني إنما يجيء في «المحاولة والسعي للكشف عن طبيعة الظاهرة العسكرية لإظهار إمكان تمشيها مع طبيعة الأشياء التي تكونها؛ ولهذا فإن البحث والملاحظة والفلسفة والتجربة لا يجب أن تطغى أيٌّ منها على غيرها ، بل يجب أن تتعاون كلها معًا تعاونًا تامًّا[٢] ، وقد أشار قبل وفاته بقليل إلى أن الأصول الرئيسية في كتاباته صحيحة تمامًا «فإنها نتيجة انعكاسات مختلفة موجهة دائمًا إلى الحياة العملية»[٣] ، وكتب في مقدمته لكتابات عام ١٨١٦ – ١٨١٧ : «وفي ذات الطريقة كما يحمل الكثير من الأشجار الثمار فقط عندما لا تعلو لارتفاع كبير ، ففي الفنون العملية

(١) يمكن أن نجد الأدلة على هذا في كتاباته التي لم تطبع وفي دراسة (فن البناء) التي كتبها مؤلف هذا البحث في مجلة (المعرض الألماني) Deutsche. Rundschau عدد ديسمبر ١٩١٧؛ راجع أيضًا الكتاب الثاني من «في الحرب» "On War" لكلاوزيڤيتز وعلى الأخص الفصلين الثاني والثالث.

(٢) كلاوزيڤيتز «في الحرب» ترجمة الكولونيل ج. ج. جراهام الطبعة الأولى عام ١٨٧٣ ، والطبعة الجديدة المنقحة مع مقدمة وملاحظات بقلم الكولونيل ف . ن . مود ٣ مجلدات طبع لندن عام ١٩١٨ المجلد الأول ص ٢٤ من المقدمة ، وقد نقلت كل الفقرات التي تذكر في هذه الدراسة التي نحاولها في هذه الصفحات عن هذه الطبعة الأخيرة؛ وهذا لتسهل مراجعة الطبعات الأخيرة أو مراجعة النسخة الأصلية للمؤلف فإنه يذكر إلى جانب كل فقرة الكتاب والفصل على أن ترجمة الكولونيل جراهام لم تخل لسوء الحد من بعض الأخطاء ومن سوء الفهم ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن هذه الفقرة في الأصل الألماني تعني حرفيًّا: «إن كل هذه العوامل يقدم كل منها للآخر حقوق المواطن»؛ ولهذا ففي كثير من الحالات اضطر مؤلف هذا البحث إلى أن يقدم ترجمة من قلمه هو ، ولم تكن الترجمة التي قام بها ج. م. جولز من جامعة شيكاغو والتي نشرتها المكتبة الحديثة قد صدرت عندما كتب هذا البحث.

(٣) ذات المرجع ص ٢٥.

يجب أن لا تندفع الأوراق والزهور «النظرية» مندفعة لمسافة كبيرة ، بل يجب أن تبقى قريبة من التجارب التي هي تربتها الصحيحة»[١].

ولقد كان هذا التنسيق بين الفلسفة والتجربة هو الظاهرة البارزة المميزة في تحليل كلاوزيڤيتز للحرب ، لقد كان في الواقع يقف بين عصرين ، فبينما كان لا يزال يتبع دنيا الألمان للقرن الثامن عشر التي تقوم على التفكير الثقافي والأدب فإنه يطالب بمكانة الرجل العملي الذي دربه التاريخ والتجارب. وقد مكنه من الوصول إلى هذه المرتبة الذهنية والمكانة الثقافية بعضُ الحوادث التي مرت بحياته[٢].

***

ولد كلاوزيڤيتز عام ١٧٨٠ ، وشهد كلاوزيڤيتز الخدمة العسكرية لأول مرة في سنّ مبكرة في حملة الرين عام «١٧٩٣ ، ١٧٩٤» ، ومكنه العمل المتواصل في السنوات التالية والتي مرت في سلم من التقدم لأكاديمية برلين العسكرية لصغار الضباط عام ١٨٠١ وأن يلتحق بها ، وهنا استرعى انتباه شارنهورست الذي تولى بعد ذلك إعادة تنظيم الجيش

(١) ذات المرجع ص ٢٩ من المقدمة والتسلسل التاريخي لمختلف المقدمات والملاحظات التي كتبها كلاوزيڤيتز وأثرها على ترجمات كتابه راجع مقال هـ. روسينيسكي في المجلة التاريخية العدد الحادي والخمسين ص ٢٧٨ — ٢٩٣.

(٢) يمكن أن نجد عدة دراسات في التاريخ لحياة كلاوزيڤيتز منها مقال «دائرة المعارف الأمريكية لعام ١٩٤١ المجلد السابع ص ٦٣؛ وتوجد دراسة أوجز وأدق في التفاصيل في المقال الذي كتبه كيهر « E. kehr» لدائرة المعارف للعلوم الاجتماعية المجلد الثالث ص ٥٤٥ ، ويمكن كذلك مراجعة الكتب التي كتبها كارل شوارتز «karl Schwartz» والتي كتبها كاتب هذه الدراسة ، وقد جاء ذكرها في التعريف بالمراجع في آخر صفحات هذا الفصل.

البروسي؛ وفي هذه السنوات أيضًا اتصل كلاوزيڤيتز بفلسفة «كانط» ونال منها بلا شك توجيهًا هامًّا له قيمته.

وخدم كلاوزيڤيتز في حملة عام ١٨٠٦ برتبة الكابتن ياورا لأمير بروسي ، وأسر بعد معركة «أوزوتادت» وقضى أكثر من سنة في فرنسا وسويسرا ، وعند عودته إلى بروسيا عمل مساعدًا لشارنهورست ، وقام بدور مهم في إصلاح وإعادة تنظيم الجيش البروسي والحكومة البروسية ، وعندما أرغمت بروسيا عام ١٨١١ على التعاون العسكري مع نابليون استعار كلاوزيڤيتز اصطلاحًا عرفه العصر الحديث هو اصطلاح «البروسيون الأحرار» ، واتجه إلى خدمة روسيا ، وفي بداية حروب التحرير في عام ١٨١٣ كان كلاوزيڤيتز برتبة الكولونيل في الجيش الروسي ، وقد عمل في البداية كضابط اتصال في رياسة الچنرال بلوخر ، ثم كرئيس هيئة أركان الحرب للفرقة الروسية / الألمانية ، ولم يعد كلاوزيڤيتز للجيش البروسي إلا بعد صلح باريس الأول ، وعُيِّن إذ ذاك رئيسًا لهيئة أركان الحرب لفيلق اشترك عام ١٨١٥ في معركتي ليني وواڤر ، وقد كانتا ـ من الناحية التكتيكية ـ إخفاقًا للبروسيين؛ ولكنهما من الناحية الاستراتيچية مهَّدتَا الطريق للنصر النهائي في ووتر لو.

على أن كلاوزيڤيتز لم يشترك بنصيب مباشر في ووتر لو ، إلا أن حوادث هذه الفترة اتصلت بحياته جملة وتفصيلًا ، ولحقبة كاملة من السنين كان كلاوزيڤيتز أقرب ما يكون إلى حوادث مهمة كثيرة متباينة إلا أنه كان ينفصل عنها في صورة ما ، وكانت تتوافر له دائمًا ـ في غمرة الكفاح المرير العنيف ـ طلاقة ذهنية واتجاهات فكرية صائبة ، فلما عاد السلم من جديد كان دوره في الحياة يتحول تدريجيًّا ليكون دور المراقب النقادة؛ يجمع

العناصر والحقائق بعضها إلى بعض ، وبقي من عام ١٨١٨ إلى عام ١٨٣٠ يتولى إدارة الأكاديمية العسكرية في برلين ، وهو عمل إداري محض لم يجعل له أيَّ تأثير في تدريب الضباط البروسيين ، ولم يعرف غير عدد قليل من الناس حقيقة العمل الفني الذي كان يشغل كلاوزيڤيتز.

على أن كلاوزيڤيتز لم يبدأ من وراء مكتبه وضع هذا البحث الكامل الكبير لنتائج هذه الدراسة الواسعة وهذه التجارب العسكرية للعصر الذي عاش فيه؛ بل بدأ هذا في غرفة «جلوس» زوجته ، وقد كان لهذه الزوجة كل الفضل في أن ترى هذه الدراسات النور بعد وفاة صاحبها!.

***

[٣]

كان عصر الثورة الفرنسية ونابليون عصرًا قال عنه كلاوزيڤيتز في الناحية التي تعنيه على التخصيص: «كانت الحرب لونًا من المحاضرات»[(١)] ، كانت الحرب قد ظهرت من جديد «كصورة مخيفة من صور العنف» قلبت النظام الإقليمي بل والنظام الاجتماعي لأوروبا رأسًا على عقب ، فلم تقم حروب هذا العصر تبعًا لمطالب محدودة الأهداف للأسر الحاكمة ، بل إنها انغمرت في كيان ووجود الأمم المعنية بها ، وكما حدث في الحروب الدينية للقرن السادس عشر فقد اختلطت ـ بعضها في بعض ـ مبادئ متضادة وفلسفات متباينة من الحياة ، وتشابك هذا الجهد الجديد مع التغييرات الأساسية في البناء السياسي والاجتماعي لأوروبا ، وقد عملت هذه بدورها في الوسائل المادية والمعنوية للحرب.

لقد كانت جيوش العصر القديم السابق تتكون من جنود محترفين يخدمون لمدد طويلة ، وكانت الجيوش محدودة العدد ، دُرِّب أفرادها تدريبًا جيدًا ، وكان كل من هؤلاء الجنود يعتبر جزءًا من رأس مال الدولة يستخدم بحذر ، وبالإضافة إلى هذا فإن نسبة كبيرة من هؤلاء الجنود المحترفين كانت من الأجانب أو من الأفراد الذين يستدعون لخدمة الجندية من الطبقات السفلى للسكان ، وبلا شك؛ إن جيشًا مشكلًا بهذه الصورة ومن هذه الطبقات لا يمكن أن تتوافر لأفراده العاطفة القومية ولا أن يكون له نصيب كبير من الفضائل العسكرية. وكان من الممكن الاحتفاظ بالجيش متماسكًا

(١) (كانت الحرب نفسها تتوقف إلى حد محدود على المحاضرات) من «حياة وأخلاق شارنهورست» ص ٢٣. Ueber das Leben und den chara Kter Uon Scharnhorst.

بضغط الضبط والربط العنيف ، وكان الجيش يدرب على السير والقتال في تشكيلات محددة وتحت رقابة أو سيطرة شديدة من ضباطه ، ولم يكن من المستطاع أن ترسل جماعات للمناوشة أو لجمع الكلأ ، فقد كان خطر هروب الجنود أكبر من خطر العدو.

وكانت الجيوش ـ لهذا كله ـ تعتمد إلى حدٍّ كبير على المستودعات التي تمون منها ، ولذا لم يكن من المستطاع إطلاقًا القيام بسير سريع ولا بتنفيذ طعنات بعيدة المدى ، ولا القيام بمطاردة حاسمة ، أو على الأقل كان تنفيذ أي من هذه الصور يعتبر أمرًا من الخطورة بمكان ، وقد عملت هذه التحديدات في صورتين متباينتين ، فبينما كان القائد لا يستطيع ـ إلا بصعوبة ـ أن يسمح لقواته بأن تنفصل عن قاعدة تموينها بمسيرة ما يزيد على يومين أو ثلاثة أيام فإنه كان يجد خط مواصلات خصمه هدفًا جيدًا صالحًا للانقضاض عليه؛ ولهذا فإن الصورة العادية لحروب القرن الثامن عشر تقدم متباين ألوان المناورات المعقدة لعمليات السير على مختلف صورها.

وقد لعبت الحصون التي تحتوي وتضم مستودعات التموين دورًا مهمًّا في أمن وسلامة الجيوش ، وكانت عمليات الحصار ومحاولات الإنقاذ لرفع الحصار أكثر عددًا من المعارك العادية ، وكانت الجيوش يواجه بعضها بعضًا ـ عادة ـ في مواقع محصنة ، وتبقى غير نشطة ودون حركة لفترات طويلة جدًّا ، ويقول كلاوزيڤيتز عن هذا: «كان الجيش الذي يقف في داخل حصن أو قلعة مع بعض المواقع المحصنة في أجنابه يمثل دولة في داخل الدولة ، ويسير عامل الحرب بالنسبة للدولة الداخلية في بطء»[١].

---

(١) جراهام ـ مود ٣ ص ٩٩ (الكتاب الثامن الفصل الثالث «ب»).

وكانت هناك بالطبع بعض الشواذ لهذه الصورة العادية ، وكانت القيادة التي تجيء بالهبة كما كان التصادم بين المصالح السياسية المهمة يزيد من عنف الحرب ، ولكن لم يكن من الممكن حتى للعبقري أن يصل إلى تفهم حقيقة الأحوال الفنية والاجتماعية للعصر الذي يعيش فيه ، برغم أنه كانت هناك بداية تفهم جديد للعوامل التي لا ماديات لها ، ومع هذا فإنها تؤثر في صناعة الحرب ، مثل «روح الجيش» وهي عامل غير «التدريب الآلي للجيش»؛ كما صحب هذا أيضًا إيجاد صور جديدة للتنظيم ، كما أوجدت أساليب استراتيجية وتكتيكية يمكن أن تزيد من خفة الحركة ، إلا أن مجرى حوادث العصر كان يعطل من التقدم في هذا كله.

كانت الثورة الفرنسية هي التي فتحت الطريق ، فبينما كانت جيوش الثورة لا تستطيع القيام بمناورات معقدة فإنها كانت تستطيع القتال حيثما وضحت الفائدة وبدا الكسب ، كانت تستطيع القيام بالهجوم دون أيِّ تقدير للخسائر في الرجال؛ وذلك لأنه كان من الممكن استدعاء كل موارد الأمة في الأفراد لإمداد آلة الحرب ، وقد مكَّن هذا التغير للأصول الاجتماعية من إيجاد استراتيجية خفيفة الحركة بدرجة كبيرة ، وقد قامت كل أساليب التموين على أساس تقدير الاحتياجات من قبل ، ثم إعداد اللازم منها في الوقت المطلوب. وكان من الممكن الاعتماد على الفرد في المعارك نفسها ، واستبدلت النيران التي يطلقها الأفراد أو عوونت بالنيران مجموعًا ، واستخدمت تكتيكات المناوشين والرماة المهرة لإعداد الهجوم المتكتل المحتشد.

وقد وصل نابليون إلى كل هذه الخاصيات ، واستطاع تفهمها واستخدامها ، ثم أضاف إليها عبقريته الشخصية في القيادة ، وقد كشف في

البداية عما يمكن عمله بهذه الجموع الجديدة من الجند ، وبدت الحملة الإيطالية ١٧٩٦- ١٧٩٧ لأعين المعاصرين وكأنها انفجار أو ثوران لقوى أولية تضرب حيث لم يكن من الممكن توقع ضرباتها ، وذلك بدلًا من أن تصطدم حيث كانت «النوايا الطيبة» يمكن أن تشير إلى مكان الاصطدام المحتمل ، وهنا كان عالم المفاجأة وتأثيره الكبير.

وعمل نابليون ضد كل القواعد التقليدية المألوفة ، فقد وضع جيشه على «الخطوط الداخلية» بين السردينيين والنمساويين دونما تقدير لخطوط مواصلاته ، ودون أن يضع موضع التقدير تغطية أي أرض أو غزوها ، كان هدفه الوحيد إجراء المعركة وتدمير القوات التي تواجهه ، ونابليون ـ من وجهة نظر كلاوزيفيتز ـ: «لم يدخل حربًا إلا وهو يفكر في قهر خصمه مرة واحدة وفي المعركة الأولى»[1] ، وكان هذا أسلوبًا مليئًا بالعنف والقسوة ، ولكن هذه الجرأة البدائية قد صحبتها عناية خاصة بالتفاصيل الفنية ، كما صحبتها قوة نفاذة مليئة بالمنطق والتقدير الحسابي لكل العوامل المؤثرة ، كما لعب عامل المفاجأة دورًا كبيرًا ، وسواء أكان نابليون قد حشد كل فرقة في حركة سريعة وسقط كالبرق الخاطف على أضعف نقطة في جبهة العدو ، أم كان قد طوى جناح العدو ووضع حشد قواته مقاطعًا لخطوط تقهقر العدو ، سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن نابليون كان يصل إلى النصر في ميدان المعركة ثم يقوم بمطاردةٍ لا هوادة فيها.

على أن حروب نابليون البرقية لم تلبث أن عطل منها اطراد زيادة أحجام الجيوش الفرنسية مع عدم ازدياد القدرة على إدارة هذه الجيوش بذات الدرجة ، وبالإضافة إلى هذا فإن خصوم نابليون كانوا قد تعلموا من

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٨٥ (الكتاب الرابع الفصل الحادي عشر).

الدروس التي تلقوها على يديه في البداية ، واستخدموا ـ هم أيضًا بدورهم ـ الكثير من الأساليب والأهداف الجديدة ، وعلى الأخص استراتيجية اتخاذ القرار الحاسم.

على أن الأهم من هذا كله: هو أن قارة أوروبا كلها أخذت ـ في صورة ما ـ بالأحوال الاجتماعية والمعنوية التي جاءت الحروب النابليونية من أعماقها ، وسواء أكان هذا قد جاء في صورة بدائية أم في صورة جديدة مستحدثة فإن مقاومة السيادة الفرنسية قد أصبحت عملًا للشعوب الأوروبية في أسبانيا وروسيا وفي النمسا وبروسيا ، وقد كتب المصلح المجدد البروسي چينسيناو بعد هزيمة عام ١٨٠٦ يقول: «لقد أوصل فرنسا إلى ذروة العظمة سبب واحد أهم من كل ما عداه ، فإن الثورة قد أيقظت كل قوى الدولة ، وقدمت لكل فرد ميدانًا صالحًا لنشاطه ليعمل فيه».

على أن هذا الإيقاظ لهذه القوى التي كانت تغطُّ في النوم قبل الثورة سبب إيجاد الجيوش الأهلية في أوربا كلها ، وأنتجت بهذا جهدًا لا يقارن ، وفي حملات ١٨١٣ و ١٨١٤ كان ما يقرب من نصف مليون من الروس والبروسيين يعملون في صفوف الجند ، وفي ثمانية أشهر أمكن نقل مسرح الحرب من شرق ألمانيا إلى قلب فرنسا ، وبينما كانت التصورات الاستراتيچية لا تزال تتأرجح وضح من طبيعة الصراع نفسه أنه لا يمكن الوصول إلى حل حسن إلا بعد أن تحطم جيوش فرنسا تمامًا ، وطبيعي أن كلاوزيڤيتز قد تأثر تأثرًا كبيرًا وعميقًا بهذه «المحاضرات العملية التي قدمتها الحرب» ، وما دامت الحرب قد كشفت عن نفسها في صورتها المطلقة فقد تنبأ كلاوزيڤيتز بأن هذا «الاندفاع إلى النهاية وإلى غاية ما يمكن» من المحال أن يختفي ثانية ، وقد أشار بعد هذا بقوله: «وسيوافقني كل فرد بأن

هذه التحديدات التي بقيت إلى حد محدود تبعًا لعدم إمكان إدراك ما هو ممكن مستطاع ما دامت قد حطمت ، وما دام أنه ليس من السهل إعادة بنائها من جديد فإن العمليات العدائية ستجيء دائمًا في الصورة التي جاءت منها في عصرنا»[(١)].

وكان كلاوزيفيتز صائب الرأي في الربط بين هذا الاندفاع إلى غاية ما يمكن وبين الحقيقة القائلة بأنه منذ أيام نابليون أضحت الحرب «عملًا لكل الأمة» ، وأن هذا التجديد والاستكمال للقوى الاجتماعية الناتجة عن الحرب إنما يقترب من الوصول إلى حال الكمال المطلق ، وقد كان كلاوزيفيتز تواقًا إلى ألا ينسى أحد في بلاده هذا الدرس ، وقد عاود المرة بعد الأخرى في كتاباته تقديم الأمثلة المقتطعة من عصر نابليون ، وحتى اليوم فإن هذا التغير في الحرب ـ التغير الذي جاء مع القرن التاسع عشر ـ يمكن أن يعاود التحدث عنه بنفس كلمات كلاوزيفيتز ، وكان كلاوزيفيتز يسير إلى مدى بعيد في حديثه عن نابليون فيعتبره آلة الحرب؛ ولهذا فإنه قد لا يكون غريبًا أن نقول بأن كلاوزيفيتز قد وضع حروب نابليون «على أنها القانون الذي يجب اتباعه».

***

(١) ذات المرجع ٣ ص ١٠٣ (الكتاب الثامن الفصل الثالث «ب»).

[٤]

ولكن في الواقع لا يمكن في محاولتنا الوصول إلى تعريف صحيح لكلاوزيڤيتز وتفهم صحيح لنظرياته أن نقبل وجهة النظر القصيرة المدى هذه ، فكما اتضح مما سبق.. كان كلاوزيڤيتز قد وصل إلى تفهم الأصول الأساسية للحرب ، وقد وصل إلى هذا متحررًا من أي اتجاه أو ميل خاص ، وعلى أن يعمل متجاوبًا مع الحوادث الأخيرة التي عاصرها ، وتبدو هذه الحقيقة واضحة عندما نقارن كلاوزيڤيتز بأي من العسكريين أصحاب النظريات الذين عاشوا في القرن الثامن عشر.

كانت الصورة العامة للحرب في القرن الثامن عشر تُرضي ـ على التخصيص ـ رأي وفكر أهل عصر مليء بالتفاؤل ، فلم يعرف «النظام القديم» ـ الحكم السابق للثورة الفرنسية ـ الجو غير المنطقي للكراهية البدائية ولا العداء العنيف ، ولم يكن الجذب والدفع بين الدول كبيرًا إلى الحد الذي يدفع الحرب إلى أبعد من الجو التقليدي المألوف ، وكان توازن القوى قد أوجد اتجاهًا تحفظيًّا ، وكما كان هناك عرض أو تظاهر سياسي ، كان هناك مثل هذا عرض أو تظاهر عسكري ، وكان الاثنان صنوين للأسلوب المعاصر لفن المعمار[١] مع ما يصحبه من زخرف ، بل إن المجتمع نفسه كان يسير في صور مزخرفة مزوقة ، وحتى الحرب قد امتدحت بسبب الطابع المظهري الذي لها؛ وبسبب أن الفلاحين كانوا يستطيعون أن يحرثوا أرضهم ، وأن تسير صور الحياة المدنية على طبيعتها بالقرب من ميدان القتال

(١) في الأصل Rococo art ، وهي تعني الطابع المعدوم الذوق الذي صحب فجر القرن الثامن عشر في فرنسا. «المترجم».

أو على مقربة من المعسكر المسلح ، وبدا أن السيف الثقيل قد استبدل بحسام خفيف أنيق في ذات الصورة التي للأسلحة الخفيفة التي تستخدم في ألعاب المبارزة «الشيش»[١].

وكانت الحرب في العصر القديم تتمشى أيضًا مع الروح الفنية للعصر ، كانت هناك في عصر النضوج الذهني[*] ـ بلا شك ـ معارضة حقيقية للحرب من حيث المبدأ ، وكانت هذه المعارضة تقوم على أساس من المشاعر الإنسانية وعلى أساس من الاعتبارات الاقتصادية ، ولكن وجد الكثيرون من المفكرين في ذات الوقت أن صورة الحرب المعاصرة قد هذبت منها هذه التحديدات التي نتجت عن تكوين الجيوش ، وعن غير هذا من الوسائل الفنية المانعة من الانطلاق ، كانت الحرب قد أضحت مسألة فنية؛ وتبعًا لهذا فقد أضحى الإصرار كبيرًا على التحركات المعقدة التي يمكن أن توفر من القتال ، زوايا العمليات ، على نقط جغرافية معينة كخطوط تقسيم المياه مثلًا ، هذه النقط التي قد يجعل احتلالها الوصول إلى النصر مسألة آلية في الغالب ، وفي هذا العصر نفسه سيطرت الرياضيات والطبوغرافية على القائد العسكري حتى قال و.لويد ـ أحد أصحاب النظريات الإنجليز ـ: «إن القائد الذي يعرف هذه الأشياء يستطيع أن يدير العمليات الحربية بإجراءات هندسية ، ويستطيع أن يستمر في الحرب دونما حاجة ملحة للاشتباك في معركة حاسمة». وقال كاتب آخر هو البرنس دولنيي de Ligne: «ما دامت الحرب قد باتت علمًا فمن الطبيعي أن تنشأ أكاديمية عسكرية دولية لدراستها»[٢].

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٢٩ (الكتاب الثالث الفصل الحادي عشر).

(*) في الأصل Enlightenment Age وتعني عصر روح الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر. «المترجم».

(٢) للرجوع إلى تحليلات أكثر لهذه الاتجاهات راجع كتاب المؤلف الموسوم بعنوان=

وعارض كلاوزيڤيتز نظريتي القرن الثامن عشر ، فالحرب في رأيه ليست مباراة علمية ، ولا هي برياضة دولية ، بل هي عمل من أعمال العنف ، وليس في طبيعة الحرب شيء معتدل ولا شيء له علاقة بالإنسانية؛ وفي كتاب «في الحرب» فقرة كثيرًا ما وضعت موضع المراجعة ، وتقول هذه الفقرة: «إننا لا نحب أن نسمع عن قادة ينتصرون دون سفك الدماء ، وإذا كانت المعارك الدامية مخيفة المنظر فإن هذا يجب أن يكون السبب في أن نقدر الحرب حق قدرها.. لا أن نسمح لسيوفنا أن لا تكون حادة وأن تصدأ بمرور الأيام بعامل الإنسانية حتى يثب فرد ما ويقطع بسيفه الحاد أذرعتنا عن أجسامنا»[١].

وهذه السطور إنما جاءت بالطبع من أعماق التجارب المؤلمة ، ولكن يجب أن لا تغيب عن الفرد التعقيدات المميزة التي فيها؛ فإنها تضم بين الأشياء الكثرة التي تتحدث عنها «أن العلم لا يمكن أن يجعل الحرب شيئًا معتدلًا ولا أن يجعل لها صلة بالروح الإنسانية» ، وهذا رأي قد ثبت أنه صحيح تمامًا دون أن يكون هذا متوقعًا.

وفي رأي كلاوزيڤيتز أن الناحية العلمية من الحرب ـ أي الناحية التي يمكن أن تقاس مادياتها ـ هي في المرتبة الثانية من الأهمية ، على أن كلاوزيڤيتز لا يقلل من أهمية خدمات التموين[٢] ولا من أهمية الطبيعة

=(كلاوزيڤتز) Clausewitz ص ٣٦-٤٧ ، وكتاب ڤاچتس «تاريخ العسكرية»
A. Vagts, A History of Militarism pp. ٨١-٨٥.

(١) جراهام ـ مود ٢ ص ٢٨٨ (الكتاب الرابع الفصل الحادي عشر).

(٢) ناقش كلاوزيڤتز هذه المشكلات في فصل وسم بعنوان «الوجود» الكتاب الخامس الفصل الرابع عشر ، ويرى في الأساليب الحديثة لتحديد الطلبات اتجاهات إلى تقصير مدة الحرب ، ويقول: إنه في ضوء ظروف خاصة قد تعود من جديد طريقة استخدام=

الجغرافية لمسرح الحرب، ويقرر أن العوامل الرياضية والطبوغرافية لها أهمية في التكتيك ـ فن القتال ـ، ولكنه يشير إلى أنها ـ أي العوامل الرياضية والطبوغرافية ـ أقل أهمية في الاستراتيجية؛ (ولهذا فإننا لا نتردد في اعتبارها حقيقة مؤكدة وهي أنه في الاستراتيجية يكون الاعتماد على أحجام القوات المنتصرة أكثر من الاعتماد على الخطوط التي تربط بينها)[١].

وأحب كلاوزيڤيتز أن يسخر من المصطلحات المضللة والتي فرضت فرضًا، مثل: «الأرض الحاكمة أو المسيطرة» و«المواقع الساترة» و«المفتاح إلى أرض الدولة»، وما إلى هذا من المصطلحات التي كانت تعني ـ من وجهة نظره ـ: «إعطاء مظهر براق لهذه الصورة العادية للمركبات العسكرية المرتبطة معًا، لقد نظر الناس خطأً إلى الأحوال والظروف المحيطة بالشيء بدلًا من أن ينظروا إلى الشيء نفسه؛ نظروا إلى الآلة بدلًا من أن ينظروا إلى اليد التي تمسك بها، اتجهوا دائمًا إلى التفكير في احتلال مكان أو آخر، إن كان هذا إنما هو علامة للزيادة أو النقص في التفكير الذي تعوزه المادة، هذه المادة التي هي المعركة الناجحة»[٢].

وقد تناول كلاوزيڤتز هذا في دراسة مبكرة في عام ١٨٠٥[٣]، وبينما

=المستودعات ولكنه لا يعتبر هذا كتجديد في الحرب على أساس أنه أكثر إنسانية؛ (ذلك لأن الحرب ليست شيئًا إنسانيًّا). جراهام ـ مود ٢ ص ١٠٣.

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٢٣ (الكتاب الثالث الفصل الخامس عشر).

(٢) في ترجمة هذه الفقرة بعض التصرف إذ أنها جاءت ـ حتى في الأصل الإنجليزي ـ ناقصة لكلمات كثيرة هي التي تمكن من تنسيق الألفاظ واستكمال المعاني ـ ذات المرجع ٢ ص ١٣٠ (الكتاب الثالث الفصل الخامس عشر).

(٣) ملاحظات على الاستراتيجية للهرفون بيلو ١٨٠٥.

Bemer Kungen iber die reine und angewandte Strategie des Heren Uon Buelow. (١٦٠٥).

ويجب ملاحظة أنه قد كشف حديثًا عن دراسة مبكرة لنظرية كلاوزيڤيتز لم تمس الأصول=

كان ينتقد واحدًا من أولئك الذين سبقوه ، والذي حاول أن يجعل الحرب مسألة فنية فإنه أصرَّ على تأكيد تفوق العوامل المعنوية والعوامل غير المادية ، وقد تحول من العلاقات الهندسية بين الأشياء إلى الإنسان وأعمال هذا الإنسان في غمرة هذه المسائل الغامضة وغير المؤكدة النتائج التي هي العناصر المهمة في الحرب ، لقد كان هذا في صورة ما يماثل ثورة كوبرنكوس(*) في الفلك ، كما كانت في ذات الوقت تعتبر تحولًا ينغمر إلى عمق كبير في الأسلوب النقدي الذي قدمه الفيلسوف «كانط». والتدمير الكامل لعقيدة توجدها قوة أو تدعمها سلطة يمكن في يسر من تقبل نظرية صحيحة أخرى بدلها ، وقد أشار كلاوزيڤيتز في المرحلة الأخيرة من كتابه «في الحرب»[1] إلى أن أي نظرية لا تعني أن تكون «كالدراجات الخشبية» ، التي توضع عند الأبنية ليصعد عليها عمال البناء ، وبذلك فإنها تعاون الأفراد في العمليات ، ولا تكون «توجيهًا موضعيًّا في العمليات» ، بل إن النظرية تعني: أن تكون «تحقيقًا تحليليًّا للموضوع تؤدي إلى المعرفة الصحيحة ، فإذا ما جيء بها للوصول إلى ثمار نتائج التجربة ، والتي هي في

=كثيرًا ـ راجع كتاب كلاوزيڤتز واستراتيچية عام ١٨٠٤ مضافًا إليها استراتيچية عام ١٨٠٨ و ١٨٠٩ «تقديم ا. كيسيل طبع همبورج عام ١٩٣٧».

(*) كوبرنكوس الفلكي البروسي المشهور (١٤٧٣-١٥٤٣) ولد في ثورن من أعمال بروسيا الشرقية عندما كانت جزءًا من بولندة ، تعلم في جامعة كراكوف ثم في جامعة بولونا؛ درس الفلك والطب ودرس أصول الدين ولكنه انصرف إلى الفلك والرياضيات ، وفي عام ١٥٠٠ كان يدرس الرياضيات لطلبة جامعة روما ثم في جامعة بادوا ، وفي عام ١٥٤٣ كتب دراسة ضافية بعث بها إلى البابا بول الثالث عن أن الشمس هي مركز الكائنات ، وأن الأرض وغيرها من الكواكب تدور حول الشمس ، وقد تابع كيبلر وجاليليو نظريته ثم تمهد نيوتن (المترجم) .E. Encycl. Vol. ٤ P. ٢٣٦

(١) جراهام ـ مود ١ ص ١٠٦-١٠٨ (الكتاب الثاني الفصل الثاني).

Grahm – Maude. I, ١٠٦-١٠٨.

حالنا هذه «التاريخ العسكري» ، بل وللوصول أيضًا إلى الانتفاع التام منه ـ أي من التاريخ العسكري ـ تبدت لنا الحقيقة من أنه كلما ازداد تعمق النظرية إلى المعرفة كلما مكنت من الوصول إلى الناحية الموضوعية ألا وهي المهارة في العمليات الحربية».

وأضاف كلاوزيڤيتز: «يجب أن تعلم النظرية فكر الرجل الذي سيكون قائدًا عسكريًّا في المستقبل ، أي أن تقوده وتوجهه في تثقيفه لنفسه ، لا أن تصحبه إلى ميدان المعركة ، وأن يكون مثلها مثل المدرس الحصيف الذي ينير ويفتح مغاليق عقل الشاب الذي يطلب عليه العلم ، دون أن يبقى ممسكًا بخيوط توجهه مدى حياته» ، والنظرية الصحيحة لا يمكن أن تتضارب أو أن تتعارض مع التجربة «الخالقة» المبتكرة كما تفعل أية عقيدة تفرضها سلطة أو قوة عاجلًا أو آجلًا؛ ولهذا فإنا نجد كلاوزيڤيتز في دراسة عام ١٨٠٥ يقول: «ما يفعله العبقري يجب أن يكون هو أفضل القواعد والأصول ، ولا يمكن أن تكون النظرية أحسن من أن توضح كيف، ولماذا يكون هذا صحيحًا؟» (١).

وتكشف وجهة النظر هذه عن حقيقة صلة كلاوزيڤيتز بصناعة الحرب النابليونية ، ولقد مكنت الحوادث المعاصرة من اتساع مدى التحليل كما زادت من إيضاح العامل الإنشائي ا لذي كون فكرة الحرب ، ونجد هذا في كلمات كلاوزيڤيتز نفسه إذ يقول: «وقد نشك فيما إذا كانت فكرة الحرب

(١) ذات المرجع ص ١٠٠ ، وفي رأي هـ .كوهن ص ٣٢ من كتابه «أثر الفيلسوف كانط في الفلسفة الألمانية» يقول : «إن هذه الكلمات تبدو وكأنها كلمات الفيلسوف «كانط» نفسه وتحقق طريقة كانط في وصف الحدود والأغراض الحقيقة لأي نظرية في الفن» - راجع أيضا كلاوزيفيتز «الكتاب الثامن» ص ١٦٦ .

H. Cohn "Von Kants Einflussaufdie deutsche Kultur".

المطلقة قد وجدت حقًّا ، وذلك ما لم نكن قد رأينا الحرب الحقيقية تبدو في مظهرها هذا في عصرنا الذي نعيش فيه ، و دون هذه الأمثلة المنذرة المحذرة بهذا الانطلاق والتحرر للقوى المدمرة ما كان فرد ليصدق إمكان ما عشنا لنرقبه حقيقة ملموسة واضحة لأعيننا»[١] ، وهذا المديح للعبقرية في الحرب مع اتجاهات كلاوزيڤيتز الفلسفية قد منعه حتى من أن يذكر رأيه ووجهة نظره في أي نظرية أو فكرة تكتيكية أو استراتيچية استخدمها نابليون.

***

(١) ذات المرجع ٣ص ٨٢ (الكتاب الثامن الفصل الثاني) وفي هذه الفقرة يبدو أن كلمتي «الحرب الحقيقية» قد نسبتا في إساءة التوجيه؛ لأن كلاوزيڤيتز عادة يعني بالحرب الحقيقية: «الحرب المطلقة».

[٥]

والواقع أن كلاوزيڤيتز ـ على نقيض كل أصحاب النظريات الذين سبقوه ، وعلى نقيض معاصره چوميني أيضًا[١] ـ كان عمله يمتاز بأنه يجمع بين تحليل العوامل الإنشائية للحرب ، وبين المرونة الإيجابية والمقدرة على التمييز والمفاضلة بين هذه العوامل ، وقد قادته التجربة كما وجهه التفكير الفلسفي على ما أسماه «الحرب المطلقة» ، على أن هذا الاصطلاح يتطلب بعض الإيضاح؛ ذلك لأنه لم يجئ طليقًا متحررًا من المعاني المليئة بالشك ، أو على الأقل غير المؤكدة والمليئة بالاحتمالات ، كما أنه ليس مطابقًا ولا متماثلًا للاصطلاح الآخر «الحرب الشاملة»[٢] وإن كان الاثنان يجيئان معًا في الاستخدام العادي إن كثيرًا أو قليلًا؛ وفي رأي كلاوزيڤيتز أن هذه الصورة «للحرب المطلقة» إنما تجيء من طبيعة الحرب ذاتها ، فالحرب ـ في التعريف الصحيح لها ـ: عمل من أعمال العنف نقصد به إرغام أعدائنا على الخضوع لإرادتنا[٣] ، هذا من ناحية ، وفي ناحية أخرى يعود كلاوزيڤيتز فيعرِّف

---

(١) كان كلاوزيڤيتز يعرف بكتاب چوميني «دراسة للعمليات الكبرى» Traité des grandes opérations عندما كتب إضافاته لكتابه (استراتيچية عام ١٨٠٤) ، وقد وجد كلاوزيڤتز أن چوميني أكثر صلابة من بيلو وإن كان ينقصه التمييز بين ما هو لازم ضروري وبين ما عداه مما يجيء عرضًا لا تضطر إليه حاجة ملحة.

(٢) ولا يتفق أيضًا مع الكتلة المثلثة الأوجه والتي تقدم المصطلحات الثلاثة «الحرب غير المحددة» «الحرب الآلية» «القتال العنيف الدامي الذي لا رحمة فيه» ، هذه المصطلحات التي قدمها هـ. سبيير أخيرًا في «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع». American Journal of Sociology. مجلد عام ١٩٤١.

(٣) جراهام ـ مود ١ ص ٢ «الكتاب الأول الفصل الأول» في الأصل الحرفي ... «الخضوع لأغراضنا».

الحرب من ناحية تبعيتها لنطاق الحياة الاجتماعية على أنها: «صراع بين المصالح الكبرى التي يمكن أن تتقرر نتائجها بسفك الدماء ، وهذا وحده هو الذي يفرق بينها وبين غيرها»[١] من صور الحياة الاجتماعية.

من أجل هذا كانت «القوة» هي الوسيلة ذات الخاصية الواضحة في الحرب.. ومن غير الصحيح أن ندخل في فلسفة الحرب ذاتها «مبدأ الاعتدال» إن عدونا لا يخضع لرغباتنا أو إرادتنا إلا إذا أُجبر وأُرغم على نزع سلاحه أو وُضِع في موقف يكون فيه مهددًا بأن ينتزع منه سلاحه[٢]؛ ومن هنا جاء المبدأ القائل بأن يكون القصد من الحرب هو «انتزاع أسلحة العدو أو تدمير قواته». ولما كان كلا الطرفين المتضادين يهدفان إلى ذات القصد كان من الضروري أن يشتد الصراع بينهما ، وأن تكون الحرب «عملًا من أعمال العنف إلى غاية ما يمكن من مدى أو حدود».

ومع ما في هذا الحديث من تبسيط فمن الممكن القول بأن هذا هو وجهة نظر كلاوزيڤيتز في «الحرب المطلقة» ، وهو عندما قدم رأيه قدمه على أساس أنه نظرية يؤكد أهميتها ، ومن واجب هذه النظرية «إبراز أقصى مدى للصورة المطلقة للحرب ، واستخدام هذه الصورة كنقطة عامة للتوجيه ، وبذلك فإن من يريد أن يتعلم شيئًا من هذه النظرية يجب أن يعوِّد نفسه على أن لا تغيب أبدًا عن عينيه ، وأن يعتبرها دائمًا المقياس الطبيعي لقياس آماله ومخاوفه؛ وذلك ليستطيع الانتفاع بها كلما وجب عليه هذا»[٣].

على أن كلاوزيڤتز في تعريفه للحرب ، وفي تقديره للحرب المطلقة

(١) ذات المرجع ص ١٢١ «الكتاب الثاني الفصل الثالث».
(٢) ذات المرجع ص ٣-٥ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٣) ذات المرجع ج ٣ ص ٨٢(الكتاب الثامن الفصل الثاني).

وتأكيده أهمية وضعها دائمًا نصب العينين يعود للحديث عنها في أكثر من مكان من كتابه «في الحرب» ، فمرة ثانية يقول: «إن الحرب التي توجه للوصول إلى قرارات عظيمة ليست أبسط من غيرها وحسب ، بل وأكثر تمشيًا مع الطبيعة وأكثر تحررًا من الاضطراب وعدم الانتظام»[١] ، وفي مكان آخر يقول: «وكذلك فإنه عن طريق وجهة النظر هذه وحدها ـ أي عن طريق النظر إلى الحرب في صورتها المطلقة» ـ يمكن أن نصل إلى ما في الحروب من تماثل وتطابق ، وفيها وحدها يمكن أن نرى كل الحروب كأشياء من نوع واحد متماثل ، وعن طريقها وحدها يمكن الوصول إلى القواعد والأسس الحقيقية الكاملة كما يمكن إدراك الخطط العظيمة والعمل على تنفيذها»[٢].

ولا نشك كثيرًا في أن كلاوزيفيتز قد اعتبر ـ في أسلوب فلسفي ـ أن «الحرب المطلقة» هي الطابع المثالي ، وأنها هي النظرية التي تؤكد «التماثل» و«الموضوعية» في هذه الظاهرة المختلفة الصور؛ وقد احتضن كلاوزيفيتز مبدأ «الاندفاع إلى أقصى ما يمكن» ، وقد رأى في هذه الصورة «كمال الحرب» ، ولا يوجد أي شك في أن الحرب المطلقة كانت بالنسبة إلى كلاوزيفيتز هي الصورة المجردة للحرب[٣].

ويتبع كلاوزيفيتز هذا التعريف المنطقي للحرب بالإشارة التالية: «إن كل شيء يأخذ شكلًا متباينًا عندما ننتقل به من التجرد المعنوي إلى

(١) ذات المرجع ٢ص ٤٠٩ «الكتاب السادس ـ الفصل ٣٠».
(٢) ذات المرجع ٣ ص ١٢٣ (الكتاب الثامن الفصل السادس «ب»).
(٣) ذات المرجع ١ ص ٧٨ (الكتاب الأول الفصل السابع).

الحقيقة..»[١] ، وفي سطور أكثر فصول كتابه فلسفة «الفصل الأول من الكتاب الأول» يقدم كلاوزيڤتز عددًا من العوامل المعدلة التي لا تجعل الحرب عملية فردية توجهها قوانين الاحتمال لا قواعد المنطق ، فالحرب ليست عملًا منفصلًا عن غيره ولا تتكون الحرب من عملية واحدة؛ ولهذا توجد الفرص لتأثير هذه العوامل ، فوصول الجنود الجدد ، زيادة اتساع مسرح الحرب ، وتكوين الاتحادات والأحلاف ، كل هذه قد تجيء وراء بعضها البعض لتقوم بدورها على التوالي للتأثير في الحرب؛ «وأي شيء يغفله أحد الجانبين المتقاتلين بسبب ضعفه عن إدراكه أو الاحتفاظ به يكون بالنسبة للجانب الآخر غرضًا حقيقيًّا تتحدد جهوده تبعًا له ، وبذلك فإن كل تدابيره البعيدة المدى الواسعة الأهداف تتضاءل وتنتهي إلى جهود بسيطة في نطاق محدود».

وقد ناقش كلاوزيڤتز مجموعة مهمة من هذه العوامل المعدلة في عدد من فصول كتابه «الكتاب الأول الفصول: الرابع والخامس والسادس والسابع» ، وتوضح هذه الدراسة اقترابه الواقعي من هذه العوامل كما يمكن أن يقدر قيمتها حتى في عصرنا هذا أيُّ فرد يكون قد ساهم في الحرب ، وهو في مناقشته هذه يعرض بالدراسة «للخطر» ، «النشاط الجسماني» «المعلومات في الحرب» وعدد آخر من العوامل غير المؤكدة والتي تتأثر بالفرص والاحتمالات والتي «تفصل التفكير عن التنفيذ»؛ ويجمل كلاوزيڤيتز كل هذه العوامل أسفل عنوان واحد هو: «عدم التوافق» أو «تصادم الرغبات» وهو اصطلاح قد باتت له قيمة مهمة في معجم المصطلحات العسكرية؛ وهذا التصادم أكثر من أفراد على كل منهم أن

(١) ذات المرجع ١ ص ٦ (الكتاب الأول الفصل الأول).

يؤدي الجزية للصلاحية البشرية أو للتأثر بالتجربة أو المشاعر النفسية ، وهذا التصادم ـ كما يصفه كلاوزيڤيتز ـ هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن من التفرقة والفصل بين الحرب الحقيقية والحرب المجردة ، أو الحرب على الورق كما كان يسميها أحيانًا[*] ، فإن عددًا لا نهاية له من الحوادث الصغيرة تجعل الخطط تقصر عن إدراك أهدافها. وفي هذا المقام يقدم كلاوزيڤيتز عبارة لا يخلو أي مرجع عسكري منها وهي: «إن كل شيء بسيط في الحرب؛ ولكن أبسط الأشياء هو أصعبها وأعقدها ، إن النشاط في الحرب هو التحرك في وجه مقاومة متوسطة ، وكما أن الإنسان المغمور في الماء لا يستطيع القيام في يسر بأبسط الحركات العادية ألا وهي السير؛ فإن الفرد في الحرب لا يستطيع بالقوى العادية أن يحتفظ بقدرته على القيام بما هو عادي أو بما هو ثانوي الأهمية»[١] .

على أن أهم هذه العوامل المعدلة إنما تنتج من الربط بين الحرب والسياسة؛ ومن الضروري قبل الاقتراب من المشكلة الوسطى لنظرية كلاوزيڤيتز أن تقال بعض كلمات عن «المعركة الأساسية» ، وقد يمكن ملاحظة أن العلاقة بين الوسيلة والنهاية لها مكان ممتاز في فكر كلاوزيڤتز ، وأصلح الأمثلة لهذا تبدو في تعريفه للاستراتيچية والتكتيك فيقول: «التكتيك هو نظرية استخدام القوات المسلحة في القتال ، والاستراتيچية هي نظرية استخدام القتال لأغراض الحرب»[٢] .

(*) راجع هامش صـ٢٩.

(١) ذات المرجع ص ٧٧- ٧٨ «الكتاب الثاني الفصل السابع».

(٢) ذات المرجع ١ ص ٨٦ «الكتاب الثاني الفصل الأول».

وقد جاء كلاوزيڤيتز بهذا التعريف في دراسته المبكرة لعام ١٨٠٥[١] ، في الاعتراض على وجهة النظر التي تميز بين إدارة التحركات في مدى رؤية العدو والتي في خارج هذا المدى ، ومهما كانت القيمة الفنية للتعريف الذي جاء به كلاوزيڤتز[٢] ، فإن هذا التعريف يتميز بإصراره على العامل الإنشائي وعلى العلاقة المرغمة بين الوسيلة والنهاية ، وكما يقول كلاوزيڤيتز في كتابه «في الحرب»: «حيثما توافرت الجنود يجب أن تتوافر دائمًا الفكرة للقتال»[٣] ، فكل نشاط في الحرب يجب أن يرجع إلى القتال سواء أكان مباشرًا أم غير مباشر؛ «فالجندي يُجند ويُكسَى ويُسلح ويُدرب وينام ويأكل ويشرب ويسير ، وكل هذا فقط ليقاتل في الوقت والمكان المناسبين»[٤] .

وهذه العلاقة في الصورة التي كانت فيها تتكرر من جديد ولكن في مستوى عال ، فالقتال لم يعد في حد ذاته وسيلة ، كما أن الجنود لم يعودوا كذلك ، وما دام الجنود يُستخدمون للقتال فإن القتال يجب أن يوجه لإدراك هدف الحرب وغرضها ، هذا الغرض الذي هو تحطيم إرادة العدو؛ وتبعًا

---

(١) «ملاحظات على استراتيچية ڤون بيلو» وقد جاء هذا الحديث عن «أصول الحرب» وهي الدراسة التي أكمل بها كلاوزيڤتز في عام ١٨١٢ تعليماته لولي عهد بروسيا (جراهام ـ مود ٣ لحق الكتاب) ارجع إلى أحدث النسخ المنقحة بالإنجليزية والتي جاء ذكرها في التعريف بالمراجع في آخر هذا الفصل.

(٢) يعرف الكتاب المحدثون كلا الأمرين من زاوية «المسافة والوقت»؛ فمثلًا يقول فردريك موريس عن التكتيك: إنه «أساليب استخدام القوات المتصلة بالعدو» وأن الاستراتيجية هي «قيادة الجنود إلى وقت الاتصال بالعدو» الاستراتيچية الإنجليزية ص ٥١ ، بينما يقول ڤون ديرجولتز: إن الاستراتيچية هي «علم توجيه وإدارة الجيوش» «إدارة الحرب ص ٣٠» راجع «إدارة الحرب» تعريب الأميرالاي حامد نيازي طبع وزارة الحربية المصرية لعام ١٩٢٤ و ١٩٥٠ ص ١٨ «المترجم».

(٣) جراهام ـ مود ١ ص ٨٨ (الكتاب الثاني الفصل الأول).

(٤) ذات المرجع ص ٣٧ (الكتاب الأول الفصل الثاني).

لهذا كان من الضروري أن يعتبر إرغام العدو على إلقاء أسلحته عن طريق هزيمته في معركة حاسمة أبرز وسائل الحرب. ويتحدث كلاوزيڤيتز في أكثر من مكان عن هذا الرأي ، فيقول على سبيل المثال: «ويبدو أن تدمير قوة العدو المسلحة يعتبر دائمًا أنه الوسيلة الأفضل والأكبر تأثيرًا والتي يجب أن تُفسِحَ كلُّ الوسائل الأخرى السبيلَ لها؛ إن الحل الدامي ـ أي الجهد الذي يبذل لتدمير قوة العدو ـ هو المولود الأول للحرب»[١].

وهنا أيضًا لم ينظر كلاوزيڤيتز نظرة صحيحة بعيدة المدى إلى حقيقة لها قيمتها هي أنه على طوال مراحل التاريخ لم يوضح إلا عددًا قليلًا من الحروب هذا الارتباط القوي بين الوسيلة والنهاية ، فإن «الحرب الحقيقية» من النادر أن تصل إلى ذروة التطور في معركة أساسية واحدة ، وفي الكثير من الحروب لم يكن هناك قتال قوي إطلاقًا ، وللوصول إلى حل لهذا التضارب بين الحرب الحقيقية والحرب المعنوية فإن كلاوزيڤتز يتقدم برأيه في أن فكرة «المعركة المحتملة» ـ أي «المتوقعة» ـ يمكن أن تقبل كمركز لتقابل الإشعاعات حتى في الحرب التي لا يكون لها فيها من وجود أو كيان مادي[٢]؛ وأي جيش يستطيع أن يتجنب القتال عندما يتأكد أن خصمه لن يتقدم إلى «المحكمة العليا» ـ أي أنه لن يحتكم إلى القوة المسلحة ـ ، أو أن يثق خصمه بأنه سيفقد قضيته إذا احتكم إليها.

ويمكن أن يقول الفرد بأن كلاوزيڤيتز قد فكر في أن «المعركة الأساسية» هي شيء آخر مثلها مثل الأسطول الإنجليزي الذي كان في الماضي يسيطر على الحوادث حتى ولو لم يظهر فعلًا في مسرحها ، ويقدم

(١) ذات المرجع ص ٤١ – ٤٥ (الكتاب الأول الفصل الثاني).
(٢) ذات المرجع ص ٢٦٨ «الكتاب الرابع الفصل الحادي عشر».

كلاوزيڤيتز نفسه شيئًا مقابلًا آخر في قوله: «إن القرار الذي يجيء بقوة الأسلحة في كل عمليات الحرب الكبيرة والصغيرة مثله مثل الإنفاق النقدي في التجارة»[١] ، وعندما قرأ آنچلز الاشتراكي الألماني هذه الجملة استهوته إلى حدٍّ بعيد وإن كان الاتفاق النقدي والمعركة قلما يحدثان فإن كل شيء يتجه نحوهما. فإذا ما حدثا فإنهما يقرران كل شيء[٢].

إن العلاقة بين الوسيلة والنهاية هي أيضًا قاعدة أساسية في إيضاحات كلاوزيڤيتز السياسية للحرب؛ «إن المعارك والحروب والمعاملات السياسية تكون صورة من الكيان المجمل يسيطر فيها الكل على الجزء ، وتسيطر فيها النهاية على الوسيلة ، وفي بعض الأحيان يبدو هذا التنظيم معكوسًا ، فإن المعركة تبعًا لصورتها الحاسمة تبدو متحكمة في الغرض من الحرب؛ ويشير كلاوزيڤيتز في حديثه الدراسي عن الحرب المطلقة إلى أن الهدف العسكري بتدمير قوات العدو «يحل مكان»[٣] الغرض النهائي والهدف السياسي.

وعلى أساس هذا الحديث قيل بأن كلاوزيڤيتز قد حاجَّ من أجل الأفضلية والكفاية الشخصية في العسكرية ، وهذا حقيقي إلى حد ما؛ ذلك لأن كلاوزيڤيتز أصرَّ على أن القائد يجب أن يكون في موقف يمكنه من أن يؤثر فيها ، ويقول: «إن الهدف السياسي ليس مشرِّعًا جامد التفكير[*] ولا

(١) ذات المرجع ص ٤٠ «الكتاب الأول الفصل الثاني».

(٢) ماركس آنچلز Marx – Engels, Briefwechsel — ص ٢٣٥–٢٣٦ الرسائل المتبادلة بين ماركس وآنچلز؛ راجع أيضًا دراسة المؤلف عن «الماركسية والسياسة الخارجية» في مجلة «الدولة والأحزاب الألمانية» لعام ١٩٢٢ ص ٣٢٢.

، Marxismus und Auswartige Politik in Deutscher Staat und deutsche parteien (١٩٢٢)

وقد نقلت هذه الفقرة من كتاب «العسكرية» لڤاجيتس ص ١٩٢.

(٣) جراهام ـ مود ١ ص ٢ (الكتاب الأول الفصل الأول).

(*) يكثر كلاوزيڤتز من أمثال هذه الألفاظ «المحكمة العليا» قاصدًا (القوات المسلحة) ،=

ديكتاتورًا يتحكم في كل شيء ، بل إنه يجب أن ينسق ليتمشى مع طبيعة الوسائل المستخدمة ، وبالتبعية غالبًا ما يتغير بجملته ، ذلك أن الاستراتيجية من وجهة عامة ، والقائد العام من ناحية خاصة ، قد يتطلبان أن لا تتعارض الاتجاهات والأهداف السياسية مع الطبيعة الخاصة للوسائل العسكرية ، وهذا الطلب ليس بالأمر البسيط السهل بحال ما»[١].

وربما كان كلاوزيڤتز ـ عند صياغته لهذه الأقوال ـ يفكر في محترفي السياسة من رجال البلاط ، أو ربما كان يفكر في الهيئات التي كانت غالبًا ما تتدخل أيام القرن الثامن عشر في العمليات الحربية؛ ولربما كان يفكر أيضًا في الحقيقة الواضحة من أن السياسة ـ كما هي الحال بالنسبة للحرب ـ إنما تعتمد على ما هو ممكن من الناحية العسكرية؛ ولكن من المؤكد أنه كان يفكر في الطابع الحاسم الذي للقرارات العسكرية ، والتي كانت تبعًا لطبيعتها تؤثر في الرجال تأثيرًا كبيرًا من الناحية المادية ، ولا شك أن كلاوزيڤتز قد انتهى في هذا الأمر إلى الحقيقة الأساسية التي ثبتت صحتها في أية صورة من صور الحكم ، فحتى الديمقراطيات قد واجهت وستواجه مواقف كانت المطالب العسكرية الملحة فيها تسيطر على الاعتبارات السياسية بدرجة كبيرة.

على أنه يجب أن يضاف إلى هذا بأن اتجاه فكر كلاوزيڤتز يشير إلى التنظيم المضاد للأشياء؛ «فالحرب هي فقط جزء من الاكتمال الاجتماعي ،

=والشرع والديكتاتور .. قاصدًا (الحاكم الذي لا ترد كلمته) وغير هذا من الألفاظ التي كان هو قد استحدث زجها في الدراسات العسكرية ، وقد كان هذا بتأثير ما بات من الدراسات العلمية المدنية مكملًا لدراسة العسكرية والحرب (المترجم).

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٣ (الكتاب الأول الفصل الأول).

وهي تختلف عن الكل فقط بسبب الوسائل الخاصة المميزة التي تستخدم فيها ، ومهما كان تأثير المطالب العسكرية في أحوال معينة على الأهداف السياسية فإنها يمكن أن تعتبر معدلة فقط لهذه الأهداف؛ ذلك لأن الأهداف السياسية هي النهاية ، والحرب هي الوسيلة ، ولا يمكن أن تحقق الوسائل أغراضها بدون الوصول إلى النهاية»[١]؛ وهذه هي وجهة النظر الأساسية التي تكشف عنها واحدة من أشهر الجمل التي في كتاب «في الحرب» والتي جاء فيها: «الحرب ليست أي شيء غير استمرار سياسة الدولة بوسائل مختلفة»[٢]. ولا يمكن أن توضح أفضلية الأهداف السياسية بأكثر من هذا.

وفي بعض الأحوال يعود كلاوزيفتز إلى هذه الفكرة[٣] في أكثر صورها نضوجًا ، وقد جاء قوله كما يلي:

«إن الحرب ليست شيئًا آخر غير استمرار المعاملات السياسية متداخلة مع وسائل أخرى ، وأقول: مشتبكة أو متداخلة مع وسائل أخرى؛ لكي أقول إن هذه المعاملات السياسية ـ في ذات الوقت ـ لا تتوقف بسبب الحرب ولا تتغير أو تتبدل؛ بل تستمر وتستمر مهما كانت الوسائل المستخدمة..

وكيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا؟

فهل يمكن أن تتوقف العلاقات السياسية بين الشعوب والحكومات

(١) ذات المرجع هامش رقم ٤٨.

(٢) ذات المرجع ١ ص ٢٣. «المقدمة».

(٣) «إن الحرب ليست عملًا سياسيًّا فقط بل هي آلة سياسية حقيقية ، هي استمرار للمعاملات السياسية وإدراك لها بوسائل مختلفة»... ذات المرجع ١ ص ٢٣.

، وسيلة تختلف في اللغة والكتابة؟

أليست الحرب وسيلة أخرى للتعبير عن آراء الشعوب والحكومات ، وسيلة تختلف في اللغة والكتابة؟

«إن للحرب قواعدها الخاصة ولكن ليس لها منطقها الخاص»(١).

ولقد قيل مع الأسف(٢): إن كلاوزيفيتز عندما استغرق في التفكير لبحث كيف يمكن كسب الحرب ، لم يستغرق في التفكير لبحث كيف يمكن كسب السلم ، فإنه لم يتدخل في ميدان السياسة على أساس أنها ـ من وجهة نظره ـ عمل من أعمال الحكومات ، ولكنه عندما عرف الحرب على أنها استمرار للمعاملات السياسية متداخلة مع وسائل أخرى فإنه قد زاد من تأكيد الحقيقة القائلة بأنه ليس هناك تعطل أو توقف أو ضياع للقوة السياسية؛ ولابد أنه ما كان ليوافق على الرأي الذي انتشر في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية بأنه على السياسة أن تنتظر النتائج التي تسفر عنها العمليات الحربية ، ففي رأي كلاوزيفيتز أنه لا وجود للشيء الذي يقال له «الانعزال السياسي» ، ولهذه الفكرة أهميتها في نظرية الحرب نفسها؛ فإنها تمكن من التنسيق بين الحرب المطلقة والحرب الحقيقية ، وسياسة الدولة أولًا

(١) ذات المرجع ٣ ص ١٢١ «الكتاب الثامن الفصل ٦ ب» ، ويمكن ملاحظة أن كلاوزيفيتز لم يتكلم عن الحرب كأنها امتداد للسياسة كما يرى بيردسال في وصفه للطابع العسكري للسياسة مقتطعًا من كتابات كلاوزيفيتز على ما جاء في كتابه «بعد عشرين سنة من فرسايل ص ١١٦» ، ولا يكون ضد وجهة نظر كلاوزيفتز أن نقول بأن الحرب «كوسيلة ممكنة» تؤثر في كل النظام السياسي كما تؤثر المعركة في الحرب ، ولكن الواقع أن تفكيره الأساسي واضح في رأيه بتبعية الحرب لسياسة الدولة.

(٢) Liddell Hart, The Ghost of Napoleon P ١٢١; A. Vagts, Militarism, P. ١٩٦; H. Nickerson, The Armed Horde, p. ١٤٣.

هي الرحم الذي تتطور داخله الحرب لاستكمال نموها[١]؛ ولهذا فإن السياسة تضع الخطوط الأساسية التي تسير فيها الحرب؛ وحتى يتوافر التنظيم الصحيح للأشياء فإن السياسة لا تتطلب أيَّ شيء ضد طبيعة الحرب.

والواقع أنه من السخف أن نتقبل أن القادة يمكن أن يضعوا التخطيط العام لخطة العمليات في الذاكرة دون أن يتحقق لها وجود مادي ، «على أن الأكثر سخفًا أن يطلب النظريُّون وضع كل الوسائل الممكنة للحرب أمام القائد حتى يستطيع بدوره أن يضع خطة عسكرية»[٢]؛ فمن الواضح أنه ليست هناك خطة عسكرية الطابع فقط ، فإن كل حرب إنما هي تطور فردي للحوادث ، فإذا كان الإجهاد السياسي قوي الطابع جدًّا ، «وإذا أمكن الوصول إلى وسائل مادية كافية» فإن الهدف السياسي قد يختفي وراء الهدف العسكري بنزع سلاح العدو ، أو أن يجيء تابعًا له؛ وفي مثل هذه الحال فإن «الحرب الحقيقية» تقترب من «الحرب المطلقة»؛ وقد كان كلاوزيفيتز مقتنعًا ـ كما أشير من قبل ـ بأن هذا اللون من الحرب سيعود إلى الظهور المرة بعد الأخرى في عصر انتشار الروح القومية ، «وكلما عظمت وقويت دوافع الحرب كلما زاد أيضًا عنف الجهد الذي يسبقها ، وكلما زاد تأثيرها في وجود وكيان الأمم التي يعنيها الأمر؛ وبهذا فكلما اقتربت الحرب من صورتها المجردة كلما زاد ظهور الطابع العسكري لها وقل ظهور الطابع

(١) جراهام ـ مود ١ ص ١٢١ (الكتاب الثاني الفصل الثالث).
(٢) ذات المرجع ٣ ص ١٢٦ (الكتاب الثامن الفصل الثامن ب) ، وقد طبق كلاوزيفتز نفسه هذا المبدأ عندما طلب منه أحد ضباط هيئة أركان الحرب البروسية أن يذكر رأيه في مسألة ما (خطابان في الاستراتيچية لكلاوزيفتز) بقلم هانز روسفلز ١٩٢٣.

السياسي»[١].

والواجب الأساسي للنظرية هو أن تؤكد هذا الاتجاه الأساسي للحرب ، والذي هو «القياس الطبيعي لكل الآمال والمخاوف» ، ولكن على النظرية أيضًا أن تضع موضع التقدير أنه كلما قل الجذب والدفع كلما باتت الحرب سياسية بدرجة أكبر؛ إن مداها يمتد في كل درجات الأهمية والنشاط ، من تدمير قوة العدو في جانب إلى مجرد القتال التعرضي في جانب آخر ، إن الحرب في الواقع لهي أشبه بالحرباء؛ لأنها تغير لونها وطبيعتها تبعًا لكل حال»[٢].

وفي ضوء هذا الإيضاح المرن قام كلاوزيڤيتز بدراسته لكل التاريخ العسكري[٣] ، فلا يمكن أن تُعزل حادثة واحدة عن كل الأحوال الاجتماعية / السياسية التي سبقتها ، ولا أن تُفصل عن كل جو الإجهاد الذي أحاط بها ، فعندما غزت الدولة الملكية فرنسا في عام ١٧٩٢ ، وعندما وقفت المبادئ يتصارع بعضها أمام بعض كان تراشق المدفعيات في ڤالمي حاسمًا بدرجة أكبر مما كانت أية معركة دامية من معارك حرب السبع السنوات [٤].

وكان كلاوزيڤيتز يعني على التخصيص بالمشكلات الناشئة عن «حروب الأحلاف» حروب الدول التي وقفت ضد فرنسا ، ويشير إلى أن

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٣ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٢) ذات المرجع ١ ص ٢٥ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٣) درس كلاوزيڤيتز قرابة المائة والثلاثين حملة حربية على ما يتضح من كتاباته التاريخية (المجموعة ٤-١٠) ومما لم ينشر من كتاباته ، وقد قدم موجزًا جيدًا في كتابه «في الحرب» الكتاب الثامن الفصل الثالث ب.
(٤) جراهام ـ مود ١ ص ٢٢٣ (الكتاب الثالث الفصل الثامن عشر).

أي دولة تشتبك في حرب ضد حلفاء من عدة دول فإنها تواجه مشكلة تقرير من هي الدولة الأقوى ومن هي الدولة الأضعف في هذا الحلف والتي يجب تدميرها أولًا ، ويشير أيضًا إلى أنه مهما كان القرار الخاص بهذا فإن الدولة يجب أن تعتبر الرابطة التي تربط حلف الدول المعادية كغرض عسكري قانوني ، وقد تُعدل بعضُ الحوادث من الهدف الأولي بتدمير جيش العدو؛ على أنه لما كان غزو الأرض مثلًا يعتبر في حد ذاته سلاحًا قويًا تبعًا لأنه يدمر قدرة العدو على إعادة بناء جيشه فإن فقدان العدو للأرض مع الهزيمة العسكرية التي تلحق به سيكون مؤثرًا في تدمير وإضعاف عزيمة العدو؛ ولهذا فإن استهداف نزع سلاح العدو قد يستبدل بنزع السلاح «المعنوي» الذي يحدث «عندما يتحقق العدو من أن النصر غير محقق أو أنه غالي الثمن».

ولهذا فإن المشكلة الأساسية التي تواجه رجل الاستراتيجية إنما هي مشكلة «مركز الثقل» ، هذا المركز الذي يجب أن توجه إليه قوة الدفع العسكرية ، والذي يتغير موقعه تبعًا لتغير الحوادث.. وفي أغلب الأحوال يكون هذا المركز هو قوات العدو المسلحة ، وقد كان هذا صحيحًا ليس فقط في حروب نابليون بل وفي حروب الإسكندر وجوستاف أدولف وشارل الثاني وفردريك الأكبر؛ على أن مركز الثقل هذا قد يكون عاصمة البلاد بدلًا من قواتها المسلحة ، وهذا إذا ما تقسمت الأرض نتيجة للتمزق المدني ، وفي حروب الأحلاف التي واجهت فرنسا كان هذا المركز في جيش أقوى الحلفاء الذين وقفوا ضد فرنسا ، أو كان في جملة المصالح التي ربطت بين هؤلاء الحلفاء.

وفي الحروب الأهلية يكون «الرأي العام» هو مركز الثقل الأكثر أهمية ، وبذلك فإنه يكون غرضًا عسكريًّا مهمًّا[١] ، وبتقدير هذه النقطة الأخيرة يبدو أن كلاوزيڤيتز قد أنعش نظرية القرن الثامن عشر عن الحرب غير الدامية ، ومع هذا فقد يكون من الأكثر دقة أن نقول بأنه يلمس أحدث نظرية عن الحرب النفسية ، الحرب التي تسبق أو أن تصحب أو حتى أن تحل مكان القتال الفعلي.

***

(١) الكتاب الأول الفصل الثاني ، الكتاب الثامن الفصل الرابع.

[٦]

ولكن ألا يسبب هذا التحليل المرن للحرب إضاعة الخطوط الواضحة للدراسة وسط ظلال الفكر؟ وهل لا يسبب أيضًا ارتباك واضطراب ذاك الذي يحاول دراسة كلاوزيفيتز بدلًا من أن يمهد له الطريق وينير له السبيل؟

والواقع أننا في إجابتنا على هذا السؤال بشقيه يجب أن نقدم نقطتين لهما أثرهما في هذه الدراسة:

أولاهما: وجوب تجنب النظرية العامة المقيدة ، النظرية التي تجعل تحليلات كلاوزيڤيتز للحرب غير معينة الزمن ، بل وتجعل لها أهمية حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه؛ وإن كانت هي أصلًا تتطلب المهارة في تقدير حلول المشكلات ، تتطلب دقة التقدير والحكم العامل المميز لمقدرة السياسيين والقادة ، وليس هذا بالأمر الميسور؛ «فلا يستطيع غير ذاك الذي اعتاد تقدير ما في الحلول الممكنة من قيم أن يندفع اندفاع السباح الماهر للانغمار في مياه المجرى المائي»[١].

ثم إن هذا الاكتمال للإمكانيات ليس بالاضطراب غير المنظم؛ فإن دعامته هي طبيعة الأشياء ، وفكرته المنظمة هي الحرب المطلقة في وجودها الموروث ، ويقول كلاوزيڤيتز: «لا يمكن أن نجد خطأً في عمل القائد الذي يستخدم بمهارة أساليب حذرة تضمن أن الأصول التي يعمل على أساسها مقدرة تمامًا وبعناية[٢] ، ولكنه يجب أن يحذر حقيقة لها قيمتها وهي: أنه

(١) جراهام ـ مود ١ ص ٢١ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٢) ذات المرجع ١ ص ٤٥ (الكتاب الأول الفصل الثاني).

«وهو يفعل هذا يكون مثله مثل من يسير في طرقات جانبية حيث يحتمل أن يفاجئه آلة الحرب»؛ فإن تدمير قوات العدو ليست قانونًا مرغمًا واجب التنفيذ بل كما أشير من قبل يعتبر نقطة عامة للتوجيه ، فإذا ما وصل القائد إلى هذه الحقيقة وجب عليه أن يدرك بأن «أحسن استراتيجية هي أن يكون قويًا جدًا من ناحية عامة أولًا ، ثم أن يكون كذلك على التخصيص في النقطة الحاسمة»[١]؛ وهذه الجملة تقدم الفرق بين العمل الحاسم والعمل الثانوي ، وفي هذه النقطة الحاسمة يجب أن يوجد كل جندي يمكن أن يعده للمعركة.

وقد حاول كلاوزيفيتز بعدة وسائل متباينة أن يجعل «طريقته المفتوحة» هذه أكثر نفعًا للدراسة ، وفي مذكرته لعام ١٨٢٧ يتحدث عن اعتزامه مراجعة كتابه «في الحرب» على أساس اتجاهين معينين[٢]؛ فقد أراد أولًا أن يميز بين «نوعي الحرب» ، أحدهما الذي يكون القصد منه تدمير قوات العدو ، وثانيهما الذي يكون الغرض منه فقط القيام ببعض الغزوات على حدود مملكة للاستيلاء عليها دائمًا أو لتكون موضع التبادل في اتفاقية السلم؛ وقد رغب كلاوزيفيتز في الأمر الثاني أن يؤكد الحقيقة القائلة بأن الحرب هي استمرار للسياسة وقد قصد بهذه النقطة من وجهة النظر أن يقدم وحدة وارتباطًا أكثر لكل نظرية الحرب ، وقد فكر كلاوزيفيتز في أن هذه المراجعة تزيل الكثير من التعقيدات من رؤوس السياسيين والاستراتيجيين.

والواقع أن كلاوزيفيتز قد راجع أجزاء من عمله الأساسي على أساس

---

(١) ذات المرجع ص ٢٠٧ (الكتاب الثالث الفصل الحادي عشر).
(٢) ذات المرجع ص ٢٣ - ٢٤ المقدمة.

هذين الاتجاهين(١) ، وفي الكتاب الثامن الذي يناقش فيه كلاوزيڤيتز «خطة الحرب» ، فإنه يميز بين «نوعي الحرب»؛ الحرب لتدمير قوات العدو أو الحرب المحددة ، ويشير إلى أن العملية الاستراتيچية يكون لها معنى مختلف عندما تطبق في الحالة الأولى عما يكون لها من معنى عندما تطبق في الحالة الثانية؛ ففي الحالة الأولى تكون للنتائج النهائية قيمتها ، وفي الحالة الثانية قد تتراكم النتائج الجزئية ويكون الاعتماد على عامل الوقت حتى تضعف إرادة العدو؛ وفي الحال الأولى يكون غزو الأرض عديم الفائدة ما لم تدمر قوات العدو تمامًا ، وفي الحال الثانية قد يغير من كفتي الميزان تملك أي قطعة من الأرض..

ولم يكن القصد من هذا التمييز أو من إيضاح هذا التباين أن يكون الأمر تاريخيًّا كما أريد به ، فإن كلاوزيڤيتز لم يهدف إلى أن يقارن بين الحرب في «نظام الحكم القديم» وبين الحرب في القرن التاسع عشر ، ففي الأولى كانت «استراتيچية الاحتكاك» وفي الثانية كانت «استراتيچية التدمير والافناء»(٢) وإن كان كلاوزيڤيتز لم يستخدم هذه المصطلحات كما أن

(١) راجع كلاوزيڤيتز الكتاب الثامن وبعض أجزاء على الأقل من الكتاب الأول (ربما الفصول الأول والثاني والثالث) وعلى التحقيق الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، وفي آخر أحاديث لعام ١٨٣٠ اعتبر الفصل الأول من الكتاب الأول على أنه هو الجزء الكامل ، وإلى غاية ما يمكن فإننا نشير في هذه الدراسة إلى الأجزاء التي روجعت.

(٢) اقترحت هذه المصطلحات أساسيًّا بوساطة هنتز ديلبروك في عدة دراسات وأخيرًا في كتابه «تاريخ فن الحرب» المجلد الرابع ، وقد نشأ صراع عنيف طويل حول استراتيچية فردريك الأكبر ، وأحدث عرض إنشائي قدمه هنتز هو «ديلبروك ـ كلاوزيڤيتز واستراتيچية فردريك الأكبر» راجع أيضًا من أجل مقاصد وأهداف كلاوزيڤيتز مقال هـ. روسينسكي في «المجلة التاريخية» المجلد الحادي والخمسين ٢٨٥-٢٩٣. انظر:

Hans Delbruck. Geschichte der kriegskunst.

O. Hintze, Delbruck, Clausewitz und die Strategie Friedtichs des Grossen.

H. Rosinski, Historische Zeitschrift.

دراسته الفردية للأحوال التاريخية لا تتمشى مع أي بحث مزدوج المبادئ والقوى من هذا النوع[١]؛ لقد كانت الحرب المحددة ، وستحدث ثانية من

(١) يرجع التباين والاختلاف إلى ما أسماه كلاوزيڤيتز (القانون الفلسفي / الديناميكي) أي القانون الذي يربط بين المظهر الرائع للنجاح.. وبين تأكيد الوصول إليه «جراهام ـ مود ١ ص ٣٤ ـ الكتاب الأول الفصل الأول»؛ ومن الناحية التوضيحية فإن هذا القانون أكثر صلاحية للتطبيق في (الدفاع) و(الهجوم) وعدد من العمليات الاستراتيچية والتكتيكية ، ويقرر كلاوزيڤيتز أن الانتصار أيسر وأسهل في العمليات المجاورة للحدود ، ولكن تلك التي تكسب بعد عملية اختراق بعمق تكون حاسمة بدرجة أكبر ، أما العمليات التي على «الخطوط الخارجية» فإنها تكون أكثر أمنًا «ذات المرجع ٢ ص ١٥٢ ، الكتاب السادس الفصل الرابع»؛ وكقاعدة عامة فإن عمليات الهجوم على (الجنب) أو على «الساقة» (المؤخرة) لها تأثيرها الكبير على العوامل المؤدية إلى (القرار) النصر أكثر من تأثيرها على (القرار نفسه) ذات المرجع ١ ص ٢٦١ الكتاب الرابع الفصل الثامن؛ وكان كلاوزيڤيتز كچوميني يميل إلى تفضيل العمليات على الخطوط الداخلية مع القيام بالاختراق التكتيكي ، كما أن التقدم على الخطوط المنفصلة المتعرجة يوفر نجاحًا أكثر وإن كان خطرًا بدرجة كبيرة «فإذا كان من الضروري القيام بهذا تبعًا لموقف القوات المتضادة كان هذا ضرورة لها مساوئها وشرورها» (ذات المرجع ٣ ص ١٤٦ ـ الكتاب الثامن الفصل التاسع» ، وقد وضح لكلاوزيڤيتز أن «القيام بالسير المنفصل على أن يحدث القتال في تجمع ووحدة واحدة عملية مليئة بالخطورة» «المجموعة ٦ص ٣٠٠» ، وفي هذه وغيرها كانت آراء كلاوزيڤيتز تعتبر غير صالحة للوقت الحاضر العصر الذي نعيش فيه وذلك تبعًا للتطورات الفنية التي حدثت منذ عصر كلاوزيڤيتز حتى اليوم؛ وتوجد دراسات عملية جيدة ولهذا فإن مؤلف هذه الدراسة التي نقدمها في هذه الصفحات «هانز روسفلز» يوجه كل ملاحظاته عن قصد إلى هذه العوامل الصالحة من نظرية كلاوزيڤيتز دون غيرها والتي هي بلا شك توضح مدى مساهمة كلاوزيڤيتز في تطور الفكر العسكري.

جاء هذا الحديث كله في الأصل في هامش دراسة روسفلز لكلاوزيڤيتز وكان أحق به متن الدراسة نفسه ، على أن هذا الحديث يوضح وجهة نظر كلاوزيڤيتز في الكثير من صور العمليات ولهذا فله أهميته التي تتطلب الدراسة العميقة ، وقد يكون من الصعب في الواقع دراسة آراء كلاوزيڤيتز في كتابه «في الحرب» إلا لمن يجيد الألمانية ، أو من يتوافر له الصبر في دراسة الترجمة الإنجليزية لصعوبة وجمود الأسلوب الذي كتبت به ، أما من شاء دراسة مقارنة لآراء كلاوزيڤيتز في ضوء تجارب العصر حتى فجر القرن العشرين=

جديد في حالتين اثنتين: أولاهما: عندما يكون الجذب السياسي أو أن تكون الأهداف السياسية صغيرة ، وثانيتهما: عندما تكون الوسائل العسكرية لها الطابع الذي يجعل تدمير قوات العدو غير مستطاع إطلاقًا أو أن يكون الاقتراب مستطاعًا فقط بطريقة مباشرة.

ومع وجهات النظر هذه فإن كلاوزيفيتز قد لامس على الأقل هذا النقاش بما بدأت به هذه الدراسة التي نحاولها في هذه الصفحات؛ فإن نظريته لم تخرج عن مجالها ، أي لم تستبعد من بحثها التقاليد المميزة الخاصة بالدول التي لا تتوافر لها حشود قومية ، ولم تستبعد كذلك الوسائل والأساليب التي تتوافر للقوى البحرية الكبيرة التي تعيش على المحيطات ، فإن القوات الصغيرة والحرب الاقتصادية لا يمكنان من تدمير قوات العدو في المعنى العسكري الكامل لهذه الكلمات؛ ومع هذا يبقى الرأي الثاني لكلاوزيفيتز ، الرأي القائل بحدوث الحرب كاستكمال للسياسة والذي يقصد به تقديم «وحدة أكبر» لموضوع البحث؛ وفي الفصل الأول من كتابه «في الحرب» ـ الفصل الوحيد الذي اعتبره كاملًا ـ عاد كلاوزيفيتز فجمع نوعي الحرب في تطور تدريجي واحد ، وقد جاء هذا في الجملة الحاسمة التي ذكرتها من قبل والتي جاء فيها: «كلما قويت وعظمت دوافع الحرب كلما كانت الحرب أقرب إلى صورتها المجردة».

ويبدو لكاتب هذه الدراسة أن هذه الفكرة تنطبق تمامًا على الكثير من المنازعات العسكرية في الماضي القريب؛ فقد بقي نوعا الحرب منفصلين

=فمن الممكن أن يصل إلى هذا من دراسة كتاب (فن إدارة الحرب) للجنرال كولمار فرايهرفون درجولتز تعريب الأميرالاي حامد نيازي إصدار وزارة الحربية المصرية الطبعة الثانية عام ١٩٥٠ (المترجم).

متباعدين ، والمسألة هي ما إذا كانت الأساليب العسكرية أو السياسية الواجب تأكيدها قد زج بها في الجدل والنقاش اللذين دارا حول الاستراتيچية الشرقية والغربية واللذين قسما الرأي العام في ألمانيا وانجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى ، وإذا كانت هذه المناقشة العنيفة التي دارت حول ما إذا كان تدمير قوات العدو ، أو كانت مسألة مجرد الاحتكاك به قد استهدفا في هذا الصراع العالمي إذ ذاك ، قد قللت إلى أبسط صورها ، فلا شك أن هذا الامتداد للحرب الحديثة وهذا الضغط الكبير للمبادئ المتضادة قد جعلا هذا الربط بين نوعي الحرب «يصل إلى أقصى مداه»؛ وسواء أكان الرأي الأصلح هو القيام بالعمل غير المباشر مع جمع الانتصارات الجزئية بعضها مع بعض ، أم كان الأصلح هو الاعتماد على عامل الوقت والقيام بمجرد الاحتكاك بالعدو ، فإن مرجع هذا ومرده إلى المهارة في العمل الأمر الذي لا يؤثر في الهدف الأساسي؛ «ومجرد الاحتكاك في حال ما ، قد يجمل «التدمير والإفناء» في حال أخرى إذا لم نذكر شيئًا عن الأسلحة والحصار والعمل ضد الحصار»؛ وقد يمكن أن تطبق ذات وجهة النظر هذه على المناقشات التي دارت في تاريخ قريب حول عدة موضوعات حول الجيش الصغير الذي يتوافر له الإعداد الميكانيكي إلى حد بعيد ، والجيش الكبير الحشد الوافر العدد؛ حول الحرب الجوية؛ حول المبدأ القاري (نسبة إلى قارة أوروبا) للقتال حتى النهاية؛ ولهذا فإنه في ضوء الطابع الحاسم الذي للحرب الحالية «يقصد الحرب العالمية الثانية» فإن الاتجاه يبدي أنها حرب توافرت لها الوسائل العسكرية وإن لم تتوافر لها «النهاية العسكرية» ، ويبدو أنه لم يعد إلا القليل من الأمل للطابع الذي جاء به القرن الثامن عشر طابع القتال لأقل ما يمكن من الوقت!

وتعود المشكلة الحرجة الحاسمة من جديد متصلة بناحية من نواحي التباين التي أثارها كلاوزيڤيتز ألا وهي ناحية حديثة عن «الدفاع» و«الهجوم»؛وهذه في الواقع ناحية سياسية استراتيچية تكتيكية ، ولكن كلاوزيڤيتز ينسجها كلها معًا في تحليلاته لطبيعة الحرب ويعطيها اتجاهًا جديدًا؛ على أن نظرته إليها تختلف عن وجهة النظر التي كان من المتوقع أن تكون وجهة نظر «الأسقف الأكبر المبشر بصناعة الحرب النابوليونية» وذلك لشيء واحد هو أنه قد قدر قيمة كبيرة للدفاع ، وهي حقيقة يعتبرها الكثيرون من الكتاب العسكريين للقرن التاسع عشر كنقطة سوداء في فكر كلاوزيڤيتز.

أليس المهاجم هو الذي يسيطر دائمًا على قانون العمل؟ أليس هو الذي يتمتع بكل النفع الذي لقوة المبادأة؟ فكيف يمكن أن يتنكر كلاوزيڤيتز في صورة أخاذة بكل هذه الفوائد والمنافع التي تجيء مؤكدة الأفضلية المعنوية التي للهجوم؟[١].

كان من الواضح أن لعامل المفاجأة أهمية وعلى الأخص في العمليات التكتيكية ، ولم ينكر كلاوزيڤيتز هذا على ما يتضح من كتاباته وإن كان قد رأى بأن هذه الأهمية تقل في الأعمال الاستراتيچية؛ ومع أنه من الواضح أنه بينما يكون «المهاجم» هو الذي يستطيع القيام بالتحرك الأول ، فإن فائدة «اليد الأخيرة» تكون في جانب المدافع ، فإن كلاوزيڤيتز يبقى مصرًّا على أن الدفاع هو أول صور الحرب ، وينطلق كلاوزيڤيتز هنا ليقدم حديثًا أخاذًا يمكن أن يعتبر حديثًا عامًّا مع ما فيه من إشارة لنابليون من أن المعتدي

(١) جراهام ـ مود ٣ ص ٣١ «الكتاب السابع الفصل الخامس عشر».

«السياسي» يكون دائمًا محبًّا للسلام[١].

وتقوم نظرية كلاوزيڤيتز إلى حد بعيد على إثبات أن الدولة الضعيفة تتوافر لها على الأقل فرصة مقاومة عدو قوي ، وهي تستطيع هذا بسبب أن الدفاع هو «أقوى صور الحرب» ، ولم يستطع كلاوزيڤيتز بل ولم يكن ليستطيع أن يقدر إلى أي حد ستعاون نظرياته في العمليات التكتيكية بهذا التطور في الأسلحة السريعة النيران ، وتشير النقاط التي يقدمها والتي يراها في جانب الدفاع ، تشير على التكتيك كما تشير على الاستراتيچية والسياسة ، فإن الدفاع يتمتع بتشجيع سياسي ونفع معنوي وكل هذا مستمد من دفاعه عن وطنه ، وهو يتمتع أيضًا بالفوائد التي تكتسب من مسرح الحرب: من القلاع ، من المواقع ، من استخدام الأرض؛ كما ينتفع كذلك من عامل الوقت ومن الحوادث غير المتوقعة ، وينتفع أيضًا من إجهاد العدو ، من نقص الرماة المهرة بين جنوده ، وغير هذا من العوامل؛ وفي إيجاز يمكن القول بأن الدفاع هو الصورة الأقوى بسبب طبيعته الخاصة ، وهنا يقول كلاوزيڤيتز: «إن الاحتفاظ بالشيء أسهل من تطلبه»[٢] ، وهي جملة تبدو لها أهميتها على التخصيص في ضوء تجارب عام ١٩٤٢ ، ويقول كلاوزيڤيتز أيضًا عن كل شيء لا يحدث يكون في جانب المدافع ولمصلحته ، ذلك لأن المدافع: «إنما يحصد ما لم يزرع»[٣].

على أن منافع الدفاع يمكن أن تعادل تعادلًا مضادًّا تبعًا لعلاقة منطقية «تجمع بين الدفاع والهجوم» ، فالدفاع هو الصورة الأقوى فقط يكون

(١) ذات المرجع ٢ ص ١٥٥ (الكتاب السادس الفصل الخامس).
(٢) ذات المرجع ص ١٢٤ (الكتاب السادس الفصل الأول).
(٣) ذات المرجع ٣ ص ٣ (الكتاب السابع الفصل الثاني).

الغرض منه سلبيًّا ، والهجوم هو الصورة الأضعف إلا أن الغرض منه إيجابيًّا ، وفي تعقبنا لهذا الغرض الإيجابي فإن المهاجم هو الذي يجب أن يصل إلى قرار ، فإذا كان الغرض عظيمًا وجب على المهاجم أن يكافح للحصول على قرار في أسلوب الحرب المطلقة ، وفي نطاق الهجوم نفسه فإن العمل الدفاعي يعتبر «ثقلًا معطلًا» بل في الحقيقة «خطيئة قاتلة» إذ أنه من الضروري أن يشتمل الدفاع على وجوب التحول إلى العمل الهجومي[١]؛ إن الدفاع المطلق يتعارض مع طبيعة الحرب ، ويمكن أن نستعير جملة مشهورة جاء بها العصر الذي نعيش فيه: هي أن الحروب لا تكسب بوساطة «عمليات تقهقر وانسحاب ناجحة»؛ ولهذا فإن كلاوزيڤيتز قد انتهى بأن اختتم حديثه بقوله: «إن الهجوم السريع العنيف مثله مثل بريق السيف المصقول ، وبهذا فهو ألمع نقطة في العملية الدفاعية»[٢].

على أن العلاقة المنطقية بين الهجوم والدفاع إنما تتركز في واحدة من فكر كلاوزيڤيتز التعليمية هي الفكرة أو النظرية التي أسماها «نقطة أكبر تطور»[٣]؛ فإذا أخفق الهجوم الاستراتيجي في الوصول إلى قرار فإن الاندفاع الأمامي يتأثر بالإجهاد الذي يناله؛ على أن بعض الموارد المادية والمعنوية للمهاجم تزداد مع تقدمه ، ولكن من ناحية عامة ولأسباب كثيرة يحدث أن تضعف قوى المهاجم ، وفي ضوء التصوير الواضح الذي تقدمه الحربان العالميتان: الأولى والثانية ، فقد لا تكون من ضرورة ملحة لتعدد العوامل المختلفة «التي تلقي عبئًا جديدًا على الجيش المتقدمة في كل خطوة

(١) ذات المرجع ٣ ص ٣ (الكتاب السابع الفصل الثاني).

(٢) ذات المرجع ٢ ص ١٥٤-١٥٥ (الكتاب السادس الفصل الخامس).

(٣) كل ما جاء بعد هذا إنما يرجع إلى نصوص الكتاب الثامن الفصل الخامس ولحق الكتاب.

من تقدمه»؛ وكما كتب كلاوزيڤيتز فإنه كان بلا شك يفكر أساسيًّا في تجارب حملة عام ١٨١٢ ، ولكن دراسته كانت تهدف إلى المشكلة الأساسية «فوراء نقطة أكبر تطور تنقلب كفتا النيران ، وعنف الحركة المضادة هو عادة أعظم من حركة الاندفاع الأمامي» ، والفكرة في هذا ، أنه يتوافر هنا الاختبار الصحيح للقيادة ، وكما أشار كلاوزيڤيتز فإن كل شيء« يتوقف على اكتشاف وإدراك الوصول إلى هذه النقطة ـ نقطة أكبر تطور ـ تبعًا لدقة ومهارة التقدير والحكم»؛ ومع استمرار حركة التقدم فإن المهاجم «يتقدم بتأثير الدفع إلى ما وراء خط التوازن» ويكون مثله مثل الجواد الذي يجر ثقلًا صاعدًا جبلًا فإنه قد يجد الصعود والتقدم أقل صعوبة من التوقف ، وقد يقدر المهاجم أمره على أساس انهيار إرادة العدو في اللحظة التي يندفع فيها هذا العدو «في غضبة الثور الجريح».

ومما لا شك فيه أنه كان يتوافر في كلاوزيڤيتز ميل صناعي إلى القائد الذي يحاول إدراك غرضه باستخدام «أقل ما يمكن من العدد» ، ومع هذا فإنه إذا فقد قائد مستقبله اللامع بسبب الإفراط في الحذر فقد يهوى قائد آخر في الدمار والفناء بسبب طيشه وتهوره؛ إن الاستهلاك بلا نفع استهلاك مدمر «وكل شيء في الغالب يتعلق بخيوط رفيعة مرجعها إلى الخيال والتصور».

وهنا يجب أن يثبت المدافع قدرته على القيادة بالإمساك بالفرصة التي تجيء بسرعة ، فإذا أرغم المهاجم بعد التقدم الطويل على العودة للدفاع فإنه يفتقر إلى الكثير من فوائد «الصورة الأقوى» ذلك لأن العوامل المعنوية والسيكولوجية تكون ضده ، ومع هذا فإنه لا يزال يمسك بفائدة من فوائد الدفاع هي قدرته على العمل؛ وهنا يظهر النوع الثاني من الحرب ، يظهر من

جديد ، فبينما لا يكون من الممكن له الوصول إلى تدمير قوات العدو تبقى له فرصة إظهار عدم قدرة العدو نفسه على تحقيق أهدافه..

لقد كانت هذه هي المشكلة التي واجهت فردريك ولكنه استطاع أن يحلها في المرحلة الثانية من حرب السبع السنوات؛ وقد لا يكون من الصعب إيضاح أن هذه المشكلة حدثت في صورة أخاذة في الحربين العالميتين..

والواقع أن نظرية كلاوزيڤيتز عن «نقطة أكبر تطور» تلقي الكثير من الضوء على أغلب الحوادث الأخيرة.

وهنا تبرز مسألة تستحق التقدير ، ففي مناقشة كلاوزيڤيتز «لنقطة أقصى تطور» ـ كما في كل كتاباته الأخرى ـ تبدو القيمة الكبيرة للعوامل المعنوية والسيكولوچية واضحة لامعة في كل مساهمته للفكر العسكري؛ وفي كتاب «في الحرب» وقف كلاوزيڤيتز عددًا من الفصول لأجل هذا الموضوع هي:

الكتاب الأول ـ الفصل الثالث.

الكتاب الثاني ـ الفصل الثالث.

الكتاب الثالث ـ الفصول: الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن.

وقد حلل كلاوزيڤيتز بعناية الخواص التي يجب أن تتوافر للقائد العام من جهة وللقائد العادي من جهة أخرى ، ومن الجلي الواضح أنه يضع في المرتبة العليا الربط التنسيقي بين الخواص التي تقتطع من مشاعر الفرد كالجرأة أو الإقدام وما إليها من الدوافع ذات الطابع العسكري؛ والخواص

التي تجيء من عمل الفرد دون أي تأثير لعاطفته ومشاعره والتي لها طابع ثابت رصين ، وأبرز كلاوزيڤيتز في تعاليمه لولي عهد بروسيا أهمية «القرارات التي تقوم على الأسباب»[١] ، وكما يقول في كتابه «في الحرب» : «ومن الواجب أن تفضل ترك أمر رفاهية إخواننا وأطفالنا في وقت الحرب»[٢] «للرؤوس الهادئة لا للرؤوس الثائرة المضطربة»؛ أو على ما يقول ثانية في مكان آخر ، إن العقل القوي ليس هو العقل القادر فقط على إنتاج الانفعالات القوية ، بل هو العقل الذي يستطيع الإبقاء على التوازن في غمرة الانفعالات القوية ، وبذلك فإنه برغم الثورة العاصفة التي تملأ الصدر ، وبرغم الإدراك الحسي ودوافع الحكم فإن العقل يمكنه أن يعمل في تحرر كامل كما يمكن أن تعمل الإبرة المغنطيسية وسط «البوصلة» التي تعلو ظهر سفينة تعبر البحر المتلاطم الأمواج[٣] ، إن قوة الخلق هي أصلح ما يمكن من التغلب على دوافع المقاومة الطبيعية ، وعلى الشكوك والمخاوف وما إليها من الانفعالات المؤثرة.

إن الفضيلة العسكرية لأي جيش تتطلب ما هو أكثر من الشجاعة؛ فليست «السجية أو الطبع» بالنسبة للأفراد هي التي تقاس وتقدر ، بل «الروح» للجيش هي التي يجب أن توضع موضع التقدير[٤] ، ومن المؤكد أيضًا أنه ليس العدو هو الأمر الأهم بالنسبة للجيوش.

ومع أن كلاوزيڤيتز يتحدث ملحًا عن الأفضلية العددية «من وجهة

(١) جراهام ـ مود ٣ ص ١٨٣ .
(٢) ذات المرجع ١ ص ٧١ الكتاب الأول الفصل الثالث.
(٣) ذات المرجع ١ ص ٦٠ .
(٤) ذات المرجع ١ ص ١٨٥ (الكتاب الثالث ـ الفصل الخامس).

عامة أولًا ثم في النقطة الحاسمة» فإنه يقاتل بوضوح «ضد الإدراك الحسي الخاطئ لهذه النظرية» في تقبلها بحرفيتها دون أهدافها الصحيحة[١] بالاتجاه نحو تقدير القيمة فقط للقوة العددية؛ وكان كلاوزيڤيتز يعني دائمًا بأن لا يحدث سوء فهم بالنسبة لهذه النقطة ، بل وبالإضافة إلى هذا فقد ألح في أن لا يحدث أي خطأ في تفهم مسالة تدمير قوات العدو أي أن يتجه التفكير فقط إلى مجرد قتل جنود العدو ، فإن المعركة الأساسية تتطلب قتل معنويات العدو أكثر مما تتطلب قتل جنوده[٢] ، وهذا في الواقع هو رأي كلاوزيڤيتز في حكمة عسكرية معروفة وهي أن المعركة لا تفقد من الناحية المادية ما لم تهزم روح القائد أو روح الجيش هزيمة منكرة.

وفي تحليلاته الأخيرة يعود كلاوزيڤيتز فيؤكد أن «العزيمة» هي التي تقف بارزة مسيطرة في فن الحرب شأنها شأن المسلة التي تتوسط الميدان الفسيح الذي تخرج منه وتتجه إليه كل الطرقات الرئيسية في المدينة[٣].

وقد تبدو بعض الملاحظات عن روح الجيش المعنوية التي خرج بها كلاوزيڤيتز من تحليلاته للحرب تبدو «رومانتيكية» ، بل قد يبدو بعضها غريبًا لنا ، ومع هذا فإن وجهة النظر الأساسية لكلاوزيڤيتز وإصراره على غلبة وأهمية العوامل غير المادية وسط الحقائق المادية للحرب لا تعتبر بحال ما عديمة النفع؛ صحيح أنها أقل صلاحية للتطبيق بالنسبة للجيوش الميكانيكية التي نراها اليوم مما كانت في فجر القرن التاسع عشر بالنسبة للجنود الذين يسيرون على أقدامهم والذين يركبون الخيول ، ومع هذا ففي

(١) ذات المرجع ١ ص ١٩٨ (الكتاب الثالث ـ الفصل الثامن).
(٢) ذات المرجع ١ ص ٢٨٦ (الكتاب الرابع ـ الفصل الحادي عشر).
(٣) ذات المرجع ص ٧٨ (الكتاب الأول الفصل السابع).

صور الصراع الدامي الذي يحدث اليوم تصدق في كل ساعة الحكمة التي تقول: «بأن القوى المادية هي «قبضة السيف الخشبية» بينا تكون القوى المعنوية هي «الحد اللامع القاطع» الذي للسيف»[١].

***

(١) ذات المرجع ص ١٧٨ (الكتاب الثالث الفصل الثالث).

مراجع الفصل الخامس

كلاوزيفيتز

Clausewitz, Hinterlassene Werke des Generals Carl, V. Clausewitz uber Krieg und Kriegfuhrung (Berlin, ١٨٣٢-١٨٣٧).

O.J. Matthijs, on War (with a forward by Richard McKeon) Modern Library, (New York, ١٩٤٣).

Colonil J.J. Graham, Carl von Clausewitz, On War, with introduction and notes by Colonel F. N. Maude, ٣ vols. (London, ١٩١٨).

Maj. General T. D. Pilcher, War According to Clausewoz, (London and New York, ١٩١٨).

Hans W. Garzke, Carl von Clausewitz, Principles of War, (Harrisburg, ١٩٤٢).

Karl Linnebach, Karl und Marie von Clausewitz: Ein Lebensbild in Briefen und Tagebuchblattern (Berlin ١٩١٦).

Hans Rothfels, Carl von Clausewitz, Politische Schriften und Briefe (Munich, ١٩٢٢).

Karl Schwartz, Leben des Générals Carl von Clausewitz, ٢ vols . (Berlin, ١٨٧٨).

Hans Rothfels, Carl von Clausewitz, Politik und Krieg (Berlin, ١٩٢٠).

Walter Malsten Schering, Die Kriegsphilosophie vin Clausewitz (Hamburg, ١٩٣٥).

R. U. Cammerer, Entwicklung der Strategischen Wissenschaft (Berlin, ١٩٠٤).

Freytag Loringhoven, Die Macht der PersonlichKeit in Krieg, Studien nach Clausewitz (Berlin ١٩٠٥).

Liddell Hart, The Ghost of Napoleon, (London, ١٩٣٣).

Alfred Vagts, The History of Militarism, (New York, ١٩٣٧).

Hoffman Nickerson, The Armed Horde (New York, ١٩٤٠).